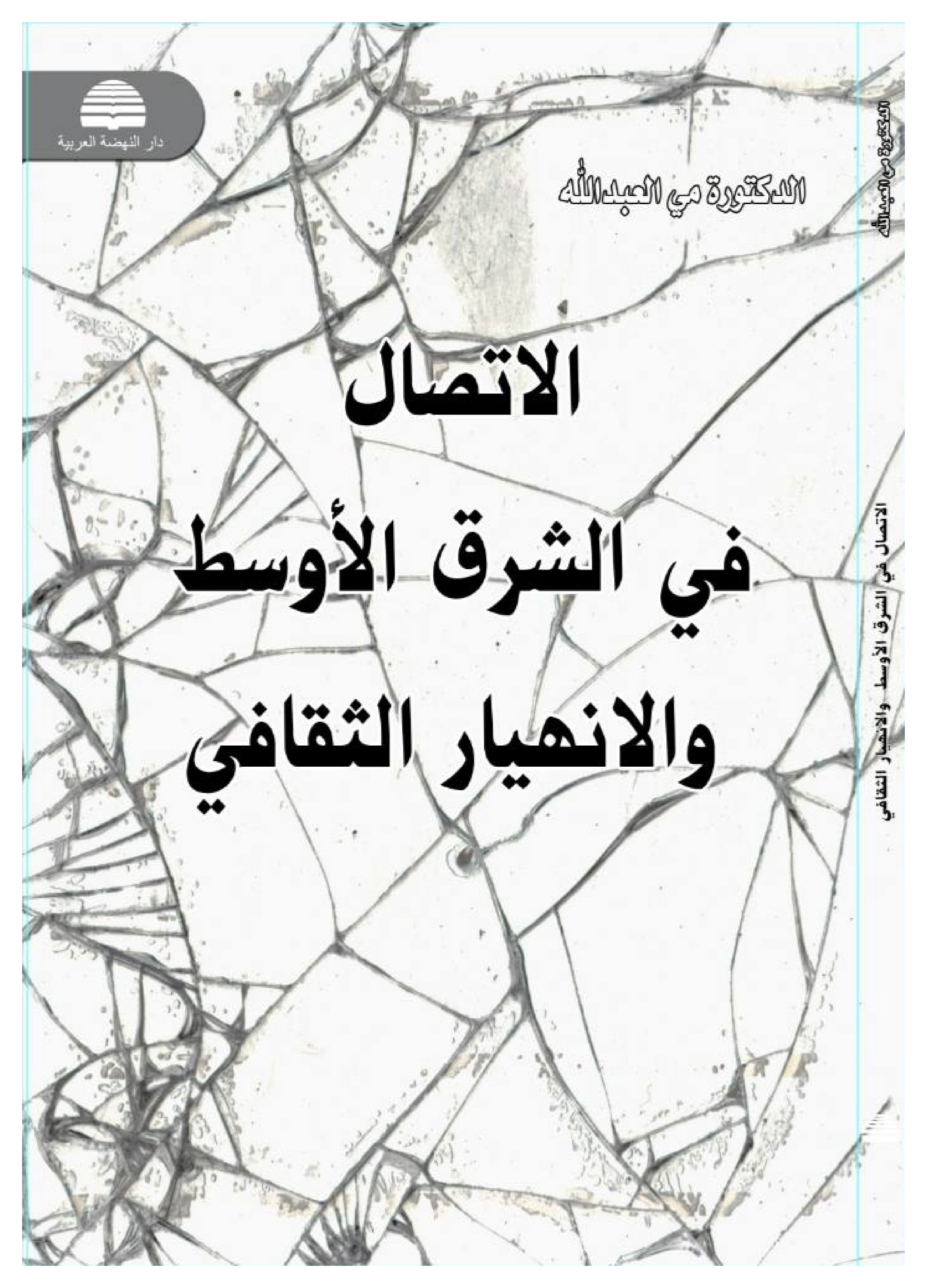

دار النهضة العربية
الدكتورة مي العبدالله
الاتصال
في الشرق الأوسط
والانهيار الثقافي
الدكتورة مي العبدالله
الاتصال في الشرق الأوسط والانهيار الثقافي

الاتصال في الشرق الأوسط والانـهيار الثقافي

دور الرابطة العربية للبحث العلمي وعلوم الاتصال

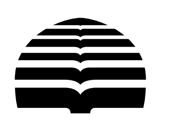
الاتصال في الشرق الأوسط والانهيار الثقافي

دور الرابطة العربية للبحث العلمي وعلوم الاتصال

الدكتورة مي العبدالله



دار النهضة العربية



دار النهضة العربية
بيروت - لبنان

منشورات: دار النهضة العربية
بيروت - شارع الجامعة العربية - مقابل كلية طب الأسنان
بناية إسكندراني # ٣ - الطابق الأرضي والأول

رقم الكتاب :
اسم الكتاب : الاتصال في الشرق الأوسط والانهيار الثقافي
المؤلف : أ.د. مي العبدالله
الموضوع :
رقم الطبعة : الاولى
سنة الطبع: 2015م. 1436هـ
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات :

تلفون : 854161 - 1 - 961 +
فاكس : 833270 - 1 - 961 +
ص ب : 0749 - 11 رياض الصلح
بيروت 072060 11 - لبنان
بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-402-

إهـداء

إلى كل إنسان في الوطن العربي لا يزال يؤمن بحقه في المعرفة والحريّة والوجود رغم عمق المعاناة.

د. مي العبدالله
2015 - 3 - 15

الفهرست

تقديم

لعبت الشبكات الاجتماعية الإلكترونية دورا رئيسيا في الإطاحة بالأنظمة العربية وجمع الحشود حول نفس القضايا ونفس الأهداف، وأتاحت للشباب ان يتواصلوا وينظموا تحركاتهم ويحققوا التغيير، وسمحت للشعوب أن تتحرر من الأنظمة الشمولية والدكتاتورية، وأن تعبر عن استعدادها للمشاركة في عمليّة "الثورة" والتغيير، لكن هذه الشبكات تتطور بسرعة كبرى و يتزايد عدد مستخدميها، وهي في الواقع أدوات في أيدي المتلاعبين بالنظام الاقتصادي والسياسي العالمي وتخدم أغراضهم.

الاّ أن كل الدراسات تشير الى حقيقة واحدة وهي أن استخدامات وسائل الاتصال الحديثة قد أدت الى انهيار الثقافات العالمية والهويات والخصوصيّات الثقافية.

تقدم شبكة الإنترنت أملا جديدا و فرصة جديدة للمواطنين لأن يتعلموا كيف يعملون ويفكرون لأجل التعايش بوحدة وسلام. وهذا يستلزم بناء ثقافات جديدة، وهويات تقوم على تبادل المعلومات، ولا تأخذ في الاعتبار أصل أو لون البشرة، أو المظهر الخارجي، أو دين الآخرين.. .لكن الرهانات الاجتماعية التي تواجهها وسائل اعلام والاتصال الحديثة هي ذات أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الإنسانية، وتأتي من جهات ثلاث: أولاً الحكومات التي تسعى للحفاظ على السيطرة الاجتماعية على السكان، ثانياً: الشركات المصنعة التي تريد خلق سوق عالمية، وثالثا المستخدمين الذين يحلمون بالتقدم من خلال وجودهم

العالمي على الشبكات الالكترونيّة.

ولكن، لا بد أن تستقر الأنظمة العربية الجديدة وتجد طريقها للديمقراطية وللمشاركة المجتمعية الحقة، وتبقى الرقابة الذاتية هي المعيار للتعبير عن الذات، وهي الى الآن لا تزال محفوفة بالمخاطر. لذلك فمنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان تناضل لحماية الذين يعبرون عن أنفسهم على الإنترنت في العالم العربي، وضد التدابير المتخذة من قبل الحكومات للسيطرة على الأنشطة عبر الإنترنت.

وتبقى المشاركة المجتمعية هي وحدها أمل الشعوب وطريقها للخلاص، ونعني بها الإسهامات التي يقدمها المواطنون سواء أكانوا أفراداً أو جماعات تطوعية، وهذه الإسهامات قد تكون مادية أو عينية أو بالرأي أو بالعمل أو بالتمويل أو غير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى تنمية المجتمع وتحقيق أهدافه . والمشاركة المجتمعية هي ما يقوم به أعضاء المجتمع من أنشطة لخدمة مجتمعهم في كافة مجالاته السياسية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وقد يكون هؤلاء الأعضاء أفراداً أو جماعات أو مؤسسات، وتعتمد سلوكيات هؤلاء الأعضاء على التطوع والوعي والنزوع والوجدان والشفافية والالتزام وليس على الجبر والإلزام ، وقد تكون هذه الأنشطة تُمارس بطرق مباشرة أو غير مباشرة.

ومع كل الأزمات والمتغيرات الثقافية الناجّة عنها، لا بد للدول العربية من اعادة بناء ثقافة المشاركة لتتمكن من اعادة تركيب أنظمتها الاجتماعية والاقتصادية. وهنا تعتبر وسائل الاتصال الاجتماعيّة أداة جديدة في غاية الأهمية والفعاليّة لتوزيع المعلومات وتسهيل التعبئة وتنظيم الأحداث، والاتاحة للشعوب لأن تعبر عن نفسها بشفافية وحرية ولأن تحاسب صناع القرار. هي أهم أداة للديمقراطية في تاريخ العالم العربي، وفي الواقع، لقد طوّرت امكانية التعبير عن القدرات الفردية والجماعية، بما لم يشهده تاريخ االاتصال الانساني من قبل.

ان قوة وسائل الاتصال الحديثة تنبع في الواقع من حقيقة أن المعلومات تأتي

من الناس، والمستخدمون هم الجهة الفاعلة الحقيقية. فعلى المستوى السياسي مثلا، يمكن أن تكون شبكة الإنترنت أداة للمؤتمرات ولتوطيد ثقافات الاتصال وتجاوز المواقف الدينية والمذهبية والفئوية المتطرّفة.

لقد أدت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والرقمية إلى إقامة علاقات جديدة بين صناعات المحتوى وصناعات وسائل الإتصال وتقنياتها، والصناعات الثقافية الرقمية. لذلك يقتضي أي مشروع تنموي قياس الآثار الاقتصادية والاجتماعية لهذه التغييرات، ودراسة خصائص اللاعبين الجدد في هذا القطاع في مختلف دول العالم، وابتكار نماذج جديدة لتنظيم الإنتاج والاستهلاك الثقافي. وكل هذا يتطلب إعادة تحديد الهياكل والاستراتيجيات المالية والصناعية، و تجديد السياسة العامة للتنظيم والمراقبة، وخلق عمليات جديدة للإنتاج والنشر واستخدام الإنتاج الفكري والفني، ودعم وتشجيع استخدام واستهلاك المنتجات المبتكرة فالصناعات الثقافية ليست فقط عاملا اقتصاديا هاما، بل هي أيضا فرصة لتعزيز الشعور بالانتماء والوعي بالثقافة الوطنية، مع حماية التنوع الثقافي العالمي والفهم المتبادل بين الدول.

ان التطورات السريعة في قطاع الاعلام والإتصال توجب على كل مثقف أو مسؤول إيلاء المزيد من الاهتمام للظواهر الاقتصادية التي تحكم هذا المجال، كمعدلات استهلاك وسائل الإعلام والاتصال بموازاة الزيادة في عدد أجهزة النقل والاستقبال والوسائط الحديثة، وارتفاع القوة الشرائية والمستوى الثقافي لدى المتلقي، وتفاعلات المستهلك مع التغيرات وسعر العرض ووطأة الضغوطات الاقتصادية، ومسائل التمويل.

كثيرة هي الاشكاليات المطروحة أمام الباحثين في علوم الاتصال. وكثيرة هي الحقول التي تنتمي الى هذه العلوم التي ما زالت في طور النضوج (أربعين سنة). وكثيرة هي الخلافات التي تثيرها بين الأساتذة والباحثين، ما يجعلنا نقتنع

بضرورة البحث في ماهية ومفهوم هذا العلم وخصوصيّته وحدود انفتاحه على سائر العلوم الإنسانية والاجتماعية، والعمل بجدية على تطوير مناهجه وطرقه وأدواته البحثية من أجل تفعيلها في الواقع العربي، وربطها بخصوصياته الثقافية، وتصويب أداء وسائل الاعلام والاتصال، ودرء مخاطرها للمستقبل.

لذلك تم تأسيس الرابطة العربية لعلوم الاتصال علّها تحاول جمع ما قد تفرّق. وهذا ما تأخذنا اليه الصفحات الآتية من هذا الكتاب.

لقد أدّت بنا سنوات من البحث في المتغيرات الثقافية وانعكاساتها على المجتمعات الانسانية، وعلى الانسان نفسه في كل مكان، إلى إعادة التفكير في معارفنا العلمية وأساليبنا البحثية ومناهجنا، وترسّخ اقتناعنا بضرورة الخروج من هذه الدراسات بحقائق علميّة، أو نظريات ناجمة عن الاستخدامات والتجارب الاتصالية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط وبلدان الوطن العربي بالذات التي جمعت بينها في الأزمنة الأخيرة قواسم مشتركة كثيرة، بنتيجة انقلاب الأنظمة السياسية وبالتالي الإجتماعية المستهدفة من قبل كبار المتلاعبين بالنظام الدولي الجديد. الحقيقة الأولى التي انطلقنا بها كفرضية وتؤكدها كل الدراسات حول محتوى الاعلام العربي واستخدامات وسائل الاعلام والاتصال، هي "نظرية ثقافة المشاركة".

د.مي العبدالله

2015 - 1 - 5

I - المتغيرات الثقافية في لبنان والشرق الأوسط

1- مفهوم المتغيّر الثقافي

2- "صراع الثقافات"

3- التحولات الثقافية في الشرق الأوسط

4- التحولات الثقافية بعد "الثورات العربية"

5- العولمة وثقافة الشركات المتعددة الجنسية

6- الثقافة في الشرق الأوسط وتحديات المرحلة

تمهيد:

مفهومنا للثقافة هو أنها منظومة متكاملة، تضم النتاج التراكمي لمجمل موجات الإبداع والابتكار التي تتناقلها أجيال الشعوب، وتشمل بذلك كل مجالات الإبداع في الفنون والآداب والعقائد والاقتصاد والعلاقات الإنسانية، وترسم الهوية المادية والروحية للمجتمعات لتحديد خصائصها وقيمها وصورتها الحضارية، وتطلعاتها المستقبلية ومكانتها بين بقية المجتمعات.

وبهذا فإن الثقافة إرث تاريخي يحمل الطابع المميز لكل مجتمع، فهي تتعارض مع المفهوم المعمم للعولمة، وهو ان محاولة عولمة أي ثقافة تعني في الحقيقة السعي إلى بسط هيمنتها على الثقافات الأخرى، إما بطمسها أو تحييدها في عدد من المجالات، وهذا ما سيتضح لنا خلال متابعتنا للصفحات القادمة.

الثقافة هي هوية أي مجتمع وتاريخه وخبرة أفراده، وهي القادرة وحدها على مواجهة السياسي القابل للتبديل وربما الزوال، وهي تعني في مجتمع ما، التعبير عن النوعية الحضارية والأخلاقية والذهنية والسلوكية.

بالتالي يصعب تغيير الملامح الجذرية لها إلا بفاعل خارجي.

والثقافة في اللغة العربية هي الحذق والتمكن، وثقف الرمح أي قومّه وسواه، ويستعار بها للبشر فيكون الشخص مهذباً ومتعلماً ومتمكناً من العلوم والفنون والآداب. هي إدراك الفرد والمجتمع للعلوم والمعرفة في شتى مجالات الحياة. فكلما زاد نشاط الفرد ومعارفه واكتسابه الخبرة في الحياة، زاد معدل الوعي الثقافي لديه، وأصبح عنصراً بناءً في المجتمع، اي مثقفا.

كما يقصد بالثقافة الكيان المادي والروحي لمجتمع من المجتمعات، ويدخل في ذلك التراث واللغة والدين وعادات المجتمع ونشاطه الحضاري.

إن مسؤولية المثقف هي تنبيه المجتمع أو تذكيره بهذه الحقيقة من خلال مؤسسات التعليم والتربية والقانون والأخلاق، مع الوعي بتأثير العوامل الاقتصادية وتقنية آلية اقتصاد السوق الحرة. ويتم تصنيع الثقافة مع قيم العولمة في مؤسسات الإعلام الموجّه للمصالح السياسية الكبرى. وهو ما عبر عنه هابرماس صاحب نظرية "المجال العام"، بقوله: "إن شرط ما بعد الحداثة مرهون بحال ومستوى المعرفة الخاصة لمجتمع ما بعد الصناعي، أي المجتمع الذي تتخذ فيه القرارات من خلال تكنولوجيا ثقافية حقيقية".[1]

ونحن نعيش في عصر صناعة الثقافة، عصر قيم ثقافية تنتجها وسائل الإعلام متوافقة ورؤيتها الخاصة السياسية والاقتصادية، وهو الذي شهد رواج مصطلح "الغزو الثقافي" واستهداف ثقافة الآخر، سواء فسرنا ذلك بالعمدية للتوجه نحو ثقافة دول الشرق الأوسط أم لا، نظرا لارتباط ثقافة الغرب بمصالحه الاقتصادية والسياسية.

---

1 ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، "الشركات المتعددة الجنسيّة والأزمة الاقتصادية العالمية"، بيروت 1986، ص 43 و166.

1-المتغيرات الثقافية

أ-التحدي الحضاري

مع التطور التكنلوجي وظهور وسائل الاتصال الحديثة أصبحت الثقافة مرتبطة بمواضيع أو بمناسبات ذات صبغة اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، أو حتى دينية ، كما هي مرتبطة بجمعيات ومنظمات تعمل على تأطير واستقطاب الشباب والناشئة، وتكوينهم وصقل مواهبهم لتفجير طاقاتهم الثقافية وإظهار إبداعاتهم.

لكن العولمة قد قيّدت الثقافة اذ سيطر عليها الإنتاج الثقافي الغربي والأمريكي، وساهمت فيها وسائل الإعلام والاتصال بقسط وافر، مما دفع بالكثير من الشعوب إلى الدفاع عن هويتها الثقافية بالمحافظة على موروثها الحضاري كالمعالم العمرانية والأثرية التاريخية، و تقاليدها وقيمها.

و لكن، إذا ما نظرنا إلى الزخم المعرفي والمعلوماتي الهائل الذي تعيشه الإنسانية والتحديات التي تواجهها من جراء مشروع العولمة، رأينا كم من الملح علينا بلورة نظرية جديدة للثقافة، حتى يتسنى لنا كأفراد ومؤسسات، الاستفادة القصوى من هذا الزخم المعرفي الضخم[1].

ومن الطبيعي أن بلورة "نظرية ثقافة المشاركة" لا تتأتى إلا بدعم وتشجيع عملية الاجتهاد الفكري، لما توفره هذه العملية من آفاق ثقافية جديدة، ونظرات فكرية تجمع البعد التاريخي التأصيلي، وبعد العصر وتطوراته. فمواجهة تحديات

1 ـ رازق سرياني، "الشباب وتحديات العصر"، موقع القديسة تريزا بحلب.
http://www.terezia.org/section.php?id=1113

العولمة، على المستوى الثقافي، لا تتم إلا بإنهاض الحياة الثقافية العربية، ووصلها بالأفكار الإنسانية العليا، التي تثري.

فعصر العولمة لا يمكن أن يواجه ثقافيا إلا بالمزيد من النقد والحوار، والتوجه إلى القضايا الإستراتيجية، وإطلاق حرية الإبداع وأفكار المساءلة والابتعاد عن كل ما يمنع حيوية وحرية العمل الثقافي العربي، مما يزيدها زخما وحيوية. إذن فانه لا يمكن أن نواجه تحديات العولمة، إلا بحضور الوعي الحضاري وتكثيف آلياته في حياتنا، حتى تتأسس الشروط اللازمة للانطلاق في رحاب الوعي وآفاقه بعيدا عن أطر التقليد الضيقة أو خيارات التبعية المذلة، ذلك الوعي الذي ينهي كل مفردات التقليد الأعمى، من حياة الإنسان فتصبح ذاته ذاتا عارفة متحركة باستمرار نحو الآفاق المعرفية المرجوة.

ثم إن المجال الثقافي فسيح وهناك آفاق لتطويره أمام شرائح أو أقليات كانت مهمشة، مما يقتضي إعادتهم إلى جذورهم الثقافية. و يتم فسح لهم المجال للتنوع وخاصة في المجتمعات المتعددة الأعراق .هذه التحولات تحمل في الواقع عدة تناقضات، تلزم العديد من البلدان بإعادة صياغة سياساتها الثقافية ومراجعة دورها في ظل العولمة التي فرضت عليها[1].

ب- التحدي الثقافي

ومع كل تحوّل اجتماعي في المجتمع تولد تحديات جديدة غير متوقعة. وتصبح هذه التحديات واقعاً اجتماعياً على الناس التعاطي معه بالعلاقة مع تربيتهم وثقافتهم وقيمهم الاجتماعية والدينية. ويمكن وصف تاريخ البلاد العربية الحديث بأنه في أغلبه سلسلة من ردود أفعال متتالية على التحدي الغربي للحضارة العربية، وذلك على المستويات كافة من سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفكرية.

---

1 - المصدر نفسه.

ولا يمكن أن نفهم طبيعة التطور الذي يطرأ على المجتمعات العربية إلا إذا فهمنا حقيقة التحدي المستمر الذي يشكله الغرب بالنسبة الى المجتمعات العربية من جهة، ومن جهة أخرى ردود الأفعال العربية في وجه هذا التحدي. لقد فرض الغرب على الشعوب العربية منذ احتلاله لبلادها نُظماً سيّرت البلاد لسنين عديدة، واستطاع أن يفرّقها إلى دويلات ويقتطع أراضيَ وما زال يفعل ذلك. وإذا استطاع العرب الوقوف في وجه هذا التحدي وانتزاع بعض حقوقهم المشروعة منه، فإنهم ما يزالون، وأقلّه على الصعيد النفسي، يتصرفون بردود أفعال تجاهه.

والتحدي الثقافي مرتبط بسابقه التحدي الحضاري وتابع له. فمن المعلوم مثلاً أن أكثر من 40 % من سكان العالم العربي هم في عمر يقل عن الثامنة عشرة، كما أن ثلث هذه الفئة هم في السادسة فما دون[1]. بمعنى آخر هناك حوالي 25 مليون طفل مستقبلهم هو مستقبل المجتمع العربي. أما فئة الشباب فتشكل حوالي 27 الى 30 % من سكان العالم العربي.

من جهة أخرى، الثقافة لا تعني فقط الحصول على الشهادات العلمية والأدبية. فمجرد الدراسة والحصول على الشهادات لا يضفي على الإنسان صفة المثقف بصورة آلية. العلم ما هو إلا اكتساب موضوعي ولا يشكل ثقافة بحد ذاته. إنه يصبح ثقافة بالمعنى الشامل إذا توفّر لدى المتعلم الوعي الاجتماعي، وذلك العامل الذاتي الذي من خلاله فقط يصبح الفرد مثقفاً.

ولكن، يتعرض الشباب اليوم الى تحدي التعامل مع ثقافات مختلفة عبر تقنيات الفضاء المفتوح والذي لا ضابط له ولا حدود تقيّده. هذا ما اصطلح على تسميته بـ"العولمة الثقافية". هي عولمة مفيدة وايجابية حيث وسّعت آفاق المعرفة والإطلاع على ثقافات أخرى والتواصل مع العالم عبر شبكة عنكبوتية من المعلومات، وسهّلت الحصول على المعلومة خلال دقائق. كل شيء أصبح في

---

1 ـ رازق سرياني، "الشباب وتحديات العصر"، م. ن

عصرنا هذا أسرع، حتى الزمن أصبحت سرعته مخيفة. فإذا قدّرنا مثلاً الحد الفاصل بين جيلين بثلاثين عاماً فإن هذه الأعوام تساوي بمقاييس الأجيال السابقة أكثر من قرنين من الزمان.

لكننا نعيش اليوم في عالم المتغيرات السريعة، وثقافة الشباب اليوم تشوبها حالة من الاضطراب والخلط وضيق الأفق. والعالم اليوم يعيش حالة من المادية والاستهلاكية تستند كثيراً على التكنولوجيا والمال، وتبتعد رويداً رويداً عن القيم القديمة[1].

في عالمنا اليوم كثير من الضياع والتشتت والقلق، وبالمقابل كثير من الاعلام والاتصال والعولمة التكنولوجية والعسكرية والاقتصادية والفكرية....

ج-التحدي الإعلامي

ومن الطبيعي أن يتبع الحديث عن التحديين الحضاري والثقافي الإشارة إلى التحدي الإعلامي الذي يعتبر وسيلة نقل مميزة للثقافات الوافدة. بات الإعلام بكل أشكاله وسيلةً سهلةً متاحةً للكل وفي كل مكان وزمان. وهل يخلو منزل أو متجر أو مطعم أو فندق من جهاز تلفزيون موصول على الشبكة الفضائية؟ وهل تخلو جلسة اجتماعية أو منزلية من وجود تلفزيون مفتوح على الفضائيات وربما لا أحد ينظر إليه لكنه يعمل بشكل متواصل؟ لا شك أن وسائل الإعلام الحديثة والمتطورة، والسباق لاقتناء أحدث موديلاتها ساهمت في الانفتاح على العالم وسرعة وصول المعلومة واستثمار الوقت وترشيده في المعرفة. ولكنها في ذات الوقت ساهمت في إباحة الرقابة عليها، وهدر الوقت، ونقل أفكار وتوجهات وصور غير مقبولة أحياناً، وتشجيع الاستهلاك، وبث ثقافة مخلوطة ومتعددة الاتجاهات. وبالتأكيد إن

1 ـ المصدر نفسه.

الإعلام المرئي سهّل بشكل كبير ابتعاد الناس عن القراءة[1].

إن الثقافات التي يبثها معظم الإعلام المعاصر هي في الواقع: ثقافة الاستهلاك من خلال الإعلانات التجارية المملة أحياناً، وثقافة التعبير الجسدي التي تبثها الكليبات الفضائية سعياً وراء الربح المادي، وثقافة العنف والقتل والتدمير يتبعها نشوة النصر التي تروّج لها الأفلام الهوليودية، وثقافة المادة التي تروّج لها المحطات الفضائية الإعلانية، وثقافة تقديس الذات أي الاعتماد على النفس الإنسانية لقهر غير المقهور في العالم المادي، ولكن بمعزل عن القيم الإنسانية والاجتماعية السائدة...

من هنا ضرورة التذكير ب "ثقافة المشاركة" التي هي البديل الوحيد والخيار الأساسي للشعوب في الشرق الأوسط والعالم في المرحلة الراهنة..

1 - رازق سرياني، "الشباب وتحديات العصر"، م. ن

2 ـ صراع الثقافات

أـأصول التشتت الثقافي

مع انتهاء حقبة الحرب الباردة في مطلع التسعينات، وانهيار الكتلة الاشتراكية الشرقية، استأثرت الدول الرأسمالية الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، بقيادة العالم، واختارت له نظاما شموليا أسمته بـ "النظام العالمي الجديد"، يرتكز في وجوده واستمراره على تقسيم جائر لخيرات ومقدرات العالم، تكون حصة الأسد فيه لخمس سكان المعمورة، بينما تقتات الأخماس الأربعة الأخرى على الفتات، فقط لكونها قد خلقت في عالم "الجنوب" حيث تسود مظاهر الجوع والفساد والحروب والنعرات الأهلية والطائفية، وغيرها، وكأنها قدر محتوم[1].

ب- نظرية نهاية التاريخ

ولأجل تعليل هذا "القدر"، قام الباحث الأمريكي الياباني الأصل فرانسيس فوكوياما بوضع نظريته الشهيرة حول ما أسماه بنهاية التاريخ، معتبرا أن جدلية التاريخ تفرض على العالم الوصول إلى هذه النهاية المحتومة، حيث تنتصر الديمقراطية الغربية القائمة على الليبرالية المطلقة، وتنهار جميع الأيديولوجيات الأخرى لعدم مواءمتها لمتطلبات التطور الإنساني الذي وصلت إليه البشرية، وكأن البؤس الذي يعيش فيه ثلاثة أرباع سكان العالم ليس إلا نتيجة لعدم قدرتهم

1 ـ أحمد دعدوش، "إشكاليات الثقافة في عصر العولمة" موقع شبكة صيد الفوائد.
http://WWW.saaid.net/Minute/143.htm?print, it=4

على انتهاج النهج الحضاري الغربي الليبرالي.

وبعد ثبات فشل هذه النظرية على أرض الواقع خلال فترة قصيرة من ظهورها، تقدم صاموئيل هنتنجتون Samuel Hunington بنظريته الشهيرة ''صراع الحضارات''، لسد الثغرات التي غفل عنها زميله، واعتبر أنه من الضروري للحضارة الغربية، لكي تحافظ على سيادة العالم، أن تقوم أولا بتصفية جميع خصومها، وعلى رأسهم بالطبع الحضارة الإسلامية[1].

ج- نظرية ''صراع الثقافات''

وعليه فإن الصراع الذي كان ولا يزال قائماً بين معظم الجماعات البشرية منذ فجر التاريخ الحضاري للإنسان وحتى اليوم، ليس إلا صراعا بين الثقافات، وهو مبني على التباين والتضاد بين القيم والمعتقدات التي تقوم عليها، والتي تمثل بمجموعها الوعي الجماعي الذي يعبر عن هوية هذا المجتمع أو ذاك، وهي كما نعلم خصوصية ذات قيمة عالية لدى الفرد والمجتمع، ومستمدة من الغريزة الإنسانية في التعبير عنها والدفاع عن وجودها واستمراريتها.

---

1 ـ المصدر نفسه.

3 ـ التحولات الثقافية في الشرق الأوسط

أ-الثقافة والتنمية

نستطيع اليوم أن نجزم بأن دول الشرق الأوسط لم تعر ثقافاتها المحلية الكثير من الاهتمام خلال العقود الماضية، لثقل مهامها التنموية التي بدأت تنوء بحملها منذ الاستقلال، فضلا عن الصراعات الدموية التي عصفت بكثير منها، مما جعل قضية أمنها الوطني في رأس أولوياتها.

ويتضح لنا هذا التناقض، وبعيدا عن التناقضات الفلسفية، مع الكشف عن تلك العلاقة التي لا يمكن تجاهلها بين التنمية الشاملة من جهة وقوانين العرض والطلب وآليات السوق من جهة أخرى. هذه العلاقة باتت دستورا مقدسا يحكم علاقات البشر فيما بينهم، سواء داخل المجتمع الواحد أو في منظومة العلاقات الدولية بأوسع أشكالها. وهو ما يتناقض بالضرورة مع الدعوات العالمية المتزايدة نحو إحلال حوار الثقافات، أو لنقل كما هو شائع، كبديل عن حوار القوى المتصارعة على المصالح.

وكان تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية التي ترأسها بريز ديكويلار بنفسه عقب انتهاء مهمته كأمين عام للأمم المتحدة شاهدا كبيرا على هذا التناقض، ودليلا على فشل عالم القرن العشرين الموغل في التحضر، في تجاوز تلك العقبات العنصرية والمذهبية التي طالما وقفت عائقا في وجه أي حوار أو تعاون بين الأمم منذ سطّر الإنسان تاريخه المتخم بالصراعات والحروب[1].

---

1 ـ أنظر: المستقبل العربي، عدد 48، شباط 1983.

ب- التحول الى الثقافة الرقمية

وقد مرت عملية تسجيل ثقافات المجتمع بمرحلتين: الأولى مرحلة الكتابة على الحجر والصخر أي الألواح المسمارية، والشمع والطين. ثم مرحلة الكتابة الرقعة كما على ورق البردى المصري القديم، واعتبر شكل ''السند'' على ورق البردى أرقى أشكال الكتابة. واليوم أصبحت شاشة الحاسوب معبرة عن معالم جديدة، وأصبحت وسيطا قد يغني عن السوق للشراء، وعن الذهاب إلى مواقع الخدمات، وربما يغني عن الذهاب إلى المدرسة والجامعة، وأيضاً عن العلاقات الاجتماعية الحميمية المباشرة. كما أصبحت الشاشة لوحا وسندا للكتابة، وبالتالي أكسبت الكاتب وفعل الكتابة ملامح جديدة وخاصة.

ولعل من أهم المؤثرات والتغيّرات التي أنتجها العصر الرقمي على الواقع المعاش هو الثورة الكبرى في طرق وأساليب وأشكال التواصل بين الأفراد، وذلك عن طريق النشر الالكتروني بوسائله المختلفة، كشبكة الانترنت وكل خدمات الهاتف الجوال، بالإضافة إلى الفضائيات الرقمية.

وما يثير الانتباه أن جيل الشباب هو من يملك ناصية القافلة، وهذا يعني أنه في المستقبل يمكن أن يندمج فى صنع التغيير، ويسد ما يعرف بـ ''الفجوة الرقمية''.

تتمثل المؤسسة عموما في مجموعة من الطاقات البشرية المادية والمالية، تلك التي تعمل، وفق تركيب معين بقصد إنجاز أو أداء المهام المنوطة بها من المجتمع. بالتالي فإن المؤسسات الثقافية تحديدا هي تلك المجموعات البشرية والمادية التي تسعى لتوفير الحاجات الثقافية للأفراد والمجتمع، تحت مظلة ميثاق يتوافق مع قيم وجملة أفكار أغلبية أفراد هذا المجتمع.

الحضارة بكل معطياتها ليست ظاهرة غربية، وهو ما ردده أوجست كونت Auguste Comte من قبل، مؤكدا أنها ظاهرة كونية فيها ''عاش الإنسان من الفوضى إلى الانعزال إلى الانتظام إلى الاتصال، وهي المرحلة التي تعيشها فيها

البشرية الآن''، وقد تطورت بعد كونت. في المقابل، يرفض صموئيل هانتيجتون في مقاله ''الغرب''، أن العالم يسير نحو ثقافة واحدة، ويؤكد أن انتشار السلع الاستهلاكية لا يعني غلبة الثقافة والفكر الغربي، لأن البلدان تلوذ بـ ثقافتها الخاصة، ودياناتها الخاصة، ومن حاول العكس يمزق، كدولتي الاتحاد السوفياتي القديمة وتركيا.[1]

ج- معضلة الكيف

يبدو أننا أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن نعرف أننا أمام تحول ونعمل من أجل مواكبته، أو نبقى بمنأى عن هذا التحول، وبالتالي لا نستنكف عن التشكي من هذا الواقع. وطبعا، لا يقع هذا التحول على مستوى الشرق الآوسط، بل هو تحول عالمي. والمتتبع للشأن الثقافي يدرك أننا أمام تحول حقيقي يقتضي وعيا حقيقيا بنمط هذا التحول، وبدون هذا الوعي سنظل نحاكم واقعا متحولا جديدا بتصورات قديمة، وهو ما قد يؤدي بنا حتما إلى الطريق المسدود.

إن كل ما كان متفرقا في وسائط متعددة، صار مشتركا وموحدا في وسيط وحيد متداول وسهل الحصول عليه، في فضاء شبكة الانترنت. هذا الفضاء الذي استجمع كل المعارف وجعلها متاحة للإنسان. إن الوعي بأهمية هذا الوسيط هو أول تحدٍّ. وما عجزنا عن تحقيقه في المرحلة الشفوية ومرحلة الطباعة، يمكن أن ننجزه الآن. إن ترقيم الثقافة هو التحدي الجديد، وصار واحدا من أهم الأسس التي يقوم عليها عصر المعلومات أو مجتمع المعرفة. إذن، فمشكلة المعرفة لم تعد مطروحة، فأين تكمن إشكاليّة التشتت الثقافي؟ هي تكمن أساسا في فك عقدة التحول من حقبة المطبعة إلى الحقبة الرقمية المعيشة.

---

1 ـ أنظر: المستقبل العربي. م. ن.

من هنا، لم يعد سؤال المعرفة الكمية مطروحا اليوم وقد استبدل بمعضلة الكيف. هذا يعني أنه لا يمكن تطوير المعرفة أو إنتاج الأفكار الكبرى والأطروحات، إلا بابتكار برمجيات كفيلة بجعل الثقافة قابلة للإنتاج والتلقي. بينما الملاحظ أن المجتمعات المتطورة الأكثر تقدما وحدها هي التي تنتج اليوم هذه البرمجيات، وهذا هو بالفعل رهان الثقافة الرقمية الجديدة التي تقتضي معرفة بالتقنيات الجديدة لخلق الإنسان الجديد.

هذا المشروع الحضاري بحْر شاسع لا يمكن تعميقه إلا بالنقاش، ونحن نتحمل اليوم مسؤولية كبيرة في الانتقال إلى الفعل أمام توفر الإمكانيات الكبيرة، ووجود مجالات كثيرة في ثقافتنا العربية[1].

1 ـ محمد لبيب شقير، ''الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها''، مركز دراسات الوحدة العربية، الجزء الأول، بيروت أيار 1986، ص 300.

4-التحولات الثقافية بعد "الثورات"

أ-الوعي للتغيير

تشهد منطقة الشرق الأوسط مع انطلاق "الثورات"، مرحلة جديدة وحقبة متميزة في تاريخ التطور الحضاري يفرض نوعا من الاستقراء والاستشراف للمستقبل لفهم هذه المتغيرات والتحولات التي يحملها ولم تواجه المنطقة مثلها من قبل. وإثر فوز الأحزاب الاسلامية في الانتخابات عقب "الثورات"، تعالت الأصوات المطالبة بتوضيح المآلات الثقافية التي ستتجه إليها الأنظمة الوليدة، وهل سينتج عنها ثقافة متنوعة متجانسة بين أطياف الشعب الواحد ومنفتحة على كل جديد ومتعاونة مع العالم والمجتمع الدولي، أم انها ستكرس ثقافة رفض الآخر وابعاده ؟ وعلى الصعيد العالمي هناك تساؤل يتمحور حول ما ستؤول اليه موجات التغيير المتجهة نحو ثقافة عالمية قد تدمر الخصوصيات الثقافية الأخرى المتنوعة .

ان المواجهات الثقافية كانت قد شهدت تعقيدات إثر أحداث 11 سبتمبر، ففي الوقت الذي كانت الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة ومن خلفها من الانظمة العربية تشن حربا على الإرهاب المتمثل بفكر القاعدة الاقصائي، تنامى لدى الشباب وعي بالثقافة الانسانية وحقوق الانسان وكرامته والعدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادي. وبعد ان سعت بعض الانظمة الديكتاتورية الى استرضاء الغرب بمكافحة الارهاب لتطيل أمد سلطتها القامعة، أثبتت "الثورات" أن مشكلتها الرئيسية تكمن في جوهر الثقافة الاقصائية التي تكرسها الانظمة عبر التسويق

الدائم لفكرة عدم نضج الشعوب لممارسة حقوقها الديموقراطية، وإلصاق تهمة الارهاب بكل من تسوّل له نفسه المطالبة بالتغيير. وتعود معظم النزاعات الثقافية إلى أمرين، أولهما اختلاف المصالح، وثانيهما اختلاف المفاهيم وتطبيقاتها، حيث يتم استغلال المفاهيم لتكريس الاختلاف وإلباسه لبوس النزاع العقائدي[1] .

واليوم نشهد تغيّرًا مفصليا حاسمًا تجاوز التغيير الكيفي الى الانفتاح السيبيري التام لفضاء الاتصالات، بحيث تغيرت مفاهيم المطابقة والمماثلة بالكامل نحو تنوع لا محدود ومنفلت في آن معا، ما يعني أن مستقبل الحضارة سيتعرض إلى تنوع ثقافي هائل بعيدا عما ألفه الناس في الموجات السابقة .وقد أدهش الشباب العربي في ثوراته الحكومات التي أصرت على إبقائه في طور الطفولة الحضارية، مؤكدا انّه تجاوز كل المراحل ليقفز الى الواجهة الثقافية العالمية عبر الانترنت، معلنا عن نفسه مطالبًا بحقوقه متجاوزا كل العوائق التي حاولت الأنظمة إبقاؤه خلفها .وقد سبق شباب مواقع التواصل الاجتماعي في حواراتهم ونقاشاتهم النخب الثقافية المتقوقعة على ذاتها في المقاهي الفلسفية، وتجاوزوا كل التحولات والمتغيرات ليقفزوا نحو مجتمع كوني منفتح على العالم، وسعوا الى التغيير نحو مجتمع عصري يحترم كرامتهم وانسانيتهم .

ربما عانت أجزاء من العالم من التهميش الثقافي، ولكن المشكلة التي ستواجهنا في المستقبل لن تكون في التهميش، بل ستتمثل في التوجه نحو اللاتجانس والتباين. لأن الثقافة المستقبلية المتوقعة في الغد تضم عناصر من ثقافات مختلفة تجلبها إليها وتحولها لتشكل ثقافة مميزة وخاصة بها، وهي في نهاية الأمر ثقافة تختلف تماما عن الثقافة التي عرفها الأجداد.

---

1 ـ محمد لبيب شقير، الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها، م. ن.

ب ـ مؤشرات ثقافة الغد

لذلك على الدول العربية أن تدرك ما يجري وما سيجري في العالم وتكون فاعلة بشكل ايجابي فيه، لا أن تنتظر الحدث لتبحث عن ردة الفعل المناسبة. فالمرحلة القادمة ستحتوي على تغييرات هائلة في التوزيع الثقافي للأفكار والمعلومات، مما سيؤدي إلى تجزئة مجتمعات الكم إلى وحدات أصغر حيث ستُتَاح للفرد خيارات لا تعد ولا تحصى، وإن إضفاء نزعة أحادية للثقافة والهوية الثقافية سيصبح أمرا متعذرا .

لا مكان في عالم الغد لاحزاب شمولية او ايديولوجيات مغلقة، وبلا شك سيكون هناك المزيد من الاختلافات في القيم الثقافية والحضارات وأنماط الحياة وصيغ العلاقات الاجتماعية والممارسات الدينية والاعتقادات، وربما سنشهد ظهور نِحَلٍ جديدة وتيارات حديثة، واختلافات عميقة بين الأجيال.

وكل هذا سينعكس على بنية الجماعات، لان هذا التغيير يجلب نوعا من الفردانية على الصعيد الشخصي ويغذي مشاعر الانتماءات الضيقة .

الثقافة المتوقعة في الغد تضم عناصر من ثقافات مختلفة تجلبها إليها وتحولها لتشكل ثقافة مميزة بها، تختلف عن تلك التي عرفها الأجداد، لذا نشهد اليوم تشتت الثقافات، والمستقبل يبقى مجهولا إذ أن كل مجتمع وكل ثقافة يمكن أن تكون ذات سمات خاصة، لكنها لن تكون بالصورة التي عهدناها من قبل .

المهم أن ندرك ما يجري وما سيجري في العالم، وأن نكون فاعلين فيه، لا أن ننتظر الحدث ونبحث عن ردة الفعل المناسبة. فالمرحلة القادمة كما نراها تحتوي على تغييرات هائلة في التوزيع الثقافي للأفكار والمعلومات، وفي حجب المعلومات وتضليلها، ولعل إلقاء نظرة على دور الاعلام الفضائي واستخدامات شبكة الإنترنت، كفيل بتوضيح كل هذه التحديات الثقافية.

ج-خيار "ثقافة المشاركة"

ما نحن أمامه من تشتت ثقافي ليس مجرد صراع أديان أو حضارات، أو انتشار عولمة أو تحرر دائم، أو انتشار ثقافة تجانس، بل موجة من التغييرات تشمل كل نواحي التاريخ الإنساني من تغيير اقتصادي واجتماعي وثقافي وسياسي وتقني وطبي ...

هي موجة كثيفة ومتسارعة وعالمية، وبقدر ما تعتبر مفاجئة ومقلقة وحتى مخيفة، تعتبر فرص الحوار كبيرة، والتواصل مع الآخر، وفهم الثقافات الأخرى فيها كبيرة، والخيار الأهم هو المشاركة في صياغة هذه العولمة التوافقية، والتي تساهم كل الحضارات في صياغة ملامحها، والأخذ بالتوافق كوسيلة لتحقيق الانسجام بين دول الشمال والجنوب الخيار الأحمر هو في عولمة قائمة على فهم الآخر وان يفهمنا هذا الآخر، ويعتبر الحوار بشتى ألوانه الأداة الفاعلة والفعالة في تحقيق ذلك[1].

1 - جون هدسون ومارك هرندر، "العلاقات الاقتصادية الدولية"، ترجمة منصور طه ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ السعودية للنشر 1987، ص 734.

5- العولمة وثقافة الشركات المتعددة الجنسية

أ-اللاعب الرئيسي

لقد أصبحت الشركات المتعددة الجنسية اليوم جوهر النظام الرأسمالي الحديث، فهي اللاعب الرئيسي في صنع القرارات المتعلقة بنوعية الإنتاج وحجمه وكيفيته، وطرق توزيعه وقنوات نقله، وكل ما يتعلق بالإنتاج والتوزيع، بل إن هذه الشركات باتت هي المسؤولة عن تحديد حاجات المستهلك نفسه، ولم تعد في حاجة لتقصيها ثم العمل على إشباعها، خاصة وأن المستوى الحضاري الذي وصل إليه المستهلك يضمن له إشباعا كليا أو شبه كلي لكافة حاجاته الأساسية والكمالية. وعليه فإن هذه الشركات باتت معنية اليوم بإقناع المستهلك بحاجته إلى منتجات جديدة قد لا يكون محتاجًا لها على الإطلاق، عبر وسائل الدعاية الرخيصة، ثم تقديمها له بصورة استهلاكية غير نهائية. بمعنى أنها لا تصمم لإشباع الحاجات المطلوبة بشكل كامل، بل يتم ترك هامش واسع لخطط التطوير المستقبلية، والتي تكون في الكثير من الأحيان قد أعدت قبل سنوات عدة، وذلك لإحداث حاجات جديدة فيما بعد، تتم إثارتها، ثم الدعوة إليها من جديد، بوسائل إبهار جديدة، ومظاهر جذب وتسويق أكثر جدة[1].

إن هذا النظام المتعدي للجنسيات يستند في طبيعة وجوده وامتداد علاقاته على

---

1 - جون غدسون ومارك هرندرن "العلاقات الاقتصادية الدولية"، مصدر سابق، ص 738. أنظر أيضاً: "الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها"، مركز دراسات الوحدة العربية، الجزء الثاني، بيروت أيار 1986، ص ص 904 - 905.

شبكة أخرى شديدة التعقيد، تبدأ من المؤسسات الدولية ذات الطابع الاقتصادي مثل منظمة التجارة العالمية، والبنك وصندوق النقد الدوليين، ومنظمة التنمية والتعاون الدولية، مرورًا بمنظمات ثقافية دولية أخرى مثل اليونسكو، ووصولاً إلى المنظمات والأحلاف السياسية والعسكرية مثل حلف الأطلسي والاتحاد الأوروبي.

كما تلعب الجامعات ومراكز البحث والتدريب أيضا دوراً لا يقل أهمية، بينما ترتبط كل من وكالات الأنباء الدولية وشركات الإعلان وشبكات التلفزة الأرضية والفضائية ومواقع شبكة الانترنت غالباً مع الشركات متعدية الجنسيات بصلات أكثر وضوحاً، إذ تحمل على عاتقها مهمة نشر السلوكيات والأفكار التي تضمن صهر أكبر عدد ممكن من ثقافات العالم في بوتقة الثقافة المعولمة، ذات الطابع الاستهلاكي الغربي الموحد.

والخطر الأكبر في هذه السياسة لا يقتصر على نشر الثقافة الاستهلاكية التي تسعى لبسط نفوذ الشركات متعدية الجنسيات فحسب، بل في محاولة عولمة السلوك المهني والوظيفي في العالم كله، وحتى توحيد المفاهيم العلمية، والسياسية، وكل ما يتعلق بالنشاط الإنساني، ثم اعتماد هذه المفاهيم الغربية المعولمة باعتبارها الحل العالمي الأفضل، والوحيد لكافة مشاكل البشرية.

على سبيل المثال، يرى فيرجوسون Ferguson (1992) أن مفهوم العولمة لا يخرج كثيرا عن تعبير أديولوجية الرأسمالية، وكذلك كل من بورديو Bourdieu وكانت Kant (1999) في اعتبارهما أن للعولمة مهمة تتمثل في إغراق أعراض الإمبريالية ضمن دعاوى العالمية الثقافية والحتمية الاقتصادية ، مما يوحي لشعوب العالم الثالث، على وجه الخصوص، بأن هذا التوسع الطاغي لأدوات العولمة يبدو وكأنه ذو طبيعة حديدية غير قابلة للكسر أو الالتواء، الأمر الذي يصفه الاقتصادي الدكتور جلال أمين، بأنه أشبه بالتعاليم الدينية المقدسة التي كان رجال الدين الأوروبيون يقدمونها لشعوبهم في القرون

الوسطى، ثم يطالبونهم بالطاعة وهم عميان[1].

ب- فرص المشاركة و"العولمة" الاعلامية

مع تصاعد وتيرة الليبرالية والدعوة إلى الحرية، لم يعد من السهل إيقاف هذا الضخ للقيم والأفكار الغربية عبر قنواتها الإعلامية على جميع شعوب العالم، حتى بات من الصعب، إن لم يكن مستحيلا، الوقوف في وجه هذا التيار الهائل، وإلا تعرضت شعوب العالم الثالث لحملة أكبر للانتقاد والقذف بكل صفات الانغلاق والتخلف والرجعية.

من جهة أخرى، نشرت مجلة "ريدرز دايجست"، في عددها الصادر في شهر أكتوبر لعام 1995 موضوعا تحت عنوان "هوليود والأكاذيب الثلاث الكبرى[2]"، أشارت من خلالها إلى السياسة الهوليودية في عرض الأفلام، أيا كان مضمونها ومستواها الثقافي والأخلاقي، عبر اعتمادها على مبررات ثلاث كبرى: أولها أن هذه الأفلام تهدف إلى التسلية فقط دون التأثير على أحد، والثانية أنها تعكس الحقيقة التي يمثلها المجتمع، وعليه فإن الناس هم الملامون على أي خطأ أو نقد يمكن أن يوجه إلى هذا الفيلم أو ذاك. أما الثالثة، والتي تبدو أكثرها براءة وعفوية، فهي الادعاء بأن هوليود تعتمد على أذواق المشاهدين في انتقاء عروضها، وبالتالي فإنك لست مضطرا لمشاهدة الأفلام التي لا ترغب فيها، وبإمكانك أن تغير وجهتك نحو القناة التلفزيونية التي تحب بكبسة زر. من الضروري التساؤل حول صحة اعتماد هذه المبررات، لفتح الفضاء العربي الإعلامي والثقافي، وبكل هذه البساطة، لكل ما يرد إليه من الخارج.

---

1 - جون غدسون ومارك هرندرن العلاقات الاقتصادية الدولية، م. ن.

2 - نفسه.

وحتى يصل إلى إجابة شافية فإن المشاهد العربي، كما يبدو، سيظل يفاجأ كل يوم بكم هائل من البرامج والأفلام التي باتت تقدم على أنها لكافة أفراد الأسرة، في حين أنها في الحقيقة ليست كذلك على الإطلاق، فهي غالبا ما تحتوي بشكل أو بآخر على جرعة لا بأس بها من المشاهد العاطفية أو الإباحية، أو مشاهد العنف الدموية. بل إن برامج الأطفال بحد ذاتها باتت ملأى بهذه المشاهد التي قلما ينتبه إليها أولياء الأمور.

وقد امتدت هذه الممارسات بشكل سريع ومفاجئ، خلال السنوات القليلة الماضية، إلى ألعاب الفيديو والمجلات المصورة ومواقع الإنترنت المتاحة للجميع وبأسهل الطرق حول العالم، حتى لم يعد الجنس والعنف، اللذان يقدمان وللأسف الشديد بكثافة، شيئاً غريبا على الأطفال والمراهقين في الدول الغربية والعربية، كما لا يبدو، في المقابل، أن الجيل الناشئ في مأمن من ذلك.

إن الاعتماد على أذواق المشاهدين في تبرير المواد التي تقدم إلى عامة الناس، وتدخل عنوة إلى عقر ديارهم، أتاحت لمحطات التلفزة الأمريكية أن تعرض في مطلع التسعينات 115 فيلما بوليسيا، تشتمل على 406 من الجرائم الوحشية، كما أحصتها إحدى الدراسات[1]، مما جعل الجرائم المقدمة على الشاشة. تزيد بعشرين ضعفاً على الجرائم التي تحدث على أرض الواقع، فيما تؤكد دراسات أخرى أن كلا الرقمين مؤهلان للإزدياد.

ج ـ انحطاط الثقافة العالمية

وعبر هذا التحالف القائم بين الشركات العالمية ووسائل الإعلام، ومع تحول هذه الأخيرة إلى شركات تجارية بحد ذاتها، تقوم أساساً على الربح المادي، والتوسع القاري لاقتسام الأسواق العالمية واحتكارها بأيدي القلة، فإنه من

---

1 ـ تقرير مكتب العمل العربي حول ازدياد معدلات الفقر والبطالة، صحيفة السفير، 16 شباط 1998.

الطبيعي جداً أن تنحط الثقافة العالمية إلى أدنى المستويات، وأن يتم تصنيف أفراد هذا العالم، الذي يسعى البعض الى تحويله إلى قرية صغيرة، حسب ’’الماركات‘‘ التجارية التي تحمل مشترياتهم شعاراتها، أو حسب مصادر معلوماتهم التي تمطرهم بها مئات الصحف والأقنية الفضائية ومواقع الشبكة العنكبوتية[1].

ولكي نتبين مدى تأثير هذه الأدوات الإعلامية على عقول الجمهور المتلقي، وقدرتها على تحديد أفكاره وتصرفاته اليومية، نذكر التجربة التي قام بها فانس باكارد Vance Packard عبر مراقبة الانطباع الذي يتركه عرض ومضات سريعة لعلب من المثلجات خلال مشاهد متفرقة لأحد الأفلام السينمائية، وبشكل هامشي دون أن يشعر المشاهدون بأنهم قد انتبهوا للأمر. كانت النتيجة أن مبيعات دار السينما أثناء العرض قد ازدادت بشكل ملحوظ، مما دفع به للاستنتاج بأن ’’الدعاية الباطنية‘‘ تشكل أسلوباً فعالاً للإقناع الذي لا يشعر به المتلقي حتى يفكر في مقاومته.

وبما أن هذه الدراسة قد وردت في كتاب "المقنعون المستورون" في عام 1957، فإن هذا الأثر سيبدو مضاعفا اليوم مع التقدم الهائل في وسائل الإبهار، والسيطرة على جانب اللاوعي لدى المتلقي. إذ يعتمد الكثير من منتجي الأفلام والبرامج الأمريكية على هذا المبدأ لترويج قيمهم الاستهلاكية، حيث تقدم رموز الحياة الأمريكية البسيطة اليوم كالجينز والتيشيرت وأسطوانات الروك والبوب المدمجة، إلى جانب كرة السلة وألعاب الفيديو الرقمية، مع قليل من الهامبرغر والكوكاكولا، وكأنها جزء لا يتجزأ من حياة الرفاهية الأمريكية، والتي يسعى للحاق بها معظم شباب العالم، وخاصة في الدول النامية التي يشكل سكانها الأغلبية الساحقة من سكان المعمورة[2].

---

1 - 911
.912

2 ـ نفسه.

وللحفاظ على رسوخ هذه القيم واستمرارية تناسخها بين أجيال الشباب المتعاقبة، يتم منحها المزيد من المصداقية للتأكيد على أنها الخيار الأفضل لنمط المعيشة من بين كافة الخيارات الأخرى المتاحة، وذلك عبر التكرار المستمر لهذا الطرح عبر كافة وسائل الإعلام، مع ضرورة تقديمه ضمن أطر دائمة التجدد والتغيير لضمان الإبقاء على جاذبيتها، بعيدا عن الرتابة والتقليد.

لقد تم اقتباس هذه الأساليب من النظرية التي تفتّقت عنها العبقرية الهتلرية، والقائمة على صياغة فكر موحد للشعب الآري، عبر التكرار اللانهائي في وسائل الإعلام للفكر النازي ذي النزعة الشمولية، والقائم على إحياء غرائز إثبات الذات والرغبة في الانتقام من العدو، حتى تصبح القوى العقلية الفاعلة منهكة ومنهارة أمام تدفق تيار هائل من الدعاية المتماسكة، مما يؤدي في النهاية إلى تكوين قبول أولي لا شعوري، يستبعد مع الزمن أي نزعة داخلية للتشكيك.

ويؤيد ذلك ظهور "نظرية الغرس الثقافي" Cultivation Theory في السبعينات من القرن الماضي، والتي يؤكد أصحابها أن وسائل الإعلام تقوم بغرس عالم وهمي في ذهن المتلقي، والذي يقوم بدوره بتقبل هذه الصورة على أنها تعبير حقيقي للواقع، لكونه غير واع بعملية صنع هذا الواقع، بل إن وعيه لا يتعدى الشعور بالتسلية، وذلك بقضاء الساعات الطويلة أمام شاشة التلفاز.

ولبيان تفاصيل ذلك النموذج الذي تقوم البرامج الترفيهية الأمريكية بغرسه في عقول الناس، قام الباحث البيروفي جوركي تابيا Tapiaبدراسة شاملة لهذه البرامج، ليخرج بنتيجة مفصلة على الشكل التالي:

- البيئة: مجتمع استهلاكي ترفي خال من التناقضات.
- القيم الأساسية: الفردية والأنانية والمنافسة العنيفة.
- معنى النجاح: التفوق المادي على الآخرين، والتلذذ بمباهج الحياة.
- المجتمع يميل عموما إلى مكافأة أولئك الناجحين, ومعاقبة الخاسرين.

- يجب على الخاسرين الرضى بقدرهم، والتسليم بدلا من التمرد أو محاولة التغيير[1].

من خلال هذه النتائج، يمكن أن نتلمس بسهولة سيطرة النظرة المادية البراجماتية على المواد الاعلامية، التي تقدم على أنها ليست إلا للترفيه والتسلية، في حين يؤكد الباحث الأمريكي هربرت شيلر على "أن البرامج الترفيهية هي في الواقع أشكال تربوية... وأشكال توعية أيديولوجية". ويؤيده ميلفين ديفلير في قوله: "يمكن رؤية الاعتماد القوي لوسائل الإعلام على النظام الترفيهي بسهولة أكثر في تعديل القيم والقواعد السلوكية[2]". كما يقول المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي: "إن الولايات المتحدة ممثلة في شركاتها الكبرى متعددة الجنسيات تسيطر على العالم وتسيره كيفما تشاء، وتخطط مستقبله وفقاً لأهوائها دون اعتراض يذكر[3]". ويستغل الأمريكيون هذه القدرة الهائلة لوسائل الإعلام في خدمة مصالحهم، خصوصاً إذا علمنا أن الولايات المتحدة تمتلك اليوم 56 % من بنوك المعلومات في العالم، بينما تعود نسبة 27 % منها إلى دول الاتحاد الأوربي، و12 % إلى اليابان، فيما تبقى نسبة 1 % فقط لدول العالم النامي مجتمعة.

ويتمثل هذا التأثير في وصف وزير الخارجية الأمريكي الأسبق جورج شولتز لتقنية البث المباشر "بأنها أنجع من أسلحة نووية عديدة لغزو الكتلة الشرقية، وإن شعوب أوربا الشرقية ثارت على الشيوعية لأنها تمكنت من التقاط برامج التلفزيون الغربي والأمريكي[4]".

---

1 - زكي رمزي، السياسات التصحيحية والتنمية في الوطن العربي، دار الرازي، بيروت 1989، ص 35.

2 - نفسه، ص 37.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

6- الثقافة في الشرق الأوسط وتحديات المرحلة

أ-المشاركة ومقاومة "نظرية المؤامرة"

بالرغم من كل ما سبق ذكره من مظاهر الغزو الثقافي، الذي تتعرض لـه معظم شعوب العالم، الفقيرة منها والعربية على وجه الخصوص، فإنه لا يزال هناك الكثير من المثقفين العرب الذين يرفضون هذا الطرح جملة وتفصيلا، معتقدين أن هذا التوسع الثقافي الغربي إنما يتم وفق آليات السوق الحرة التي تسمح للجميع بالمنافسة، وأن هذا الشعور ليس إلا نتيجة لشيوع "نظرية المؤامرة" وسيطرتها على فكر المواطن العربي، الذي اعتاد على إلقاء اللوم على الآخرين، للتملص من عبء المسؤولية. كما أن ما يسمى بالغزو الثقافي ليس موجها إلى الأمة العربية دون غيرها، بل لا يعدو أن يكون نتاجًا تجاريا يعرض في كافة الأسواق العالمية. كما أن الأثر السلبي لهذا الناتج على المجتمعات الغربية نفسها، يعد في رأيهم دليلا كافيا لإثبات عدم وجود أي نية مسبقة لديهم في تقصد الإساءة إلى المجتمعات أو الثقافات المحلية في الشرق الأوسط.

وبما أن مناقشة هذا الرأي خارج موضوع البحث، فإنه لا يسعنا إلا أن نقرّ بوجود تفاوت ثقافي كبير بين العالم العربي من جهة وبين العالم الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة من جهة أخرى، وأن الغرب قد أحسن استغلال هذه الفجوة لصالحه، خلال السنوات الأربع الأخيرة بالذات، أمام ضعف وتخاذل عربي مذهل.

وعلى هذا، فإن مناقشة حقيقة وجود هذا الغزو الثقافي المتعمد وطبيعته لم

تعد ذات أهمية تذكر، أمام الشعور الطاغي بأن غبنًا كبيرًا قد لحق بمجتمعاتنا، وخصوصا بعد أن اتضح لنا الكثير مما كان مسكوتًا عنه قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حتى باتت دعوات مواجهة هذا الغزو شائعة اليوم بين كافة فئات المجتمع، من المثقفين وصناع القرار إلى عامة الناس وأقلهم ثقافة، وأصبح من الطبيعي أن تتعرض وسائل الإعلام العربية على اختلافها لهذا الموضوع، مستعرضة آراء المثقفين والسياسيين الذين بات معظمهم يصرّ على أن الوقت قد حان بالفعل للتصرف حيال هذا الغزو...

ب- الجمود الثقافي

لقد بات من الواضح تماما أن المواطن العربي لم يعد معنياً بذلك القرار الذي ما زال المثقفون العرب بصدد البحث فيه، إذ إن هذه الأوساط المثقفة ما زالت تعاني من عزلتها المزمنة، وتشتكي من فقدها لقنوات الاتصال ووسائل الحوار الملائمة لعامة الناس، بل إن المثقف العربي لا يزال مصراً على الالتزام باغترابه الثقافي، ليضمن لنفسه الإبقاء على مسافة كافية تفصله عن العامة، وتحفظ له المكانة الاجتماعية المرموقة على قمة برجه العاجي.

أما التلفزيون العربي، فلم يبرح بعد مكانه الذي وجد فيه، بل لا تزال القنوات في حيرة من أمرها حيال توفير المواد الإعلامية الكافية لشغل مدة البث التي تملأ ساعات اليوم والليلة كاملة، وهي غالبا ما تتم تعبئتها بإغراق المشاهد بالإعلانات، أو بالبرامج والأفلام المستوردة أو المقلدة، فضلا عن برامج التسلية والمسابقات واستهلاك الوقت، والتي لا هم لها سوى استدراج المشاهد للمزيد من الاستهلاك عبر الإعلانات التجارية أو تسطيح مستواه الأخلاقي والفكري، لتكون بذلك شريكة في الغزو الثقافي بشكل أو بآخر، وربما دون أن تسيء النية.

إن الشباب العربي اليوم، بصرف النظر عن المستوى الثقافي الذي وصل إليه،

ونتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية والتنموية في الكثير من الدول العربية، أو على الأقل لعدم إحرازها للتقدم المطلوب لمواكبة تحديات العصر، وتفاقم البطالة، بات يعاني من مشاعر الإحباط واليأس من الحملات الأجنبية، والتي غالبا ما تجد لها أصداء داخلية، تتزامن مع الجمود الاجتماعي، والتراجع في الحضور السياسي والثقافي على الساحة الدولية، الأمر الذي أدى بطبيعة الحال إلى ضياع الهوية الثقافية لهذه الفئات الشابة، وتصاعد مشاعر السخط على عموم الأوضاع المعيشية والاجتماعية السائدة. ومما يزيد الأمر سوءاً ارتفاع وتيرة التوتر بين الداعين إلى ضرورة الإصلاح والتطوير من جهة وبين المناهضين لهذه الحركة بدعوى الحفاظ على الأصالة وقدسية التراث.

ولا شك في أن هذه العوامل مجتمعة قد تشكل لدى الكثير من الشباب دافعاً قوياً للنفور من كل ما يربطهم بتراثهم وعقيدتهم ووطنيتهم، على اعتبار أن هذه المفاهيم "التقليدية" تناقض توجههم التجديدي، وتدفعهم لتحميل مجتمعاتهم وظروف معيشتهم المسؤولية كاملة تجاه مشكلاتهم، ويدعمهم في ذلك كما هو واضح، التوجه العالمي المحموم لتعميم أنماط معيشية مخالفة تماما لما اعتادوا عليه.

ج-أشكال الثورة والتصدي

وعلى الرغم من ذلك، تشكل الأسباب السالفة نفسها دوافع لاتخاذ مواقف مضادة تماماً لتلك التي ذهب إليها سابقوهم، إذ يصبح ذلك الغزو الخارجي على رموز ثقافتهم، الغالية على قلوبهم، سبباً مباشراً للتمسك بها، بل ويقوي إيمانهم بأن الخلاص من مشاكلهم المستعصية لا يتم إلا بالثورة على واقعهم المؤسف، لتغييره نحو الأفضل. ومما يزيد الأمر سوءاً أن يسود لدى هؤلاء الشباب اعتقاد بأن جميع من حولهم متورط بشكل أو بآخر في عملية "المؤامرة" وأن الإصلاح والتغيير لا يتم

إلا بشكل راديكالي وعنيف، إذ يعني الانتظار لديهم المزيد من الاستسلام والتخاذل.

ووفقا لهذه الآلية يبرز لدينا اتجاهان متناقضان، أحدهما موغل في انسياقه نحو الغرب، والآخر غارق في التطرف الديني، وهنا تأتي وسائل الإعلام لتلتقط أصوات كل من الاتجاهين، حسب تعاطفها معه، وتحاول إخراجه إلى السطح مع كل وسائل الإبهار والجذب الجماهيري الضرورية، في الوقت الذي يخسر فيه المعتدلون (الوسط) المزيد من نقاط قوتهم، على الرغم من كونهم الأغلبية، إذ لا يستبعد مع مرور الوقت أن يتسرب الكثير منهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، حسب تصاعد صوته وخفوت الآخر، فيما لا يزال الغزو الخارجي، على الرغم من كل ذلك، مستمراً.

حينها تعود مسألة التصدي للغزو الثقافي أمراً طبيعياً تفرضه الظروف المعيشة، إذ ان الفرد الذي يجد في هويته الثقافية والدينية والاجتماعية، ما يعزز أصالته ويحفظ له كرامته، على الصعيدين الفردي والاجتماعي، سيكون مؤهلاً بالتأكيد لمواجهة هذا الغزو، معتمداً على ذاته ومدافعاً عن قناعاته، دون أن ينتظر من الآخرين الاقتناع بصحة موقفه والوقوف إلى جانبه، ودون أن يسارع أيضاً إلى دفعهم للتعاطف معه بأي وسيلة كانت.

إن "العولمة" واقع لا يجدي معه أسلوب الرفض، بل هي تيار بدأ بالاقتصاد وامتد إلى السياسة والثقافة، وأصبح حقيقة نعيشها كل يوم، فلا يسعنا والحال هذه أن نعتقد بأن تضييق الخناق على قنوات الوصل بين ثقافتنا وأي ثقافة أخرى وافدة سيكون حلاً ناجعاً، فلم يعد هناك مجال بعد اليوم للانعزال والتقوقع، كما لا يصح في المقابل إطلاق العنان لكل ما هو وارد بدعوى الانفتاح والتحرر. فالشباب العربي اليوم يتوقع منا تقديم البديل الملائم لكافة رموز الثقافة الأجنبية التي يحرم منها، ولا نعتقد أن عقول الشباب عاجزة عن إبداع هذا البديل في حال توفر البيئة الملائمة.

يجدر بنا أن نؤكد أن المثقفين اليوم هم قادة المرحلة المقبلة ومحددو نتائجها، وقد بات عليهم من الآن فصاعداً القيام بدور ثقافي محوري في معركة الدفاع عن المجتمع، وعن ثقافته وحمايتها ودفعها الى الأمام نحو ثقافة المشاركة.

II - دور الاعلام الفضائي في التغير الثقافي

1 - تطور مراحل الاعلام الفضائي العربي

2 - أزمة الاعلام الفضائي العربي

3- سيطرة الأنظمة العربية على الاعلام

4 - تغطية الفضائيات الاخبارية لأحداث الشرق الأوسط

5 - الفضائيات كأداة للديمقراطية

6 - التربية على مشاهدة التلفزيون

تمهيد:

استطاعت وسائل الاعلام والاتصال في السنوات الأخيرة أن تنتشر بوتيرة سريعة بفعل الأجهزة الالكترونية والأقمار الاصطناعية التي تبث على مدار الساعة. وأصبح إقبال الجمهور على برامج الفضائيات قوياً، كما شكّل تأثير هذه البرامج في سلوكيات الفرد والعائلة، والمجتمع عموماً، منعطفاً في الاتجاهات والقيم الثقافيّة، ولا سيما اتجاهات الشباب الاجتماعية والثقافية والسياسية.

ومن أهم مؤشرات هذه التغييرات، غياب الشباب عن النشاطات الثقافية المنظمة، وميلهم نحو ممارسات أخرى، منها استعمال الأشرطة السمعية ـ البصرية، والأقراص الممغنطة، وبالأخص شبكة الإنترنت.

وتبيّن أيضاً أن هذه الوسائل تضع الأسرة أمام تحديات جديدة، أقلّها أن معظم البرامج التي تقترحها لا تستجيب لمقتضيات النَسَق القِيَمي الذي تحتكم إليه الأُسَر، وهذا الأمر قد أدى إلى تشتت وحدة المشاهدة الأُسَرية، وظهور النمط الانفرادي، وتلاشي أنماط التواصل الاجتماعي المباشر داخل الفضاء الأُسَري، وبالتالي إحساس الشباب بالغربة عن الجو العائلي، إضافة إلى فتور الروابط التي تجمعهم بباقي أفراد الأسرة.

لكن الفضائيات تلعب دوراً استراتيجياً في التنشئة الاجتماعية والمواطنة والولاء لنظام ولقيم مجتمعية محددة، وهي وسيلة مهمة لمحاورة الآخر وتسويق صورة الأمة وقيمها وحضارتها للعالم. فإذا كان تحقيق ملايين الدولارات على حساب

هذه الأهداف النبيلة هو المقياس وهو معيار النجاح، فهذا يعني أن المؤسسة الإعلامية أصبحت مثل مصنع الإسمنت لا علاقة لها بالفكر والقيم والحضارة، ولا بالثقافة والذاكرة الاجتماعية، ولا بإنسانية الإنسان أوالهوية الثقافية أو ثقافة المشاركة.

1 ـ مراحل تطور الاعلام الفضائي العربي

أـ الانحراف عن الأهداف

أدركت الدول العربية أهمية وسائل الاعلام في توجيه الرأي العام، فسعت على إثر صدمة هزيمة ال67 لإقامة نظام سمعي - بصري مشترك يوفر لها إنجاز استراتيجية مشتركة تستطيع الرد على إعلام الأعداء والخصوم وتعمل على تشجيع التطور الاجتماعي في منطقة تنتشر فيها الأمية (70 %)، وعلى إنماء قطاعات التعليم والثقافة، وتعمل على حث الفلاحين لتحسين الإنتاج الزراعي، وعلى التقريب بين الأذواق واللهجات، وتحقق تبادل الأخبار والبرامج والخبرات، وتمكّن من تحقيق الاستقلالية عن النظام الإعلامي الغربي المسيطر وإعطاء صورة عن العرب، من قبل العرب أنفسهم[1].

هكذا تم عام 1985 إطلاق قمر صناعي تلفزي هو ”عربسات“ لتحقيق تلك الأهداف، بعد أن جمعت الأموال اللازمة لذلك وبمساهمات مختلفة ومتفاوتة من قبل دول الجامعة العربية. فالسعودية وليبيا ومصر والكويت والإمارات العربية المتحدة امتلكت لوحدها حوالي 70 % من رأسمال التمويل، الرأسمال الذي تغير مع عام 2004، وخلق مجموعتين عربيتين متميزتين: المجموعة الأولى التي تمتلك حوالي 73 % من رأسمال التمويل والمتكونة من أربع دول فقط وهي المملكة العربية السعودية (66. 36 %)، الكويت (59,14 %)، ليبيا (82. 11 %)، قطر

1 ـ صبيحة شبر، ”الفضائيات العربية ومهمة بناء الوعي وتوجيه الرأي العام“ موقع الحوار المتمدن - العدد: 2548 - 2009 / 2 / 5، http://www.ahewar.org/m.asp?i=945

(81. 9 %). أما المجموعة الثانية فهي التي تمتلك ما تبقى من رأسمال التمويل.
هذا الاضطراب حمل نتائجه على كل الأصعدة، ذلك أن المجموعة الأولى وخاصة المملكة العربية السعودية أصبحت المستخدمة والمتحكمة الأولى ب"عربسات". وإذا كانت اللغة العربية الكلاسيكية في الإنتاج التلفزيوني المتبادل هي السائدة، فإن 17 % من هذا الإنتاج كان يتم باللهجات المحلية القريبة أو البعيدة من هذه اللغة في حين أن تحليل البرامج في الفترة ما بين 11 أكتوبر 1985 و31 مارس 1986 يشير إلى توجهها نحو التسلية وعلى رأس ذلك المباريات الرياضية.
أما برامج الأخبار والتعليم والثقافة فإنها لم تتجاوز 10 % من مدة البث لكل منها. علاوة على ذلك فإن برامج التنمية الزراعية لم تظهر طوال هذه الفترة، فيما لم يتجاوز حجم التبادلات في البرامج 10 % من حجم التبادلات القائمة بين المنطقة العربية، وبين أوروبا والولايات المتحدة الأميركية[1].

ب-المنافسة بين الفضائيات العربية

اكتشف الرأي العام العالمي قناة الجزيرة مع حرب أفغانستان ثم مع حرب العراق ليرى بعدها محطات أخرى تلفزية مثل تلفزيون أبوظبي والعربية، والقناة اللبنانية الحياة.
وبهذا برز صراع من أجل التأثير على الجماهير العربية. فإلى جانب المحطات العربية، هناك محطة أجنبية تتحدّث باللغة العربية ويموّلها الكونغرس الأميركي ألا وهي "الحرّة" التي أطلقت منذ عام 2004.
وفي الواقع، أن استخدام الإرسال التلفزي الفضائي قد سمح بانتقال حر لبرامجه بحيث لم يعد التلفزيون أداة الناطقين الرسميين للحكومات العربية. كما أن الخطاب المتعلق بمسؤولية التلفزيون من أجل الدفاع عن الثقافة الوطنية أو القومية، وفي

1 ـ صبيحة شبر، موقع الحوار المتمدن، م.ن.

سبيل التقدم الاجتماعي وتدعيم الدولة-الأمة، وذلك كمسوغ لاحتكاره من قبل السلطات العامة، لم يعد قادرا على الصمود اليوم. بعبارة ثانية فإن إضعاف التكنولوجيا الاتصالية الحديثة والإرسال الفضائي التلفزي لسلطة الدول العربية قد طرح السؤال فيما إذا كان ذلك من شأنه أن يحقق تحوّلاً ثقافياً خلاّقاً في المجتمعات العربية، وفتح الطريق للعملية الديمقراطية وتسريعها[1].

ج- ثقافة التلفزيون الجديدة

إن تلفزيون الماضي وإن كان يشترك مع تلفزيون الحاضر بالتسمية نفسها، لكنه يتميّز عنه الى حد كبير. فالأول هو تلفزيون "هرتزي" ذو إرسال محدود متعلق بالأرض الوطنية. والثاني تلفزيون فضائي ذو إرسال واسع النطاق يتجاوز الحدود الوطنية. وإذا كان الأول موجوداً على أرض الإرسال الوطنية، فإن الثاني يمكن أن يبث من أي بلد كان. والنتيجة الأساسية أن الرسالة التلفزية ليست واحدة في الحالين.

لكن هذه الثنائية المتعارضة في الواقع العربي لا فعل لها، لأن الدول العربية تضع محطاتها التلفزية على الفضائيات وتعمل على تكييفها لكي تصبح متقاربة، إن لم نقل متشابهة مع التلفزيونات الفضائية الخاصة. أضف إلى ذلك أن هذه التلفزيونات الفضائية الخاصة ترتبط بهذه الدولة العربية أو تلك بشكل مباشر أم غير مباشر، بحيث يمكن القول اننا أمام نظام تلفزي عربي.

هذا الانحراف عن الأهداف لا يفسره التضارب في امتلاك رأسمال "عربسات" وحسب، وإنما أيضاً كون المشاركة لعدد من الدول العربية في المشروع الاستراتيجي الإعلامي العربي لم يسهّل إطلاقاً بث الأخبار والأحداث نفسها بما يرضي جميع الحكومات العربية.

---

1 - المصدر نفسه.

وغالبا ما كانت المملكة العربية السعودية، تفرض ''الفيتو الأخلاقي'' حتى بالنسبة لبرامج الألعاب التي ترتدي فيها الفتيات ملابس رياضية. هذا الفيتو يصاحبه أيضا فيتو السيادة الوطنية الذي ترفعه دولة عربية ما في وجه غيرها بحيث لا يمكن ''بث أي شيء كان'' وفي ''أي مكان كان'' وفي ''أي وقت كان''[1].

وعلى المستوى التقني، إن القمر الصناعي ''عربسات'' الذي سُلّم جاهزا أو أشرف عليه الغربيون منذ البداية، يعطي مثالاً نموذجياً لنتائج نقل التكنولوجيا إلى بلدان أخرى. فاستيراد التكنولوجيا وما يلازمها من مهارة يتطلب كثيراً من الحيطة والاستشراف من قبل المشترين لها.

والأمر كذلك، فإن ''عربسات'' لم تحظ بالانتباه والرعاية التي تفرض نفسها فيما يتعلق بالبحث والتأهيل والإنتاج الملائم ودراسة السوق، عدا عن أن كثيراً من البلدان العربية استمرت في استخدام الفضائية العالمية ''انتلسات'' حتى بعد إطلاق''عربسات''[2].

1- Riadh Sidaoui, “ The InnerWeakness of Arab Media”, (eds) Natascha Fioretti, Marcello Foa, Islam And The Western World: The Role of The Media, Universita Della Svizzera Italiana, European Journalism Observatory (EJO), Die Schweizer Journalistenschule, Lugano, Milano 2008, p77.

2 ـ نفسه.

2 ـ أزمة الاعلام الفضائي العربي

أ- اقتصاد اعلامي جديد

ان استراتيجية تحقيق إعلام عربي متكامل أصبحت طوبى لأنها لا تستجيب لأهداف الإنماء الاجتماعي والثقافي والزراعي أو التضامن بين الدول العربية، خاصة مع انخراطها في السوق الدولية للسمعيات والبصريات وخضوعها لمنطق السوق. فإذا كان تقلّص سلطة الدولة على التلفزيون حقيقة مع التكنولوجيا الحديثة وانتشار الفضائيات، وإذا كان الجمهور المشاهد يشكل عنصراً جديداً في الفضاء الإعلامي العربي، وإذا كانت محتويات البرامج تشكل العنصر الثالث داخل هذا الفضاء، فإن العنصر الحاسم أصبح العنصر الاقتصادي. فأمام الضعف المتعاظم لتمويل الدولة وازدياد التكاليف في القطاع التلفزي، فإن المورد الإعلاني التجاري يفرض نفسه.

لقد بدأ اقتصاد تلفزي جديد يوجه النظام التلفزي العربي بمجمله. فالتلفزيون الذي كان ينظر إليه كمؤسسة خدمة عامة للمواطنين قد ترك المجال أمام تلفزيون برامج التسلية، ومسؤولو التلفزة يبررون ذلك بحرية ومطالب المشاهدين، الأمر الذي يذكرنا بحجة الأميركيين في هذا الميدان، والحقيقة هي أن أصحاب العلاقات التجارية وكبريات الوكالات الأميركية والانجليزية باتوا يطبعون بطابعهم البرامج التلفزية[1].

1- Tourya Guaaybess, Télévisions arabes sur orbite, Ed CNRS, France 2005, p. 264

. إن هذه الشراكة تشكل نسخاً للتقنية والمعايير الثقافية الخارجية ومنطق ''عولمة التلفزيون العربي''، أي ضبط القطاع التلفزي من قبل الإعلانات، والسير باتجاه حركة التمركز والاحتكار، والبحث عن جمهور المشاهدين الأكبر والتوجه نحو التخصص في البرامج بغية استهداف قطاعات محددة من المستهلكين وخلق ثقافة استهلاكية. فالنفقات الإعلانية وصلت عام 1999 إلى 2,1 مليار دولار أميركي. وازداد حجم هذه النفقات بمعدل 20 % بين أغسطس عام 1998 وأغسطس عام 1999 بالنسبة للتلفزة العربية. وطبعا فإن المستفيد الأكبر هي الاتنية العربية الخاصة التي تحوز على ''ثلثي المشاهدين العرب عبر القارات'' والتي تشكل ''حالة مثالية'' لأصحاب الإعلانات الذين يمثلون الشركات المتعددة الجنسية مثل ''تويوتا'' و''نيسان'' و''فورد'' و''كوكا كولا'' و''سوني'' و''بيبسي'' و''مارلبورو''... والتي تصرف الملايين من أجل تمرير إعلاناتها في تلك الأقنية[1].

وهنا تجدر الاشارة الى التفاوتات الواضحة بين البلدان العربية فيما يتعلق بالموارد الإعلانية لوسائلها الإعلامية، حيث توجد ثلاث مجموعات عربية. الأولى وعلى رأسها السعودية تحظى بنصيب الأسد في هذه الموارد طبقا للاستطلاعات، وتشكل مع مصر ولبنان والإمارات العربية المتحدة والكويت المجموعة التي تستأثر بمعظم النفقات الإعلانية. والثانية هي قطر والبحرين والأردن وعمان، والثالثة هي بقية البلدان العربية التي لا تحظى إلا ب25 مليون دولار أميركي من 2. 1 مليار من هذه النفقات. بتعبير آخر فإن الاقتصاد الإعلامي الجديد لا يفعل أكثر من تدعيم هذه التفاوتات وانتشار الثقافة الاستهلاكية بوجه خاص[2].

لقد دخلت دول عربية عدة نظام ''الاتصال العالمي'' وهذا من شأنه أن يخلق شروطا لإقامة اتصال تلفزي جديد مزدوج الاتجاه (عربي - غربي).

1 ـ صبيحة شبر ، موقع الحوار المتمدن ـ العدد: 2548 - 2009 / 2 / 5 ، مصدر سابق.

2 ـ فاطمه قاسم ، موقع الحوار المتمدن ـ العدد: 2553 - 2009 / 2 / 10

إلا أن التفاوتات الحادة في النظام التلفزي العربي، أقنية، وتجهيزات، وأعداداً واقتصاداً، واندماجه في السوق الدولية الجديدة يجعله عاجزاً عن القيام بالمهمات التي أخذها على عاتقه منذ إطلاق الجيل الأول ل"عربسات" عام 1985.

وإذا كان النظام التلفزي السابق للدولة قد فشل بسبب استخدامه للفرد العربي كأداة سياسية للحاكم، فهل يستطيع النظام التلفزي العربي الجديد أن ينجح ويتحول باتجاه استخدام الفرد لاحلال الحرية والديمقراطية، وإنماء ثقافات المجتمعات العربية؟

ب -أزمة هوية

للأسف، هذا هو المشهد الثقافي الذي تقدمه لنا اليوم الفضائيات العربية:

يعاني الإعلام الفضائي العربي من أزمة هوية وغياب المشروع والاستراتيجية، حيث تجاوز كل الضوابط والمبادئ التي تحكم العمل الإعلامي النزيه والمسؤول.

لقد تكاثرت الفضائيات في العالم العربي فظهر تلفزيون الواقع، وفضائيات تعالج المرضى على الهواء، وأخرى تخصصت في الشعوذة والسحر وقراءة كف اليد والأوراق، وأخرى تخصصت في الغزل، وأخرى في التجارة عن طريق الرسائل القصيرة، فساهمت إلى حد كبير في "تلويث" الفضاء الإعلامي العربي مبتعدة كليا عن تقديم رسالة إعلامية هادفة ومسؤولة.

وفي ظل هذه المعطيات، تعذّر على الفضائيات العربية محاورة الآخر والمساهمة في تشكيل وعي اجتماعي وذاكرة جماعية تقوم على القيم والأخلاق والمبادئ المتعارف عليها في المجتمع، والتي تعتبر روح الأمة وضميرها وماضيها وحاضرها ومستقبله، وضاعت في ثقافة التسلية والتسطيح والتهميش حيث التركيز على البرامج الخفيفة من منوعات وسباق الأغاني ومسابقات وبرامج تهدف إلى سد الفراغ وملء أوقات

البث... الخ، كل هذا على حساب البرامج الجادة التي تعالج القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الحساسة والتي تساهم في إشراك الجماهير في الحياة الاجتماعية والسياسية[1].

وفشل الإعلام الفضائي العربي في مساعدة النظام الإعلامي العربي في التخلص من ترسبات الرداءة والتسطيح والتهميش، والخروج من دهاليز التبعية والتقليد وإعلام التبجيل والمدح والتسبيح، بل على العكس من ذلك ساهم إلى حد كبير في تكريس الوضع الراهن وفي تلويث الفضاء الإعلامي ونشر الثقافة المعلبة والقيم الدخيلة على المجتمعات العربية والإسلامية من خلال قنوات الشعوذة والإباحية وتلفزيون الواقع. كما فشل في محاورة الآخر والرد على الحملات الدعائية والصور النمطية وحملات التشويه والتضليل الموجهة ضد العرب والمسلمين[2].

وفي إطار هذا المشهد، تنشر الشركات الكبرى عبر وسائل الإعلام العالمية الثقافة العالمية التي تنفي الثقافات الأخرى، والثقافة التي تخدم أهداف ومصالح هذه الشركات. وقد جاءت الفضائيات العربية في ظل غياب خطة إنتاجية مدروسة وغياب موازنة معتبرة لتجد نفسها فرعا من فروع هذه الشركات المتعددة الجنسية تعلن عن منتجاتها وتروّج لسلعها وقيمها وأفكارها. فبدلا من مواجهة الغزو والقيم الدخيلة، ونشر الثقافة المحلية والقيم العربية، أصبحت القنوات العربية من خلال المنتجات المعلبة وسائل تابعة تدور في فلك آلة إعلامية عالمية، تروّج أفكار الأقوى اقتصاديا وسياسيا على المستوى العالمي.

---

1 - فاطمة البريكي ، جريدة البيان الإماراتية، 2006-4-7 .

أنظر: Pierre Puchot, Tunis-une révolution arabe, Ed. Galaade, Paris 2011.

2 - انظر: مي العبدالله، التلفزيون في عالم متغير، دار النهضة العربية، بيروت 2004.

ج-الذوبان في الثقافة العالمية

وهكذا لاحظنا ذوبان التراكم القيمي والمعرفي والاجتماعي للمواطن العربي في الثقافة العالمية. والمتابع للإعلانات التي تبث في القنوات الفضائية يدرك أن معظمها لشركات متعددة الجنسية، ومحتوى هذه الإعلانات يعمل على تكريس ونشر قيم استهلاكية عند الشباب العربي، وهذه القيم قد لا تمت بأية صلة للنمط الاستهلاكي العربي وللثقافة العربية[1].

لكل ذلك، يصنف الإعلام العربي اليوم في غالبه حكومي وشخصي تجاري، وان اختلفت مسمياته وتنوعت أساليبه. فان تغطية الأزمات العربية ومنها التي عصفت بالعراق، تؤكد حقيقة أساسية أن وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمكتوبة، تعمل بإطار محدد، وتتسق بالمفاهيم والمصطلحات التي أنتجها الإعلام الغربي ومفاهيمه، ولا نشهد مصطلحات إعلامية بصناعة عربية تتسق مع مظاهر الحدث العربي وسلوك مجتمعاته. حتى أن بعض وسائل الإعلام هي استنساخ لوسائل إعلام غربية معروفة كالـ "بي بي سي"، وبالتالي يكون حجم الإبداع والاجتهاد محدودا.

انتشرت الفضائيات الناطقة باللغة العربية انتشارا كبيرا، بفعل القدرة على تمويلها من قبل الحكومات الغنية، التي تمتلك الثروات القومية الكبيرة، وتستطيع ان تهيمن على تلك الفضائيات وتوجهها، كما استطاع الأغنياء في العالم العربي أن يسيطروا على تلك الفضائيات، ويقوموا بتوجيه إعلامها. وتلك الوسائل الإعلامية التي أخذت تقود الرأي العام العربي، موجهة إياه الى ما تريد، تأييدا لبعض السياسات، كانت تمتلكها الأنظمة الشمولية في العالم العربي، التي لم

---

1 ـ محمود أبو بكر، "الفضائيات تتجاهل أعمال معارضي الثورة المصرية"، موقع وطن. الدبور، http://www.watan.com/art/2011-07-09-18-00-28.
html#ixzz1UNi1amqw

تعترف بالديمقراطية وبحق الاختلاف بالرأي، وبحرية التعبير، بل استطاعت أن تدخل معظم البيوت خالقة رأيا شبه موحد، تجاه ما يجري في العالم من أحداث، وبذلك أصبحت واحدة من أهم وأبرز وسائل إيصال المعلومات، وبناء الوعي وتوجيه الرأي العام في العالم العربي والتأثير المباشر فيه[1].

3- سيطرة الأنظمة العربية على الاعلام والاتصال

أ- توجيه الرأي العام

أن معظم تلك الفضائيات تقوم بتوجيه الرأي العام العربي نحو ما يخدم أهدافها في الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعوب، ولم تكن تحرص على دقة الخبر وصدقه، أو تمتعه بالحد الأدنى من المصداقية والمسؤولية واحترام عقل المشاهد، أو احترام الرأي الآخر وحق الأفراد في التعبير عن آرائهم بحرية.

بعض الفضائيات استطاعت ان تدافع عن الحرية، وعن حق الناس في التعبير عن آرائهم المختلفة، واحترمت الرأي الآخر، ودعت الى الحوار بأسلوب عصري متمدن، يخلو من التشدد ومصادرة حق الآخرين في الرأي المختلف، وكان لها دور في إشاعة الفكر الحر، والدعوة الى الحوار الحضاري، لكنها محاولات استنثنائية محدودة، كسعي بعض القنوات الفضائية إلى أن تلعب المرأة العربية دورها الكبير، في تقدم المجتمع وتطوره، بعيداً عن التمييز ومحاربة قدرات المرأة، واثبات كفاءتها.

ب- قوة الفضائيات

"لكن الفضائيات العربية، رغم ما يوجه إليها من انتقادات في هذا الجانب

1 - رحيم العراقي، "الفضائيات العربيّة"، الحوار المتمدن، العدد: 1527، 2006 / 4 / 21.
http://www.ahewar.org/m.asp?i=1138

أو ذاك، تظل قوة ضخمة تحرك المياه الراكدة ولا تبقيها على حالها، وتحرك العقول المستلبة وتجعلها تستيقظ على المشاركة في صنع المصير. وقد أصبحت، عبر تراكم طبقات الوعي وزيادة مساحة المعرفة واستنهاض آليات الرأي العام، طرفاً رئيسياً في الساحات السياسية والعسكرية والأمنية والاقتصادية التي بقيت لعقود طويلة حكرا على نخب مستلبة منحازة، أغرقت الدول العربية في الهزائم وعجزت عن القول بشكل موضوعي ومستقل كلمة واحدة[1]".

وقد تناولت بعض الدراسات موضوع تعاطي الفضائيات مع أحداث الدول العربية الأخيرة، منها دراسة أجرتها مؤسسة "كومتراكس سوليوشنز" Comtrax Solutions اللبنانية المتخصصة في الرصد الإعلامي، حول تعاطي "العربية" و"الجزيرة" و"بي بي سي" مع الأحداث التي شهدها شهر أغسطس 2009 في عدد من الدول، والتي سيطرت على النشرات الاخبارية لهذه المحطات. وكانت الدراسة التي حملت عنوان "ساحات المعارك في الشرق الأوسط خلال 2009 " قد رصدت التغطية الاعلامية فى نشرات السادسة مساء بتوقيت جرينتش في المحطات الثلاث[2]. أفادت هذه الدراسة ، بأن حصة العراق من التغطية الإعلامية للدول في المحطات الثلاث، بلغت 13 % ، تلتها أخبار فلسطين حسب "الحياة" اللندنية، فيما دخلت ايران بنسبة 8 في المئة على خط التغطية الاعلامية للدول، بفعل استمرار ازمتها بعد الانتخابات الرئاسية.

ورأت الدراسة أن استحواذ الحدث العراقي على القسط الأوفر من التغطية الإعلامية يعود إلى الاهتمام الذي أولته "بي بي سي" و"الجزيرة" بهذا الموضوع، وخصوصاً بالتفجيرات التي شهدها العراق في 19 أغسطس، غير أن"العربية"

---

1 - رحيم العراقي ، الحوار المتمدن، م. ن...

2 - أنظر: René Nabat, Les révolutions arabes et la malédiction de Camp David, Ed. Bachari, Paris 2011.

أبدت، بحسب الدراسة، ''اهتماماً أكبر بالموضوع الإيراني الذي سيطر على بدايات نشراتها الاخبارية في أغلب الأحيان''[1].

وأشارت الدراسة الى أن المعارك الدائرة في اليمن بدأت بالظهور الإعلامي في أغسطس، حيث قاربت نسبة التغطية التي نالتها 5 % بينما حصلت الحرب في افغانستان على 6 %.

كانت الـ''بي بي سي'' أكثر المحطات الثلاث اهتماماً بالموضوع اليمني بنسبة 6 % تبعتها ''الجزيرة'' و ''العربية'' بنسب متساوية بلغت 4 في المائة. وانخفضت تغطية حرب افغانستان عند قناة ''العربية''، في حين استحوذت على نسبة 8 % من كامل التغطية الاعلامية لدى ''بي بي سي'' و ''الجزيرة''.

في ما يخص الشأن الايراني، أجمعت المحطات الثلاث خلال شهر آب على اعتبار الأزمة الايرانية غير منتهية. وفي ما يخص الوضع العام في العراق، لاحظت الدراسة أن ''بي بي سي'' ركزت على أهمية دور الولايات المتحدة وبريطانيا ومدى تأثير انسحاب قواتهما على الوضع العراقي، اما ''العربية''، فكان تركيزها الاكبر''على توتر العلاقات السورية العراقية''.

بينما أبرزت ''الجزيرة'' الوساطات والتدخلات الخارجية في العراق، خصوصاً دول الجوار التي تكتسب ''اهمية في نسج خيوط ما يجري في البلد، لكن هذا لم يمنع ايضاً ''الجزيرة'' من الاشارة الى ''الانتكاسة'' و''الاختبار'' الذي فشلت فيه القوات الامنية في العراق.

فيما يتعلق بالحرب السادسة بين الحكومة اليمنية والحوثيين، اكدت المحطات الثلاث استمرارها. أما الموضوع اليمني الآخر الذي حاز اهتمام وسائل الاعلام فهو الافراج عن الشيخ علي محمد مؤيد ورفيقه من معتقل جوانتانامو الاميركي.

---

1 - أنظر: Mathieu Guidère, Le choc des révolutions arabes, Ed. Autrement, Coll. Frontières, Paris 2011.

واستمرت التغطية الاعلامية للقضية الفلسطينية عموماً على اوجها في آغسطس، رغم سيطرة العراق، والسبب الابرز كان التغطية الاعلامية المستمرة لمؤتمر حركة فتح السادس الذي عقد في 4 أغسطس. فمن خلال رصد مواقف المحطات الثلاث في ما يخص المؤتمر، تبين ان قناة ''الجزيرة'' كانت أكثر دعماً لحركة فتح في مؤتمرها وحاولت عدم الإشارة على الخلافات داخل الحركة، لكن مع اعتبار أن المؤتمر هو ''فرصة تاريخية'' أمام حركة فتح ''لإصلاح ذاتها''. أما ''العربية'' و ''بي بي سي'' فركزتا على ذكر الخلافات داخل حركة فتح وتأثيرها على مؤتمرها. غير ان المحطتين انقسمتا ولو قليلاً في الايام الاخيرة من اعمال المؤتمر وانتخابات مجلسه الثوري واللجنة المركزية[1].

وسيطرت مرحلة ما قبل وما بعد الانتخابات الافغانية على الوضع الافغاني خلال أغسطس، لذا صبّت مواقف المحطات الثلاث على هذا الاستحقاق وما رافقه من أزمات سياسية داخلية. فوصفت المحطات الثلاث الانتخابات التي جرت في 20 آب بـ ''الهادئة''، ولكن لا يعنى ذلك الهدوء الأمني بل كان هذا الوصف الإعلامي إشارة الى خوف الناخبين من الإقتراع بسبب الأحداث الأمنية التي رافقت الانتخابات، وهو ما عبرت عنه قناة ''بي بي سي'' في يوم الإنتخابات بالإشارة إلى إن إقبال هذه السنة ''ضئيل'' مقارنة بالانتخابات الماضية. لم يكن هذا الوصف فقط ما اجمعت عليه المحطات الثلاث، انما اجمعت ايضاً على اعتبار ان مرحلة ما بعد الانتخابات ستفتح الآفاق أمام أزمات أخرى[2].

---

1 - أنظر: Tourya Guaaybess, Télévisions arabes sur orbite : Un système médiatique en mutation (1960-2004), Broché, Paris 2005.

2 - نفسه.

ج- حالة العراق

شهد العراقيون غياب التغطية لثورة العراق الشعبية، ومساهمة وسائل الإعلام العربي في إشاعة المصطلحات الطائفية التي تقسم الشعب العراقي إلى مكونات وطوائف وفق عقيدة بوش قبل الغزو. وشهدوا تسفيها واضحا لإرادة الشعب ودوره في التصدي، وعدداً كبيراً من وسائل الإعلام العربي تتناول مصطلح الإرهاب بشكل أعمى دون التمحيص أو مطابقة التعريف بالوقائع. ولعلهم شهدوا أن كلمة الإرهاب يجري استخدامها أكثر من مئة مرة باليوم عبر النشرات والحوارات والندوات، وبتالي يتم هيكلة الرأي العام بمصطلحات هجينة غير معرّفة قانونيا.

و لم تكن مفاجأة عدم تغطية الإعلام العربي لثورة العراق التي بدأت منذ 12 شباط وتجلت بمليونية في 25 شباط 2011، في حين تم تغطية ثورة تونس ومصر وليبيا يوميا ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة، وهذه الازدواجية أثارت الشك بمنهجية هذه القنوات. وبالتالي شهد الجمهور العربي غيبوبة مهنية في التعامل مع الخبر والمصداقية وسرعة التغطية، وهنا برز تخطي الثورة العراقية وتجاهلها عن عمد وبشكل منظم وبدوافع سياسية, مع ديمومة التغطية وتهويل الأحداث في مواقع أخرى اقل تأثيرا من العراق. وبالتالي برزت حقيقة الإعلام المسيّس وقطبية منهجه، اذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن وسائل الإعلام العربي المتعددة قد غطّت أحداث الثورة العراقية طيلة أيامها، والبعض منها تناول الأحداث بشكل خجول لا يرتقي للمهنية والحيادية ونقل الحقائق[1].

---

1 - Tourya Guaaybess, Télévisions arabes sur orbite, op. cit. p.265.

4- تغطية الفضائيات العربية لأحداث الشرق الأوسط

أ-غياب الحرفية في تونس

عاد التركيز والاهتمام بالقنوات الفضائية الإخبارية خصوصاً بعد أحداث هامة شهدتها الساحة السياسية منذ مطلع هذه السنة 2011، بدءاً بأحداث تونس، حيث أظهرت القنوات الإخبارية العربية أنها قنوات خجولة وتراعي كثيراً مصالحها، فلم تتجرأ على تناول أحداث ثورة الشعب التونسي إلا بعد أن أصبحت الأمور أكثر وضوحاً بمغادرة الرئيس التونسي بن علي تونس. تعاملت مع الأحداث الدموية بنوع من الرسمية، مع أن العربية والجزيرة كانتا في مقدمة الحدث.

كانت قناة تونس الرسمية تعرض فيلماً عن عالم البحار بينما الشعب التونسي يغرق بالدماء والفضائيات الأخرى تتفاعل مع أحداثه أكثر منه. فرغم التغطيات المكثفة للفضائيات الإخبارية العربية، إلا أنها لم تواكب الحدث بمهنية احترافية، واللقطات المصورة للأحداث في تونس على سبيل المثال تشاهدها مكررة في العربية والجزيرة نقلاً عن مصدر واحد لوكالة أنباء عالمية، الأخبار نفسها، وغاب التعامل مع الخبر العاجل الذي تجده في نفس الوقت بين القناتين، ولا جديد سوى التركيز على الحدث وهو الأمر الطبيعي.

والإشكالية هي أن أحداث تونس ليست وليدة اللحظة، وإنما مؤشراتها كانت تتنامى في تسارعها منذ أيام سبقت يوم الجمعة التاريخي. وكان الناس يموتون والفضائيات تتابع وجهة الرئيس السابق. ولم تساهم الفضائيات العربية في الوقوف

الصادق مع التونسيين في محاولة استغلال شعبية بعض الفضائيات الإخبارية المشهورة لتوصيل رسائل لحفظ الأمن داخل المدن التونسية.

بقيت الفضائيات الإخبارية في أحداث تونس تركّز على استضافة شخصيات في باريس وغيرها من العواصم والحديث معها، فغابت عنها التغطيات المباشرة والمتابعة الدقيقة لما يحدث في أرجاء تونس، وكأن ما يحدث خارج نطاق التغطية، فوقعت في الفشل المهني حيث لم تواكب بمهنيّة عالية في تغطياتها المصوّرة حدثا كبيرا بهذه الأهميّة[1].

ب- صناعة الخبر في مصر

تفوّقت الفضائيات العربية على نظيرتها المصرية سواء كانت حكومية أوخاصة فى تغطيتها لأحداث ثورة 25 يناير فى مصر. فقد اقتربت الفضائيات المصرية الخاصة إجمالا، بدرجة أو بأخرى فى تغطيتها من نظيراتها الحكومية، وكانت إحداها بمثابة قناة الحزب الوطني الذي كان يحكم مصر.

تحولت وسائل الإعلام المصرية الحكومية فى فترة من الفترات إلى قنوات دعاية مباشرة للحكومة المصرية، بل إنها فى الأيام الثلاثة الأولى من الثورة اختصرت نفسها فى مجرد "مرفق" لتلقي نداءات استغاثة من المشاهدين "المروعين بالفوضى"، مما أتى بنتائج عكسية وساهم في إشاعة المزيد من الذعر بينهم.

"الإعلام الحكومي الرسمي قد اتبع ثلاثة معادلات فى تعامله مع الثورة، وهى التعتيم والترويع والترقيع. فقد حاول التلفزيون الحكومي مراوغة الجمهور عبر إذاعة عدد من البرامج العجيبة عن الصحة والجمال في وقت يغطي صوت

1 - Tourya Guaaybess, Télévisions arabes sur orbite : Un système médiatique en mutation (1960-2004), op.cit, p.p. 264 - 265.

الشارع على كل شيء، وتأتي هذه المراوغة انطلاقا من أجندة سياسية قائمة على نظرية العمى، أما المعادلة الثانية فهي معادلة الترويع وهي قائمة على ترويع الجمهور من المساجين الهاربين وتصور الأمر على أن المتظاهرين في ميدان التحرير هم المسؤولون عن غياب الأمن والأمان فهي كانت تقدم رسالة أمنية خالصة. من بعد جمعة الرحيل بدأ التلفزيون يحاول التوازن بين عرض ما يحدث في الشارع وفي نفس الوقت الاستمرار في محاولة إقناع المتظاهرين بالعودة إلى البيت، وأتاح التلفزيون خلال هذه المرحلة الفرصة لعدد من الشباب للحديث عن رأيه في الأحداث بجانب عدد أخر من المحللين السياسيين؛ وأطلق عليها أسم مرحلة الترقيع"[1].

اتّسم الإعلام الرسمي للدولة "بالضعف" لعدم وجود مساحة للرأي والرأي الآخر، وقال إنها مشكلة الإعلام الحكومي الرسمي منذ وقت بعيد وليست وليدة أحداث ثورة التحرير. وقد مالت التلفزيونات المصرية بوجه عام نحو التركيز على الأجندة الرياضية والترفيهية، في مقابل انحسار المحتوى الأخباري والاستعاضة عن ذلك ببرامج التوك شو التي اختزلت الأخبار في الأحاديث، ولم تطور ماكينة لجمع الأخبار ومحتوى خاص بها ومتابعتها لحظة بلحظة كما فعلت الفضائيات العربية. والقنوات الخاصة كانت منحازة بدرجة أو بأخرى للنظام واقتربت من ثوب الإعلام الرسمي خصوصا في الأيام الأولى للثورة، وذلك يرجع إلى طبيعة ملكية هذه القنوات لرجال أعمال مقربين من النظام.

كل ذلك يعود إلى أن أنماط الملكية المصرية والتحكم فى الإعلام المصرى تنقسم بين الحكومة ورجال أعمال ليس لديهم قدرة كبيرة على مواجهة الحكومة، وبالتالي تبقى الرسالة الإعلامية تحت الخطوط والقيود.

---

1 ـ محمود أبو بكر، "الفضائيات تتجاهل أعمال معارضي الثورة المصرية"، م. س.

في هذا المناخ للاعلام المحلي، كانت القنوات العربية الإخبارية الأكثر حيادية خلال "ثورة يناير"، لكنها رغم ذلك لم تتسم بالدقة حيث أنها قامت ببث العديد من المعلومات الخاطئة.

أطلق على قناة الجزيرة أسم "قناة الشارع" لأنها انحازت الى الشارع المصري منذ البداية. أما الـ bbc فكانت "شديدة المهنية ولكن يعاب عليها قلة الموارد والأنفاق وضيق حجم التغطية[1]".

وكانت تغطية "العربية" للأحداث مسيّسة بشكل كبير في البداية لصالح تهدئة الأوضاع، ثم بعد ذلك نزعت إلى الموضوعية بشكل أكبر، فمزجت بين الرأي الرسمي والرأي الشعبي .

ج-غياب الحيادية والموضوعية

أصبحت الفضائيات العربية بشكل عام تقوم، وعن قصد، بتحويل النشرات الإخبارية من نقل أخبار الأحداث التي تقع في المنطقة العربية، إلى صناعة الخبر وفق الأجندات السياسية والتمويلية لهذه القنوات. "وعندما تتدخل الأجندة السياسية والتمويل في عمل القناة، تؤدي بالضرورة إلى الابتعاد عن الحيادية، ما يسهم في إصابة المشاهد بحالة من تخبط الرؤى وعدم القدرة على اتخاذ القرار، كما يجري في الوقت الحالي"[2].

عموماً، ان ما حدث من غياب للحيادية والموضوعية في تغطية "الثورات العربية"، يمثل امتداداً لما اتسمت به تغطية القنوات الإخبارية العربية لأخبار العراق خلال سنوات الاحتلال الأميركي له. ونذكّر أن الدراسات التحليلية قد أظهرت بوضوح دور الأجندة السياسية لكل قناة في أحداث العراق آنذاك، إذ

---

1 ـ المصدر نفسه.

2 ـ نفسه

ركزت "الجزيرة" في تغطياتها على الاحتلال ومقاومة الاحتلال، والآراء الناقدة لأداء الحكومة، بينما ركزت "العربية" على عرض أنشطة مختلفة تجري هناك اجتماعية واقتصادية ورياضية، وهي الأنشطة التي غابت تماماً عن تغطيات "الجزيرة". ويعود عدم الحيادية في التغطية الإعلامية إلى أسباب عدة، بعضها يتعلق بالايديولوجيات، والبعض يعود إلى درجة مهنية مراكز الأخبار في كل قناة، إضافة إلى غياب الدراسات والاحصاءات عن ما يجري وهي سمة تتكرر في مختلف المجالات في العالم العربي. أضف الى كل ذلك أن عدم وجود مكاتب لبعض القنوات في العراق كان له تأثير كبير في عدم قدرتها على متابعة وتغطية الأحداث مثل "الجزيرة"، التي مازالت حتى الآن بلا مكتب في بغداد.

شاهدنا لأول مرة قناة عربية ذات ثقل تبث أغنيات أم كلثوم بالتزامن مع تغطيتها الثورة المصرية، والشيخ القرضاوي على الجزيرة يهدر دم الرئيس الليبي معمر القذافي. ودعت المحطة المتظاهرين والثوار في مصر إلى الثبات، وهو ما يعد تدخلاً وتحريضاً يبعد الخبر عن حياديته تماماً، وبذلك تكون القنوات العربية قد انتقلت إلى مجال صناعة الحدث، وقامت بدور يوازي المؤسسات السياسية. وهنا لوحظ الكثير من التناقضات في التغطية للاحداث، ففي حين ركزت "الجزيرة" و"العربية"على الشارع في مصر وتونس وثبّتتا صورة الثورة منذ البداية لهذه التحركات، كانتا بهذه التدخلات والعمل على تلوين الخبر تبتعدان كثيرا عن الحيادية.

وبعض القنوات ابتعدت عن تغطية الأحداث في مصر وتونس، في الوقت الذي أفردت فيه مساحة واسعة لتغطية الأحداث في البحرين، ووصفتها بأنها الثورة الوحيدة الحقيقية، وهو ما يعكس مدى تدخل الأجندات السياسية والتمويل في عمل القنوات الفضائية العربية[1].

1 ـ أنظر: نظرة على الاعلام العربي2007 - 2011، تقرير الاعلام العربي، نادي دبي للصحافة 2007.

5- الفضائيات كأداة للديمقراطية

أ-أخطاء الاعلام الجديد

في وسط هذا المشهد الاعلامي المتضارب والمتشابك، يبقى سؤال واحد أساسي: هل ساهمت الفضائيات، أو يمكن أن تساهم في بناء ثقافة المشاركة؟

نتحفظ على بعض الوسائل التي تستخدمها القنوات في تغطية الأحداث، مثل اجترار صور قديمة أو سابقة للحدث وعرضها مع حدث جديد، أو تكرار استخدام صورة معينة مع أكثر من حدث، كذلك الاعتماد بشكل لافت على ما يسمى ''شهود العيان''، وهم أشخاص يتصلون هاتفيا بالقناة من دون أن يعرف أحد هويتهم أو مدى صحة ما يدلون به من أخبار وشهادات ودون أدلة أو صور تثبت صدق ما يقولونه، إضافة إلى اختيار محللين سياسيين بعينهم، تتفق توجهاتهم مع توجهات القناة وأجندتها السياسية، وهو ما أوقع هذه القنوات في أخطاء كثيرة، وأدخل المشاهد العربي في فضاء غير محدد الأبعاد، وانتهى به الأمر إلى حالة من عدم المبالاة بما يجري في الشارع، مما يعني خطر ابتعاد الفضائيات عن ثقافة المشاركة.

نحن الآن أمام أحداث دارمتيكية متطورة يوماً بعد يوم في عدد من الدول في آنٍ واحد. ومن الطبيعي أن تتنافس القنوات لهالتها الاعلامية، في نقل الأحداث ''الساخنة''، مع التزامها بخطها السياسي واستراتيجتها تجاه الدول والانظمة.

ويجب الاشارة الى ظاهرة تكررت خلال الأحداث، وهي اختفاء الفضائية

وانقطاعها المفاجىءعن البث عدداً من المرات بفعل عمليات تشويش متعمدة من جهات (غير معلومة) كما يقال، لكنها بالطبع جهات تابعة للانظمة الحاكمة. فهل الفضائيات الحالية غير مؤهلة وغير مستعدة لمواجهة عمليات التخريب والتشويش؟ وقد رأينا التشويش في أحداث تونس ومصر وسوريا، وانقطاع البث للحظات أو فترات طويلة من الجزيرة والعربية والحرة، ثم الانتقال الى ترددات اخرى، بعض المرات رأينا انقطاعا تاما عن قمر فضائي كما حدث لقناة الجزيرة و انقطاعها عن قمر النايل سات ابان احداث ''ثورة 25 يناير''.

بالطبع كلما زادت وتطورت امكانية القنوات في التغلب على عمليات التشويش كلما أيضاً تتطورت إمكانيات المخربين في التأثير على البث.

هذا التشويش يؤكّد دور قناتي الجزيرة والعربية في التأثير على الراي العام العربي، وفي توجيه الشعوب والمواقف، فالأمر بالتأكيد لا يعجب الانظمة الحالية، خصوصاً إن استيقظت صباح يوم ووجدت ان الدور أصبح عليها.

ب- اعلام المواطن

ولكن من جهة ثانية، فقد ساهمت مقاطع اليوتيوب التي رفعها شباب الثورات الى حد كبير في تنمية ثقافة المشاركة، اذ مكّنت الفضائيات من متابعة الاحداث لحظة بلحظة. فقد أفردت الفضائيات للشباب مساحة محددة، كما في قناة الجزيرة باسم ''المواطن الصحفي'' وفي قناة العربية ''أنا ارى''، وتمكنت بهذه الطريقة من نقل الكثير من الاحداث التي لم يتمكن مراسلوها من تغطيتها. بالاضافة الى نشأة شبكات ''رصد'' في كل الدول العربية على الفيس بوك تقوم بنشر اخبار المسيرات والاحتجاجات في كل المدن وكل التفاصيل الأخرى من إصابات واعتقالات من مصدر الحدث.

إختارت قناة ''الجزيرة'' شعار ''الرأي والرأي الآخر''، وهو ما يفسر وجود

إعلاميين فيها مشهورين ببرامج حوارية جذابة ولها جمهور عربي واسع جدا يبدو لوهلة أولى غير متجانس إيديولوجيا. هذا النموذج نجده أيضا في أغلب القنوات الإعلامية الغربية الجادة. ففي البي بي سي على سبيل المثال، من الممكن بسهولة أن نعثر على صحافيين يساريين وآخرين يمينيين. وتفسير ذلك وتبريره هو أن نوعية برامجها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، الروحية والدينية متعددة ومتنوعة وحتى متناقضة. والمطلوب بالنتيجة هو إتاحة الفرصة للكم والخليط الهائل من الآراء والمتناقضات ليعبر عن نفسه في نفس وسيلة الإعلام.

هذا ما جعل الجزيرة تتعرض لتهم كثيرة تحصرها في لون إيديولوجي معين. وهي غالبا متهمة بنزعة إسلامية قومية عربية لكثرة الوجوه المدعوة ونجاحها في إيصال خطابها، أو بالخيانة وإخفاء أهدافها الحقيقية كما حصل مؤخّرا. لكن تفسير ذلك يعود بنا إلى حقيقة المجتمعات العربية نفسها التي تهيمن عليها حاليا التيارات الإسلامية مع تواجد للتيارات القومية العربية التي تعتمد أيضا على إرثها السياسي من المجد الذي شهدته في الخمسينات والستينات من القرن الماضي. هذه الخطابات تجد لها صدى لدى الرأي العام حاليا نظرا لظروف سياسية واقتصادية وثقافية متشابكة. وإن تمت إتاحة الفرصة دائما للتيارات الليبرالية أو الماركسية، فإنها لم تجد نجاحاً كبيراً لأن الاتجاه الغالب للرأي العام العربي في الوقت الحاضر غير متحمس لها. والمشهد الأيديولوجي قد يتطور ويتغير في العقود القادمة.

ج-أداة للمشاركة أم للتضليل؟

أكبر أثر يمكن أن تحققه الفضائيات العربية على مدى متوسط وبعيد هو نشر الديمقراطية في العالم العربي بمفهومها الواسع وبخاصة على مستوى حرية التعبير، وهو الشرط الأول لانطلاق عملية الدمقرطة. لقد نجحت الى الآن في إحداث قطيعة إبستيمولوجية بالمعنى المعرفي للكلمة مع إعلام العصر الحجري، حيث لم تعد أخبار استقبال المسؤول العربي وتوديعه من الأخبار الهامة بل

اختفت منها. وأصبح سقف الحرية عاليا جدا رغم تحول بعض أصوات الضيوف في بعض الأحيان إلى صراخ وضجيج[1]...

ويتواصل التأثير بشكل غير مباشر على معظم القنوات العربية الوطنية التي تحاول منذ انتشار القنوات الفضائية إدخال نوع من الحوارات في برامجها والأهم أن تجربتها دفعت بالدول الغربية الكبرى إلى القيام باستثمارات كبيرة في المجال التلفزيوني لمحاولة جذب المشاهد العربي.

بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بمشروع قناة ''الحرة'' ونفذته، وتبعتها فرنسا بإنشاء قناة ''فرانس 24'' باللغة العربية (فقط إلى جانب القناتين الفرنسية والإنجليزية دون الاهتمام بأية لغات وثقافات أخرى)، وكذلك فعلت روسيا بإنشائها قناة ''روسيا اليوم''، وأخيراً وليس آخراً أنشأت البي بي سي قناتها التلفزيونية باللغة العربية. وعلى المستوى العربي، حاولت أيضا بعض الدول أو رجال الأعمال تقليد مشروعها بإنشاء قنوات إخبارية. النتيجة هي كثرة الخيارات التي تساهم الى حد كبير في التشتيت الثقافي في المنطقة...

---

1 - نظرة على الاعلام العربي2007 - 2011، م. س.

6 ـ التربية على مشاهدة التلفزيون

أ-مفهوم التربية الاعلامية

تبقى مسألة التربية، في مؤسساتها المتكاملة، من المدرسة الى الجامعة الى الأسرة ووسائل الاعلام والاتصال، من المسائل الأهم لبناء ثقافة المشاركة، والتي لا بد من الاضاءة عليها ودراستها، والبحث في أبعادها وآلياتها وموجباتها. ونقصد بالتربية تمكين الأطفال والشباب وحتى الراشدين من التعرف الى الوسائط الحديثة وخصائصها وخدماتها، ومعرفة الفرص التي تقدمها والمخاطر الكامنة في سوء استخدامها، وتعليمهم المسافة الفكرية وقواعد الاستمالة السليم.

وتتضمن التربية تطوير مهارات التفكير النقدي، ونقل القيم والمفاهيم والأدوات المفيدة لضمان الحماية الخاصة بالمتلقي وفي نفس الوقت احترامه للآخرين، والتوجيه والتوعية على ظروف إنتاج المعلومات وقوانينه، والمعرفة لكل المهارات واساليب وامكانيات التلاعب بالنص والصورة.

ب-الاعلام والأسرة العربية

مع ظهور الاعلام الفضائي ووسائل الاتصال الرقمية شهدت الأسرة العربية تغيرات عديدة منذ النصف الثاني من القرن الماضي، كما تعيش اليوم كخلية أساسية في المجتمع بعض الصعوبات تهدّد تماسكها واستقرارها، وتحدث اضطراباً في وظائفها نتبيّنُها من خلال بعض الإشكاليات الأسرية، كالخلافات

الزوجية والمشاكل العلائقية والعنف الأسري، والاضطرابات المرضية لدى المراهقين، والسلوكيات الخطرة لدى الشباب، كاضطراب السلوك الغذائي واستهلاك المخدرات وغيرها، مما يستوجب وضع سياسات اجتماعية تكون الأسرة محورها.

وتعتبر وسائل الإعلام والاتصال وما صاحبها من ثورة تكنولوجية وتطور متواصل للتقنيات الرقمية، من العناصر التي أثرت على الأسرة العربية، فقد تغيرت العلاقة التقليدية للمستهلك بهذه التقنيات، وأصبحت وسائل الإعلام والاتصال، والتي يصعب السيطرة عليها حالياً، ليست أساسية فحسب في حياة الفرد، بل تساهم في إحداث تغييرات على علاقات الفرد بأسرته وعلاقات الأسرة بالمجتمع.

وقد ساهم هذا التطور في تعقيد الإشكاليات القديمة المرتبطة بوسائل الإعلام التقليدية، خاصة في ما يتعلق بحماية الطفل من التعرض إلى محتويات خطرة وتأثير تلك المحتويات على تنشئته، وعلى حماية الأسرة من مخاطر الإعلام غير الموجه.

لقد حافظت الأسرة العربية على منزلتها كخلية أساسية في النسيج المجتمعي باعتبارها القاعدة الأساسية والفضاء الأفضل الذي يجد فيه الفرد الحماية ويتلقى فيه التنشئة النفسية والاجتماعية والعقائدية، رغم ما شهدته خلال العقود الأخيرة من تغيرات عميقة في تركيبتها وفي طبيعة الوظائف والعلاقات داخلها والمرجعيات والقيم التي تستند إليها. ويندرج تناول موضوع علاقة الأسرة بوسائل الإعلام الحديثة ضمن الدراسات التي تناولت موضوع الأسرة العربية والحداثة من زوايا متعددة، وقد أدرج هذا المصطلح، أي الحداثة، لتفسير البنى الجديدة والسلوكيات المكتسبة للأسرة العربية في تكوينها وأدوارها والعلاقات داخلها ووظائف أفرادها[1].

1 ـ محمد لبيب شقير، "الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها"، م. س، ص 300.

ولا بدّ من التأكيد هنا على أنّ وضع الأسرة العربية من الحداثة مرتبط بوضع المرأة، كما أنّ للأم داخل الأسرة دوراً يسمح لها بالتأثير على عملية تشكيل المواقف والسلوكات المعيشية داخلها، وأنّ للشباب من الجنسين دوراً في مواكبة العصر والتفاعل مع متطلباته.

ج-التلفزيون والأسرة العربية

يُعدّ التلفزيون أكثر الوسائل الإعلامية انتشاراً حيث ترتفع نسبة مشاهدته بين الجنسين مقارنة بسماع الراديو أو قراءة الصحف والمجلات. يلعب أدواراً متعددة داخل الأسرة، وهو كنافذة تفتح على العالم الخارجي، وهي كذلك ولفترة غير بعيدة، قطب تجتمع حوله الأسرة لمشاهدة المسلسلات ومتابعة الأخبار. إنّ جملة من المعطيات المتوفرة تنبئ بأنّ هذه العادات والاتجاهات بدأت تتغير لأنّ استعمال هذه الوسيلة أصبح يخضع للاختيارات الشخصية، وأنّ استهلاكها أصبح فردياً مما يعني أنّ فرص اجتماع كل أفراد العائلة أمام التلفزة مع بعضهم البعض قد تقلصت.

إنّ محاولة تقصي التأثيرات المحتملة لـ ''تلفزيون الواقع'' على العلاقات الأسرية والاجتماعية تفضي إلى تبيّن مساهمة هذه البرامج بصيغة أو بأخرى في ''تنميط إعلامي للعالم'' أو ''عولمة ثقافية'' للمجتمعات الإنسانية والتي تعيش على وقع عصر الصورة التلفزيونية التي أشار إليها عالم الاجتماع الفرنسي جورج بلانديه Georges Balandier بمصطلح ''هيمنة وسائل الإعلام Mediacratie ''، فأصبح كل شيء قابلاً للفرجة مع الترويج لنمط المجتمع الاستهلاكي التجاري. كما أصبحت الصورة التلفزيونية ظاهرة اجتماعية كلية تولد أحاسيس متناقضة، في عصر ''سطوة الإتصال Tyranny of Communication'' حيث الصورة التلفزيونية تتحكم في الذوق الجماعي لأنها

أكثر نفاذاً إلى عقل الإنسان وإدراكه ومخيلته وحواسه، وبإمكانها صنع ذاكرة جديدة للمجتمعات تقطع مع ذاكرتها الجماعية التي تشكل أصل هوياتها الفردية والجماعية. وتقدم عدد من برامج "تلفزيون الواقع" نمط تنشئة غير مألوف يزاحم التنشئة المعتمدة في المؤسسة العائلية والمؤسسة المدرسية، بالإضافة إلى الترويج لمبدأ "التجسس أو التلصص" Voyeurism على الحياة الخاصة وعلى الاختلاط بين شبان وشابات يتم وضعهم في فضاء ضيق كامل فترات النهار.

انّ هذه النوعية من البرامج تقوم على إضعاف الانتماء وتفكيك منظومة القيم الاجتماعية، وفسخ الحدود بين الحياة الخاصة والحياة العامة بطريقة تزعزع المرجعيات وتهدد بمحو الذاكرة الجماعية، بما يعني القضاء على ثقافة المشاركة[1]...

---

1 ـ أنظر: مفيدة العباسي: "أثر التقنيات الحديثة على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة العربية"، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر الأسرة والإعلام العربي: نحو أدوار جديدة للإعلام الأسري، الدوحة ـ قطر، 2 ـ 3 مايو 2010.

III -الثقافة العربية بين الأزمة والانـهيار

1- سقوط المشروع الثقافي العربي؟

2- أزكة النظام الثقافي العربي

3- العلاقة بين الثقافة والنسق الاقتصادي - السياسي

4-أزمة الـهوية العربية

5- الفجوة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية

6- انـهيار النظام الثقافي العربي؟

تمهيد:

يدور فى الوقت الراهن صراع ثقافي حاد فى مختلف أنحاء الوطن العربى بين قوى سياسية مختلفة، وحول موضوعات متعددة. وفى مقدمة القوى المتصارعة أنصار تيار الاسلام السياسى على اختلاف رؤاهم فى المشرق والمغرب، والدول العربية الرافضة لوجودهم ولانتشارهم.

كما أن الوطن العربي يشهد صراعاً أخر بين الدولة العربية السلطوية المتسلطة، وبين المجتمع المدني العربي الناشط الذى يطمح الى مواجهة استبداد الدولة وسيطرتها شبه المطلقة على المجال العام، من خلال رفع شعارات الديموقراطية والتعددية واحترام حقوق الانسان، وتعميق المبادرات التى تبلورها فى الوقت الراهن الجمعيات الاهلية غير الحكومية فى مجال التنمية البشرية الشاملة.

ولو انتقلنا من دائرة الصراعات الثقافية الكلية الى مجال الصراعات الثقافية المحددة، فلا شك ان الصراع الثقافى الحاد الذى يدور بين أنصار التسوية السلمية مع اسرائيل، بشروطها الراهنة غير المقبولة، وانصار النضال المسلح ضد الهيمنة الاسرائيلية يعد من بين الصراعات الثقافية الهامة، لأنه يتضمن تناقضاً جوهرياً بين رؤى مختلفة، بما فى ذلك النظرة الى الذات وتصور الآخر. ويتفرع من هذا الصراع الجدل المحتدم حول مقاومة التطبيع مع اسرائيل حتى لو وقعت اتفاقيات سلام مع الدول العربية، ما دامت الدولة الفلسطينية لم تقم

بعد، وما دامت اسرائيل بكل عجرفتها، وهي لم تنسحب انسحاباً شاملاً من كل الاراضي العربية المحتلة، بل ما دامت مصرة على الانفراد بامتلاك السلاح النووي فى حالة الحرب وفي حالة السلم على السواء.

1- سقوط المشروع الثقافي العربي؟

أ- تفتت الأمة العربية

لم تتعرّض الثقافة العربية في عصر من عصورها إلى ما تتعرّض إليه اليوم من متغرات. ويجمع المراقبون على أن ما نراه اليوم من تردّي وشرذمة على صعيد أوضاع الأمّة العربية، وما نشاهده من حروب داخلية ومجازر، هو في واقع الأمر نتيجة من نتائج الغياب الكبير للدّور الذي كان من الممكن أن تقوم به هذه الثقافة.

فقبل خمسة عقود من الآن تحرّرت البلاد العربية من قبضة الاستعمار، واشتعلت قلوب الملايين بأحلام الوحدة والتحرير. وقد وصل المدّ القومي الى ذروته بصعود الظاهرة الناصرية وتصدّرها واجهة المشهد.

وبناءً عليه فقد استطاعت الثقافة العربية في تلك الأوقات أن تُمارس حضورها الفاعل في أوساط الطّبقات الاجتماعية، وأن تتحوّل إلى رمز صلب من رموز المواجهة، على الرّغم من أدواتها البسيطة وطراوة عودها في تلك المرحلة[1] .

أمّا اليوم، وفي ظلّ التّقدّم العلمي الهائل الذي وصلت إليه البلدان العربية، وانتشار التعليم على نطاق واسع، وازدهار حركة النشر والترجمة، فإنّنا لا نكاد نجد أثراً لهذه الثقافة في صيرورة الأحداث.

---

1 - يوسف عبد العزيز، "انهيار المشروع الثقافي العربي!"، موقع الجزيرة السبت 3 ربيع الاول العدد 1435., Yousef_7aifa@yahoo.com

على العكس من ذلك فإنّنا نجد هناك نتائج مخيّبة للآمال تتمثّل في بروز عدد كبير من الظواهر السّلبية التي لم تكن موجودة في الماضي.

ب- صراع ثقافي

ان الصّراعات المحتدمة في أكثر من بلد عربي أو الحروب الأهلية إذا جاز التّعبير، بالإضافة إلى مسخ القضيّة الفلسطينية وتشويهها أمور لم تكن لتحدث بمعزل عن تراجع لافت لدور الثقافة العربية وتشويه لجوهرها. ففي الواقع لم تنتج هذه الثقافة الا الحروب بين أبناء البلد الواحد.

في لبنان مثلاً لم تحل كلّ المؤسسات الثقافية فيها ولا جماعات المثقفين العرب ولا كلّ ذلك الحراك الثقافي الذي كان يجري، دون انفجار الحرب الأهلية في أواسط السّبعينيّات من القرن الماضي، والتي ما زالت مستمرّة بوسائل وأقنعة جديدة.

في العراق الوضع أكثر كارثية، فقد انقلبت الأمور رأساً على عقب في سنوات قليلة، وتحوّل البلد من حاضنة للقومية العربية إلى نثار غريب من الطوائف والإثنيّات بات يطرح بوضوح مسألة تفتيت الكيان العراقي الواحد إلى مجموعة من الدّويلات. أين ذهبت المطبعة العراقية التي كانت تضخّ آلافاً مؤلّفة من الكتب والمجلاّت؟ أين ذهب القرّاء العراقيّون الذين كانوا يلتهمون الكتب؟ ما أجمل الأميّة في هذه الحال، الأميّة (الثورية) التي أشعل الفلاحون البسطاء من خلالها الثورات في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، وأدّت إلى طرد الاستعمار[1].

وإذا ما ذهبنا إلى الوضع الفلسطيني وعاينّاه بدقّة فإنّنا سنكون أمام أسوأ النتائج. لقد ذهب شعر المقاومة وكلّ الأدبيّات العربية التي ضخّت الوريد الفلسطيني بالصّمود والحماسة وعلى مدار قرن تقريباً، أدراج الرّياح. فقد اضمحلّت

1 - المصدر نفسه.

القضية الفلسطينية وتقهقرت، ليس على مستوى الشعور القومي بها فقط، وإنّما على المستوى الفلسطيني نفسه.

تحوّلات غريبة حدثت في الجسد الفلسطيني المقاوم الذي انتقل في آخر الأمر من خندق التّحرير والمجابهة إلى خندق الأعداء. لقد تُوّج النّضال الفلسطيني الذي التهب لعشرات السنين، باتّفاقية أوسلو، التي ما زالت سارية المفعول حتى هذه اللحظة، والتي قادتنا جميعاً إلى النضال. إنّ الاعتراف بالكيان الصّهيوني الذي قدّمته الاتفاقية السابقة أمر لم يكن يراود الثقافة العربية ولا المثقفين العرب في يوم من الأيّام. لقد نشأ بسبب هذه الاتفاقية وأخواتها من الاتفاقيات الأخرى أجواء من الميوعة طالت أكثر ما طالت الجسد الثقافي العربي الذي بات يشهد ولادة تيّارات هجينة من المثقفين، بعضها ''واقعي'' وبعضها ''مُتأمرك''، وبعضها ''متأسرل[1]''.

انقضى القرن العشرون ودلفنا إلى الألفية الثالثة، وقد انهار المشروع الثقافي العربي ووصل إلى حالة عظيمة من الإرباك والفوضى. وقد انعكست آثار هذا التّقهقر على مختلف النّواحي والصّعد في الحياة العربية وفي الوجود العربي وفي مستقبل هذا الوجود. لم يكن كافياً أن يفشل حلم الوحدة، ولا أن يُشار إلى الوطن العربي بأسماء بديلة كالشّرق الأوسط وشمال أفريقيا، بل أصبحت تطبخ هناك مؤامرات شيطانية تنظّر لما يسمّى ''للشّرق الأوسط الكبير'' الذي يمكن أن يكون شبيهاً بِحِسبة كبيرة من الدّويلات والشعوب[2].

ج- أزمة المثقفين

على صعيد المثقفين العرب نجد الأوضاع تسير من سيّئ إلى أسوأ. فهم وعلى

1 - المصدر نفسه.

2 - نفسه.

الرغم من أعمالهم الإبداعية وروابطهم واتّحاداتهم الثقافية التي أنشأوها وسهروا عليها، لم يستطيعوا أن يصنعوا تغيّرات هامة تمسّ الجوهر والعمق في الحياة العربية. بمعنى أنّ الثّقافة التي يقومون بصناعتها هي ثقافة أقرب إلى التّسلية والتّرويح عن النّفس من كونها ثقافة عضوية تنشد التّغيير الحاسم. إنّ المؤشّر الكبير على خلل هذه الثقافة يتمثّل في غياب الرّؤى النّاقدة والجريئة من قاموسها . إنّ الثقافة التي تكتظّ بالشعراء والروائيين وهي في الوقت نفسه شبه خالية من المفكّرين الكبار، هي ثقافة يسهل نبذها ولا تؤثّر كثيرا في تاريخ الشعوب.

''من أكبر الخدع التي جرى ترويجها لدى المثقفين العرب هي تلك المقولة الدّاعية إلى فصل السّياسي عن الثقافي، وكان من نتائجها أن تمّ عزل الثقافة عن مجالها الحيوي والذّهاب بها الى حد تبرير الخيانة والارتماء في حضن أعدائها[1].''

---

1 ـ يوسف عبد العزيز، ''إنهيار المشروع الثقافي العربي''، م. س.

2- أزمة النظام الثقافى العربى

أ- نظريتا الأزمة والانهيار

لمناقشة أمور الثقافة العربية الراهنة، لا بد لنا أن نتعرف على النظريات السائدة في المناخ الفكري العربي والتي تتعرض بالتشخيص والتحليل للثقافة العربية الراهنة. وفي هذا الصدد يمكن التمييز بين نظريتين أساسيتين:

- النظرية الأولى تذهب الى أن الثقافة العربية الراهنة تمر بأزمة شاملة وعميقة، بحكم عجزها عن التكيف الايجابى الخلاق مع المتغيرات العالمية والإقليمية والمحلية. وهي أزمة تكشف عن جمود المجتمعات العربية المعاصرة، وعجز قياداتها عن الإبداع السياسي، في مجال التطور الضروري لبنية النظم السياسية، والانتقال من اطار السلطوية بكافة أشكالها الى آفاق التعددية السياسية بكل وعودها، وفيما يتعلق بزيادة رقعة المشاركة السياسية، واتاحة الفرصة للتنوع الفكري والإبداعات الثقافية.

والأزمة الثقافية العربية متعددة الجوانب، فهي، كما سنبين لاحقاً، أزمة شرعية، وأزمة هوية، وأزمة عقلانية فى نفس الوقت[1].

واذا أردنا تعريفا دقيقا للازمة، يمكننا أن نعتمد على تعريف برهان غليون لما يسميه بالأزمة المفتوحة ويعني بها "انهيار التوازنات الاجتماعية والاقليمية التي

1-السيد يسين، النظام الثقافى العربى بين الأزمة والانهيار، التقرير الاستراتيجي العربي، الأهرام الرقمي 1 يناير 1995.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=635808&eid=448

خلقها وضمنها النظام القومي. وانفتاح الصراع من جديد بين مختلف مكونات الجماعة العربية: الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية والطائفية، على مصراعيه، من أجل إعادة توزيع عناصر الثروة والمواقع السياسية والاجتماعية، وتكوين الفكرة أو الإيديولوجية التي تكرس هذا التوزيع، وهو يعني إذن انحلال روابط التضامن الداخلي والاقليمي، وانقلاب القوى دون ضابط وتنافرها، وذبول القيم والمبادئ القومية واستخدامها السوقي لغايات الصراع الفئوى، والجنوح نحو سياسات الانكفاء على الذات وخدمة المصالح الأنانية أي زوال العام وصعود الخاص إلى مقدمة المسرح الاجتماعي[1]".

- النظرية الثانية تذهب بعيداً فى اطار تشخيص الوضع الراهن للثقافة العربية، وهي لذلك لا تقنع بوصف الأزمة، وانما ترى أن النظام الثقافي العربي الذي ولد بعد الصدام الدامي بين الحملة الفرنسية بقيادة نابليون والمجتمع المصرى، وما تبعه من نهضة فكرية وسياسية، قد انهار ودخل مرحلة النزاع النهائي مع هزيمة يونيو 1967، ولكنه سقط نهائيا بوقوع حرب الخليج عام 1990. وأهمية هذه النظرية المتعلقة بانهيار النظام الثقافي العربي تكمن في أنها تتحدث عن الولادة العسيرة لنظام ثقافي عربي جديد له قيمه ومبادئه المختلفه عن النظام القديم، كما أن المثقفين الجدد المعبرين عنه يختلفون تماما عن المثقفين القدامى الذي سقط دورهم مع سقوط نظامهم[2].

ب- اتجاهات الثقافة العربية

يتضح مما سبق أنه لا بد من الحديث عن التصور المستقبلى لاتجاهات الثقافة العربية، وعن ضرورة صياغة مبادرة حضارية عربية شاملة، تقوم على أساس

1 - المصدر نفسه..

2- نفسه.

حوارات مدروسة بين كافة المثقفين العرب الذين ينتمون الى اتجاهات فكرية شتى، وتكون هي الأساس الذي تعتمد عليه الشعوب في حوار الحضارات الذي سيصبح من أبرز معالم القرن الواحد والعشرين[1].

ج- مفهوم التحليل الثقافي

مفهوم الثقافة كما نستخدمه ليس هو المفهوم الشائع الذي يشير إلى "الثقافة الرفيعة" فى مختلف صورها، والتي تتمثل فى الفن والادب والفلسفة والتاريخ، وكانت وما تزال حكرا على صفوة بورجوازية قليلة العدد. فالثقافة وفقا لتعريفها الانثربولوجى، وفي ضوء منهجية التحليل الثقافى، تتضمن الأعراف والمعايير ورؤى العالم وأساليب الحياة فى مجتمع ما، بالاضافة إلى جوانب "الثقافة الرفيعة"[2].

والتحليل الثقافى يمكن تعريفه باعتباره دراسة البعد الرمزي - التعبيري للحياة الاجتماعية، وعلى ضوء ذلك هو يهدف إلى التعرف على الانتظامات الأمبيريقية السائدة فى هذا البعد من أبعاد الواقع، والى تحديد القواعد والميكانيزمات والعلاقات التي ينبغى أن تكون موجودة بالنسبة لأي فعل رمزى محدد لكي يكون له معنى.

وموضوع بحث التحليل الثقافى هو ما يمكن ملاحظته من الأفعال الموضوعية، والأحداث والوقائع والخطابات، وموضوعات التفاعل الاجتماعى.

---

1 - السيد يسين، "النظام الثقافي العربي في الأزمة والانهيار" م. س.

2 - نفسه.

3- العلاقة بين الثقافة والنسق الاقتصادي - السياسي

أ- جدلية العلاقة بين الثقافة والنسق الاجتماعي

أن تحليلاً سوسيولوجياً نقديا للظواهر الثقافية، يتطلب من ناحية أن يوضع فى الاعتبار الطابع الجدلي للعلاقة بين الثقافة والنسق الاقتصادي - السياسي فى المجتمع، ومن ناحية أخرى الطابع الجدلي للعلاقة بين العناصر النقدية، والعناصر الدفاعية - التبريرية داخل الثقافة[1].

يمكننا أن نعتمد على هابرماس في تعريف الأزمة الثقافية العربيّة بكونها "تظهر حين لا يعطي نسق اجتماعى سوى امكانيات قليلة لحل المشكلات التي تواجهه، بما لا يسمح باستمرار وجود النسق". وغني عن البيان أن هذا التعريف العام للازمة، مع انطباقه على المجتمعات المعاصرة بكافة أنماطها، لا يمنع من القول أن لكل أزمة ثقافية أسبابا عامة قد ترد إلى تحولات عميقة في النظام العالمي، في مجال الحضارة الإنسانية، مثل الثورة العلمية والتكنولوجية، وأسبابا خاصة لا بد من البحث عنها في كل مجتمع على حدة، واضعين فى الاعتبار تاريخه الاجتماعي الفريد بكل مكوناته[2].

ب- العلاقة بين الثقافة وبناء القوة في المجتمع

هناك منهجيات متعددة يزخر بها الآن ميدان التحليل الثقافى، ولكن سنتبنى

---

1 - أنظر: Daniel-Louis Seiler. Les parties politiques, 2 eme ed, Armand Colin, Paris 2000,

2 - أنظر: مي العبدالله، الاتصال والديمقراطية، دار النهضة العربية، بيروت 2006.

منهجية خاصة "بالأزمة الثقافية"، لأنها هي التي تصلح للتطبيقي على الوضع الراهن للثقافة العربية. وهذه المنهجية سبق أن اقترحها وطبقها عالم الاجتماع الألماني هانز بيتر درايتزل فى دراسة له بعنوان "فى معنى الثقافة" نشرت عام 1977 فى كتاب جماعي حرره نورمان بيرنبوم بعنوان "اجتياز الأزمة" (نيويورك: مطبعة وأكسفورد، 1977).

فى الاطار النظري المقترح مبدأ نظري هام، وهو ضرورة تحليل العلاقات بين الثقافة وبناء القوة فى المجتمع، ومن ناحية أخرى، الوظائف المحددة للثقافة في أي مجتمع، والتي تهدف أساسا للحفاظ على أنماط الانتاج السائدة وعلى عملية إعادة الانتاج. وفي هذا الصدد هناك ثلاث وظائف يمكن التمييز بينهما:

1 - الوظيفة الأولى تتمثل في أن ثقافة مجتمع ما تمد أعضاءه بتبريرات لشرعية نمط الانتاج السائد ونمط التوزيع.

2 - الوظيفة الثانية للثقافة أنها تمد الفرد، من خلال إجراءات وطقوس التنشئة الاجتماعية المقبولة، ببنية دافعية تربط بين هويته والنمط السائد للانتاج.

3 - الوظيفة الثالثة للثقافة أنها تمد أعضاء المجتمع بتفسيرات رمزية للحدود الطبيعية للحياة الإنسانية.

والفكرة الرئيسية التي ننطلق منها هي أن المجتمع العربي قد وصل إلى نقطة، ثبت منها أن النسق الثقافى عاجز عن القيام بهذه الوظائف، ومن هنا تأكيدنا بأننا نواجه فى الوقت الراهن أزمة ثقافية عربية[1].

اذا تعمقنا فى مختلف جوانب الازمة يمكن أن نلحظ ثلاث أزمات: أزمة الشرعية، وأزمة الهوية، وأزمة العقلانية العملية. ومما يلفت النظر، من وجهة النظر المقارنة، أن هذه الأزمات سائدة أيضا فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة.

---

1 - راجع: السيد يسين، النظام الثقافى العربى بين الازمة والانهيار، م. س.

غير أن ذلك لا يعني أن أسباب هذه الأزمات فى الدول الغربية المتقدمة هي نفسها أسبابها في المجتمع العربي. ومرد ذلك إلى التاريخ الاجتماعي الفريد لكل منطقة ثقافية في العالم، والذي يجعل الظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية لها أسبابها الخاصة[1].

ج- تشخيص الثقافة العربية

وبناء على ما سبق، حين ندعو لنظام ثقافى عربى جديد، فهذه الدعوة في حد ذاتها لا قيمة لها، إن لم تحدد من هم "الفاعلون الاجتماعيون" الذين سيتولون مهمة صياغة هذا النظام الجديد، وأبعد من ذلك أهمية اقتراح وتحديد استراتيجيات العمل للتغيير الاجتماعي، لصالح الجماهير العريضة. في ضوء هذا الاطار النظري، وبغير الالتزام بصياغته الصورية، نتقدم بتشخيص من أزمة الثقافة العربية انطلاقا من أزمة الهوية العربية[2].

4-أزمة الهوية العربية

أ- أزمة الشرعية في الوطن العربي

ركزنا كباحثين في العقد الأخير على الديمقراطية باعتبارها إحدى المخارج الأساسية للخروج من أزمة الثقافة العربية، بالاضافة إلى أنها مرغوبة لذاتها كنظام سياسي، بعد أن ظهرت الآثار المدمرة للسلطوية العربية بكل أشكالها، والتي سادت الوطن العربي في العقود الأربعة الأخيرة[3].

وموضوع شرعية النظم العربية موضوع يثير قضايا نظرية ومنهجية وتاريخية

1- أنظر: السيد يسين، النظام الثقافى العربى بين الازمة والانهيار، م. س..

2 -نفسه

3 - راجع: مي العبدالله الاتصال والديمقراطية، م. س.

متعددة، ليس هنا من مجال للخوض فيها. غير أنه لا بد من أن نتفق أولاً على تعريف للشرعية، وتحديد لمصادرها، قبل أي حديث عن سيادة الدولة السلطوية فى الوطن العربي بأنماطها الملكية والجمهورية على السواء، وظاهرة تآكل شرعية هذه الدولة فى الوقت الراهن.

الشرعية، فى أبسط تعريفاتها، هي ''قبول الأغلبية العظمى من المحكومين لحق الحاكم في أن يحكم، وأن يمارس السلطة، بما في ذلك استخدام القوة ''[1]. أما عن مصادر الشرعية فهناك اتفاق بين العلماء الاجتماعيين على أن النموذج الذي صاغه ماكس فيبر Weber يكاد يكون حتى اليوم النموذج الشامل لمصادر الشرعية والتي حددها فى ثلاثة أنماط نموذجية: التقاليد، والزعامة المهمة (الكاريزما)، والعقلانية القانونية. وإذا تتبعنا التاريخ الحافل للنظام السياسى العربي منذ الخمسينات حتى اليوم، بما فيه من أنظمة ملكية وأنظمة جمهورية، سنلاحظ تساقط بعض النظم الملكية مثل النظم الملكية فى مصر (1952)، وتونس (1956)، والعراق (1958)، واليمن (1962)، وليبيا (1969) مما يعني في الواقع تآكل شرعيتها السياسية، ونشوء أنظمة جمهورية مؤسسة على شرعية جديدة هي شرعية الثورة فى الغالب الأعم.

وهذه النظم السياسية العربية الراديكالية، التي أسست شرعيتها على أساس تحقيق الاستقلال الوطنى، والعدالة الاجتماعية، والتنمية الشاملة، وخاضت فى سبيل ذلك معارك شتى داخلية مع القوى السياسية المنافسة انتهت بتصفيتها والقضاء عليها، أو مع القوى الخارجية، وانتهت بهزائم، أبرزها ولا شك هزيمة يونيو 1967، هذه النظم نجدها منذ الثمانينات تواجه مشكلة تآكل شرعيتها السياسية، والذي هو حصيلة فشلها في تحقيق التنمية الشاملة، وعجزها عن تحقيق

1 - راجع : أحمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعية وتصنيف الذات، سلسلة عالم المعرفة، العدد 326 إبريل 2006 .

قيم الديمقراطية والمشاركة السياسية[1].

ب-استراتيجيات الأنظمة

كان ردفعل بعض الأنظمة العربية، لانقاذ شرعيتها المتهاوية، تطبيق إستراتيجيتين:

1 - النزوع إلى تعددية سياسية مقيدة لتخفيف الضغط عن النظام السياسى، وإتاحة الفرصة للأصوات المعارضة أن تعبر عن نفسها، وذلك في حدود الدائرة الضيقة التي رسمتها للمشاركة، والتي لا تتضمن امكانية تداول السلطة.

2 - ممارسة القمع المباشر ضد الجماعات السياسية التي لم يعترف بحقها فى المشاركة السياسية، أو التى لم تقبل بفكرة التعددية السياسية المقيدة، وتهدف إلى الوصول إلى السلطة، وأهمها الجماعات الإسلامية الاحتجاجية، وأبرزها جماعات الجهاد فى مصر، وحركة النهضة في تونس، وجبهة الانقاذ الإسلامي في الجزائر.

أما النظم الملكية فبعضها أدرك باقتدار تحول حركة التاريخ فى اتجاه التعددية السياسية، ففتح الباب واسعا أمامها، كما هو الحال في الأردن، الذي أجريت فيه انتخابات حرة، أدت إلى حصول الإسلاميين على عدد من الأصوات المؤثرة، سمحت لهم بالاشتراك المكثف في الوزارة لأول مرة، وبعضها مازال مغلقاً على ذاته، مصراً على الاعتماد على شرعية "التقاليد". نحن إذن أمام سيادة نمط الدولة السلطوية فى الوطن العربي، بأنماطها الملكية والجمهورية على السواء، والتي تواجه ظاهرة تاكل شرعيتها فى الوقت الراهن.

وقد أدت ممارسات الدولة السلطوية العربية في العقود الأربعة الأخيرة إلى مجموعة مترابطة من الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية والنفسية أبرزها:

1 - شيوع اللامبالاة السياسية بين الجماهير المقموعة، وبروز ظاهرة الاغتراب

---

1 - أنظر: R.Maestri, Du particularisme au délire identitaire, Ed harmattan, Collection Questions Contemporaines, Paris novembre 2003.

على المستوى المجتمعي والفردي.

2 - ظهور الثقافات المضادة للدولة السلطوية، وازدياد حركيتها السياسية وفاعليتها الاجتماعية، وقدرتها على تعبئة الجماهير، وخصوصا منذ بداية السبعينات، والمثل البارز لها على الاطلاق هو حركات الإسلام الاحتجاجي، وهذه الحركات أحدثت قطيعة مع التيار الإسلامي التقليدي الذي رفع من أيام الشيخ محمد عبده فى مواجهة عملية التغريب، شعار تحديث الإسلام، برفعها شعار "أسلمة الحداثة" بكل ما يعنيه ذلك من معان، وأبرزها الرفض القاطع للدولة العلمانية الوضعية والعمل على قلبها لإنشاء الدولة الإسلامية، بالإضافة إلى مهاجمة النموذج الثقافي الغربي، باعتباره لا يعبر عن تقاليد الأمة الإسلامية، والعمل على تشييد نموذج إسلامي متكامل فى الثقافة والاقتصاد والسياسة.

3 - بروز تيار علمانى ديمقراطى مضاد للسلطوية، يسعى إلى إحياء المجتمع المدني، من خلال تشكيل الأحزاب السياسية المعارضة، وتكوين جمعيات حقوق الإنسان، وتفعيل المؤسسات الاجتماعية والثقافية المستقلة عن سلطة الدولة[1].

ج- مخاطر المرحلة الانتقالية

والواقع أنه يمكن القول أن النظام السياسي العربي يمر فى الوقت الراهن بمرحلة انتقالية بالغة الصعوبة، حافلة بالصراعات السياسية والاجتماعية والسياسية، ومفتوحة لاحتمالات مختلفة.

وهذه المرحلة الانتقالية من السلطوية إلى التعددية السياسية تختلط فيها العوامل المؤثرة عليها، بين العوامل الدولية، والتأثيرات القادمة من النزوع العالمي نحو التعددية، والعوامل الداخلية المتعلقة بتركيب السلطة، ودرجة نضح الطبقات الاجتماعية، ودور المؤسسة العسكرية، ودور المثقفين والطلائع

---

1 - راجع: أحمد زايد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، م. س.

الديمقراطية والثورية فى إحداث التغيير.غير أنه مما يلفت النظر أننا بإزاء معركتين مزدوجتين فى الواقع، الأولى بين الدولة السلطوية والمجتمع المدنى البازغ بمختلف توجهاته وأيديولوجياته، والثانية داخل المجتمع المدني ذاته بين التيار العلماني الديمقراطي على تنوع اتجاهاته، وبين التيار الإسلامى السلفى، الذى ظهر على الساحة السياسية أكثر تنظيما، وأعمق فاعلية وخصوصاً فى مجال الاتصال بالجماهير وقدرته على تعبئتها. والحقيقة أن عملية تأسيس مجتمع مدني حديث تجابه مجموعة مترابطة من التحديات، التي إن لم تواجه بفاعلية، فان العملية ستتعثر فى الأجل المتوسط[1].

1 ـ المصدر نفسه.

5- الفجوة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية

أ-انعزال النخبة

تشهد المنطقة العربية فجوة عميقة بين ثقافة النخبة والثقافة الشعبية، اذ هناك من قبل النخبة إتجاهات إستعلائية إزاء الثقافة الشعبية وجهل بها، وعجز عن التواصل معها، ورفض لشرعيتها الثقافية. واذا لاحظنا سيادة الأمية في الوطن العربي، لأدركنا خطورة هذا التحدي الذي يمكن أن يجعل النخبة منعزلة عن جماهيرها.

ولا شك في أن دور المثقفين حاسم في إحداث التغيير الاجتماعي، كما أثبتت ذلك التجربة التاريخية في العالم وفي الوطن العربي على السواء. غير أن هذا الدور يقتضي تحول المثقف من مثقف منعزل إلى مثقف عضوي قادر على الالتحام مع الجماهير. ونشير فى هذه الصدد إلى فشل المثقفين العلمانيين الديمقراطيين في تحقيق هذا الهدف، وفي نفس الوقت النجاح الواضح للمثقفين الإسلاميين.

وقد يعود ذلك إلى أن الخطاب العلماني الديمقراطي غير قادر حتى الآن على الوصول إلى الجماهير العريضة، ربما بسبب لغة الخطاب نفسه، وعجزه عن الصياغة المتسقة لمسلماته وطروحاته. في حين أن الخطاب الإسلامي استطاع أن يصل إلى جماهير عريضة، ربما بسبب مخاطبته للمخزون التراثي الكامن في وجدان الجماهير. ولكن الأهم من ذلك طرحه شعارات مجملة قد تكون غامضة في ذاتها مثل شعار "الإسلام هو الحل"، غير أنه تبين أنها كانت قادرة على اجتذاب المخيلة الشعبية، بوعود للحل النهائي لمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية

والروحية. ومن هنا نخلص إلى القول إلى أن المعركة الدائرة داخل نطاق المجتمع المدني، تتلخص في تحديات تاسيس خطاب علماني ديمقراطي عصري، قادر على مواجهة الخطاب الإسلامي السلفي من ناحية، وعلى الصراع ضد الخطاب السلطوي من ناحية ثانية[1].

من المعروف أن طرق التنشئة الاجتماعية تعد أساسية بالنسبة لأي ثقافة، ونعني بها الطريقة التي تنتقل بها المعايير التقليدية والقيم في مجتمع ما من جيل إلى جيل.

وتقوم التنشئة الاجتماعية بوظيفة انتاج شعور بهوية الفرد وهوية الجماعة، بالاضافة إلى تحقيق بنية دافعية داخل الفرد، وظيفتها قبول الفرد وتكيفه مع النموذج السياسي والاقتصادي السائد في المجتمع. (كالنموذج الرأسمالي أو الاشتراكي).

وفي مجال التنشئة الاجتماعية والهوية، هناك اتجاهات نظرية متصارعة، حول غلبة العناصر المادية وأهمها نوعية نمط الانتاج السائد على غيره من العناصر.

ويميل الاتجاه الماركسي التقليدي إلى التركيز على البناء التحتي (نمط الانتاج وعلاقات الانتاج) على حساب البناء الفوقي (القيم والاعراف والتقاليد والأفكار الفلسفية). وهذا الاتجاه بالرغم من تاكيده على الطابع الجدلي للعلاقة بين البناء التحتي والبناء الفوقي، يقرر أن البناء التحتي هو الذي يحدد البناء الفوقي.

وفي مواجهة هذا الاتجاه المادي في التفسير، نجد الاتجاه المثالي الذي يرفع من شأن القيم والأعراف والعادات والأفكار على حساب العوامل المادية.

وقد أدت خبرات تاريخية متنوعة، وبروز ظواهر مثل الإحياء الديني في مجتمعات تختلف اختلافات أساسية في بنيتها التحتية، إلى إيلاء البنية الفوقية للمجتمعات أهمية قصوى، ويصل بعض ممثلي هذا التيار إلى أن البناء الفوقي، فى لحظات

---

1 ـ غسان الامام، ’’ثقافة النخبة والثقافة الشعبية‘‘، جريدة الشرق الأوسط، الثلاثـاء 20 أبريل 2010 العدد 11466.

تاريخية معينة، ونتيجة لعوامل شتى، يكون هو الحاسم في رسم مسيرة التطور الاجتماعي[1].

ب- مفهوم ''النظرة الى العالم''

إن الحديث عن الهوية في المجتمع يحتاج إلى بلورة مفاهيم محددة قادرة على تعريف جوهر مشكلة الهوية، ومن أهمها مفهوم ''النظرة الى العالم Vision Du monde'' وهو يدل على وجهة النظر ازاء الكون والمجتمع والإنسان.

ويتضمن المفهوم مجموعة من الأبعاد النظرية:

-تتعددرؤى العالمفي أيمجتمع،بتعددطبقاته الاجتماعيةوثقافاته الفرعية،وجماعاته الإثنية. ومن هنا ظاهرة الصراع الثقافى بين رؤى متعددة للعالم في نفس المجتمع.

- تنجح الطبقات المسيطرة في أي مجتمع، من خلال اشاعة الوعي الزائف، في فرض رؤيتها للعالم.

- شرعية مفهوم سائد للعالم قد تتأثر بضغوط خارجية أو داخلية سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية.

- بالرغم من أنه يمكن صياغة ''نماذج مثالية'' لرؤى العالم المتصارعة في المجتمع، إلا أنه يمكن أن نشاهد اختلاطاً بين عناصر مفهومين متضادين. على سبيل المثال تسرب عناصر دينية إلى الرؤية العلمانية للعالم، أو تسرب عناصر وضعية إلى الرؤية الدينية للعالم[2].

ج- أزمة الهوية

من أبرز علامات أزمة الثقافة فى الوطن العربي أزمة الهوية. وجدير

1 ـ غسان الامام، ''ثقافة النخبة والثقافة الشعبية''، م. ن..

2 ـ نفسه

بالإشارة إلى أن أزمة الهوية ظاهرة ملموسة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة والمجتمعات الاشتراكية على السواء.

فالمشكلة تكمن في أن ممارسة العقلانية العملية وبسطها إلى حدودها القصوى، وارتفاع معدلات الضبط الاجتماعي في المجتمع، ووضع القيود أمام حركة الفرد في المجتمع، بحكم الصيغة التنظيمية للاقتصاد، ونمط النظام السياسي، كلّها قد أدت إلى نتائج سلبية. وزادت معدلات الاحباط الانفعالي العميق الجذور. ومن ناحية أخرى، من أسباب أزمة الهوية، وجود الشباب كعامل اجتماعي واقتصادي وسياسي مستقل.

وتتبلور أزمة الهوية فى المجتمع حين تتحول إلى حركات سياسية واجتماعية احتجاجية. وقد استطاعت المجتمعات الرأسمالية، بمقدرة فذة، احتواء حركات الاحتجاج الراديكالية وتحويلها إلى حركات ثقافية من خلال ما أطلق عليه ماركوز Marcuse ''التسامح القمعي'' Repressive Tolerance. أما فى المجتمعات الاشتراكية فقد كان هناك سبل للقمع المباشر[1].

ولعل أبرز هذه الرؤى على المستوى السياسي ''الرؤية السلطوية للعالم''، والتي تؤمن بالوحدانية أسلوباً في الحكم، من خلال الجماعة الانقلابية أو الحزب الواحد، وهي لذلك ترفض الصراع السياسي بل وتقمعه قمعاً مباشراً، وترى أن التعددية من شأنها إضعاف الدولة والنظام. بل إنها على الصعيد الثقافي تحرص على تسييد رؤيتها للعالم ونفي كافة الرؤى المتعارضة معها، من خلال السيطرة الكاملة على أجهزة الثقافة والاعلام، والتي لا يتاح فيها لغير أنصار النظام للتعبير عن آرائهم، من خلال خطاب دعائي تبريري وغوغائي.

وتتناقض هذه الرؤية مع ''الرؤية الليبرالية التعددية للعالم'' التي تؤمن بالحوار، والتعدد الفكري، والتعددية السياسية والحزبية، وتداول السلطة بين مختلف

---

1 ـ غسان الامام، ''ثقافة النخبة والثقافة الشعبية''، م. ن.

التيارات والأحزاب السياسية، وفقا لانتخابات حرة ونزيهة. وهي لذلك ترفض القمع السياسي، وتدين حكم الفرد المطلق، وترفض صيغة الحزب الواحد.
وعلى الصعيد الثقافي ترى ضرورة تنوع الأراء والرؤى وصراعها فى اطار سلمى، فهذا هو الضمان لازدياد ثراء التجربة الاجتماعية.

وإذا ركزنا على الجانب الثقافي لوجدنا صراعاً بين "الرؤية العلمانية" من ناحية التى تنطلق من ضرورة فصل الدين عن السياسة، و"الرؤية الدينية السلفية" التي ترى أن الإسلام دين ودولة، وأن هذا الفصل المزعوم الذى تراه العلمانية، ليس سوى تعبير عن مجتمع غربي، ولا علاقة له بالمجتمع الإسلامي. وهذا الصراع صراع أساسي داخل المجتمع العربى فى الوقت الراهن، ونتيجته ستحسم إلى وقت طويل مستقبل المجتمع المدني العربى.

خلاصة القول إن أزمة الهوية في المجتمع العربي لها أبعاد سياسية وثقافية واجتماعية بالغة العمق، تستحق أن ندرس أصولها، ومظاهرها وتجلياتها، ونستشرف آفاق حلها، وقد يساعد على حلها تجديد أصحاب الرؤى المتصارعة لخطابهم السياسي، آخذين في الاعتبار حقائق العالم المعاصر، والتغيرات الاجتماعية والثقافية العميقة التي حدثت في المجتمع العربي في العقود الأخيرة[1].

العقلانية العملية Instrumental Rationalism هي من إفرازات العقلانية كمذهب فلسفي ومبدأ علمي لتنظيم الحياة والمجتمع في المجتمعات الرأسمالية. ومن هنا يمكن القول أن العقلانية والفردية هما المبدآن اللذان يميزان الرأسمالية. ولذلك اهتم ماكس فيبر Weber بشرح وتحليل العقلانية، من خلال تحليله الثقافي للرأسمالية، بحيث أصبحت بحوثه في هذا المضمار مراجع أساسية حتى اليوم.

غير أن قدرة المجتمعات الرأسمالية على عمليات الضبط السياسي والاجتماعي والثقافي، قد تآكلت مع الزمن، ومن هنا ظهور أزمات الشرعية والهوية. واذا

1 ـ غسان الامام، "ثقافة النخبة والثقافة الشعبية"، م. ن.

أضفنا إلى ذلك سقوط الوهم الرأسمالي المتعلق بأنه لا حدود للنمو، وأنه يمكن استغلال الطبيعة إلى ما لا نهاية، لأدركنا كيف أن العقلانية العملية دخلت فى أزمة عميقة، تبدو مؤشراتها فى التحليل الثقافي النقدي لمقولات العقلانية العملية نفسها، كما يفعل الفليسوف الألماني هابرماس في بحوثه المتعمقة، وفى ظهور الحركات الإيكولوجية النشطة، والتي من أبرز أمثلتها فى أوروبا حزب الخضر في ألمانيا، داعية إلى صياغة علاقة الناس بالطبيعة وفق تفسيرات جديدة للحدود الطبيعية للحياة الإنسانية.

هذا الموضوع يثير قضايا فلسفية واجتماعية وسياسية بالغة العمق، وليس هنا مجال للاحاطة بها. ما يعنينا هو أن النظم السياسية العربية وخصوصا التي أرادت القيام بعمليات تنمية بطريقة ثورية، لم تجد أمامها لكي تتبناه أساساً لقراراتها، سوى نموذج العقلانية العملية الغربي أو الرأسمالي الماركسي، والذي هو تنويع آخر على نفس اللحن، بكل ما في هذا النموذج من سلبيات بارزة، وخصوصً فيما يتعلق بالتعامل مع الموارد الطبيعية.

وهكذا رأينا أن نموذج التحضر الغربي المرتبط بالتصنيع، أصبح هو النموذج السائد على حساب الزراعة، ففى الوقت الذي تضيع فيه كل عام آلاف الأفدنة الخصبة الصالحة للزراعة في بلاد مثل مصر وسوريا والعراق، نتيجة استخدامها للبناء، نجد قرارات تصدر لاستصلاح الأراضي الصحراوية، بمشاريع تكلف بلايين الجنيهات.

وإذا انتقلنا من تبني نموذج العقلانية العملية الغربي، إلى عملية صنع القرار، لاكتشفنا أن جانباً من سلبيات هذا النموذج يتم تحاشيه في المجتمعات الغربية، نتيجة ديمقراطية عملية صنع القرار، وممارستها تحت رقابة الصحافة والرأي العام. وندرك أن هناك حدوداً لهذه العملية وخصوصا قوة جماعات الضغط، وتزييف الوعي من خلال الاعلام. ولكن ما من قرار استراتيجى خطير فى مجال التنمية، يمكن مع ذلك تمريره بواسطة ارادة حاكم فرد مطلق كما هو الحال

عندنا فى الوطن العربي، أو بواسطة حزب واحد تتحكم فيه مجموعة قليلة العدد. وقد أدت عملية الانفراد باصدار القرار في مجال التنمية إلى خلق تنمية مشوهة وغير متوازنة، لم تؤد في النهاية إلا إلى إفقار الجماهير العريضة، وسقوط اقتصاديات أغلب أقطار الوطن العربى فى الديون، التى أصبحت هى الصورة المثلى للاستعمار الاقتصادي والسياسي الجديد.

ان كل هذه الظواهر التي أوصلت النظام العربي إلى حالة بارزه من حالات العجز الاقتصادي والضعف السياسي، إنما هي انعكاس لأزمة العقلانية العملية، التي انعكست على احتكار عملية صنع القرار.

ويبدو أن صياغة حلول خلاقة لمواجهة الأزمة لا يمكن أن تتم بغير حل أزمة الشرعية وأزمة الهوية. وهكذا فى مواجهة مطلب تأسيس نظام ثقافي عربى جديد نجابه بأزمات ثلاث في نفس الوقت، تحتاج فى حلها إلى جهد تنويرى ثقافي، وإلى صراع سياسي ديمقراطي من أجل أن تسود في المجتمع العربي رؤية للعالم: عصرية، وديمقراطية، وقومية، وعالمية[1].

بالخلاصة: ينبغي أن ناخذ في الحسبان أن عهد الانغلاق الثقافي قد انتهى، وأن هناك الآن وعيا كونيا يتشكل، لن يؤدي إلى القضاء على التنوع الثقافي وثقافة المشاركة، ولكنه في نفس الوقت لا بد له أن يترك طابعه على مسار التاريخ في كل الدوائر الحضارية في العالم.

1 ـ غسان الامام، ''ثقافة النخبة والثقافة الشعبية''، م. ن.

6- انهيار النظام الثقافي العربي؟

أ- الصراع بين الثابت والمتحول

المقولة الأساسية التي نناقش مدى صحتها هو أن نظاماً ثقافياً عربياً جديداً يولد على أنقاض نظام ثقافي عربي قديم. فقد نعى لنا بعض المفكرين موت النظام الثقافي العربي القديم الذي انتهى من وجهة نظرهم مع كارثة حرب الخليج، وقرروا أننا على عتبات نظام ثقافي عربي جديد ابطاله هم الليبراليون المستقلون، الذين يتسمون باستقلاليه الفكر، وبالحصانة ضد التأثر بالافكار الوافدة من الغرب، والمرونة في التعامل في السلطة، وبالتواضع في تصور دورهم الإجتماعى. فالمثقف في نظرهم ليس شاهدا على العصر بمصطلحات جان بول سارتر، ولا هو المثقف الشهيد، بل هو أقرب ما يكون إلى المثقف العضوى بتعبير المناضل الايطالي المشهور جرامشى Gramshi، ومن هنا اهتمامه بتفعيل مؤسسات المجتمع المدني، وبلورة رؤى جماعات يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً. ومن شأن هذا التحول الجوهري سقوط ثقافة الشعارات السياسية الزاعقة، وغياب المثقف الايدولوجي من واجهة الأحداث[1].

وفي رأيهم إن النظام الثقافي العربي الجديد هو"الحلقة السادسة فى تاريخ الثقافة العربية". فقد قام النظام الثقافي العربي الأول وامتد بين الجاهلية إلى نهاية عهد

---

1 - برهان غليون، "نهاية النظام الاقليمي العربي"، موقع الجزيرة. نت، الأحد 3/10/2004 (آخر تحديث) الساعة 20:10. http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/10/3

الخلفاء الراشدين، واستغرقت الحلقة الثانية الدول الأموية وصدر الدولة العباسية، لتبدأ الحلقة الثالثة، وهي الأكثر خصوبة في التراث العربي، من أيام المأمون الى نهاية القرن السادس الهجرى، ثم جاءت بعدها الحلقة الرابعة التي توصف بالانحطاط والتي امتدت من القرن السابع. ولم يفق العرب منها الا على مدافع نابليون في الاسكندرية وعكا، وتلتها الحلقة الخامسة التي كان يجب أن تنتهي، ويتوقف تثأيرها عند هزيمة حزيران، لكن آخر رموزها استمروا في احتلال المشهد الثقافي حتى حرب الخليج التي وضعتنا في مواجهة الذات والآخر دفعة واحدة.

وبغض النظر عن الاتفاق والاختلاف مع هذه الرؤية التي تتعلق بالمراحل المتتابعة التي مر بها النظام الثقافي العربي، فلا شك أن العبارة التي تقول أن حرب الخليج قد وضعتنا فى مواجهة الذات والاخر دفعه واحدة صحيحة في مجملها. ذلك أن هذه المواجهة في الواقع لم تبدأ مع حرب الخليج وإنما بدأت بهزيمة يونيو 1967. ويشهد على ذلك أن تيار النقد الذاتى بدأ عقب الهزيمة، من خلال كتابات مفكرين عرب أبرزهم قسطنطين زريق، وصادق لجلال العظيم، وأديب نصور، وصلاح الدين المنجد، والذين يمثلون التيارات الليبرالية والراديكالية والمسيحية والاسلاميه على التوالى.

لقد كانت مواجهة الذات والآخر فى عام 1967 مسألة حتمية، لأن الذات المنهزمة في المعركة العسكرية هي نفسها الذات التي كانت قد نالت استقلالها السياسي، وتحررت من الهيمنة الاجنبية، وخاضت اختبارات التحديث المختلفة، ومن هنا فلم يكن هناك مجال للتعلل بتأثير الاستعمار كما كان الحال في تبرير الهزيمة العسكرية عام 1948 في المواجهة الأولى مع اسرائيل. ولعل الفترة الممتدة من عام 1967 حتى عام 1990 تاريخ الغزو العراقي للكويت، تصلح للدراسة المتعمقة، لنعرف كيف حاولت الذات العربية من خلال النقد الذاتي،

والإصلاح السياسي، والتحديث الجزئي والإعداد العسكري تلافي سلبيات الهزيمة وتجاوزها إلى آفاق الانتصار. كانت المشكلة أن الانتصار العسكري فى حرب اكتوبر 1973 لابد أن تعقبه تحولات كبرى في السياسة والاقتصاد والثقافة، وخصوصاً فيما يتعلق بالعلاقات العربية العربية والعلاقات مع الأخر. ولعل أبرز هذه التحولات الكبرى التي أحدثت بالفعل قطيعة سياسية وثقافية بين النظام الثقافي العربي القديم والنظام الثقافي العربي الجديد هو توقيع اتفاقيات كامب دافيد بين مصر واسرائيل، وتوقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية. ذلك لأنه لأول مرة يسقط شعار الصراع مع اسرائيل كشعار وجود، ويتم التبني الرسمي لشعار صراع الحدود بالرغم من المقاطعة العربية لمصر، والتي امتدت لسنين طويله. غير أن هذا التحول الدرامي في العلاقة مع العدو الاسرائيلي أثمر بعد سنوات طويله انعقاد مؤتمر مدريد وشعاره الأرض في مقابل السلام، والذى أدى - من خلال دروب متعرجة ومحادثات سرية، إلى اتفاق أوسلو، وتوقيع المعاهدة الاسرائيلية الاردنية[1].

وإذا كانت الحقبة ما بين يونيو 1967 وأغسطس 1990 قد أنجبت هذا التحول الخطير في العلاقة بين العرب واسرائيل، فقد أدت أيضاً إلى تصحيح العلاقة المختلة بين العرب والولايات المتحدة الأمريكية بحيث أصبحت أكثر ايجابية وأقل عداء، وتقوم على منطق المصالح المتبادلة. وفى مجال الاقتصاد بدأت حقبة الانفتاح الاقتصادي وفتح الباب أمام القطاع الخاص للإسهام في عملية التنمية حتى وصلنا الآن الى مرحلة الخصخصة التي يراد منها تصفية القطاع العام نهائيا، وترك التفاعلات الإقتصادية لقوى السوق المتوحشة، بغض النظر عن

1 ـ سليمان يوحنا، موقع الحوار المتمدن،"العولمة وتطورات العالم المعاصر، الانهيار الوشيك للنظام الاقتصادي / المالي العالمي...؟! ما هي الخيارات..؟".

http://www.ahewar.org/m.asp?i=5346

الثمن السياسى والاجتماعى الباهظ الذي قد يتعين دفعه، لو تركت هذه الموجة العنيفة تأخذ مداها بتأثير توصيات البنك الدولي. غير أنه يمكن القول أنه في المجال السياسى حدث تطور جزئي يتمثل في الانتقال من السلطوية، بمختلف أشكالها، الى نوع من أنواع التعددية السياسية المقيدة. أما في مجال العلاقات العربية العربية فلعل أهم تطور حدث هو نشوء مجلس التعاون العربي الذي ضم العراق ومصر والاردن واليمن، وقيام الاتحاد المغاربى بالاضافة إلى مجلس التعاون الخليجي، وبدأت مسيرة التفاعل الوظيفي بين النظم العربية إلى أن بدأت كارثة الخليج. وبانتهاء الحرب كان كل النظام العربي فى حالة تشرذم لا سابقة لها. ومن هنا يصدق القول أن حرب الخليج كانت أشبه بنهاية عهد عربي وبداية نظام عربي جديد. ويمكن القول إنه في خضم كل هذه التحولات، لم تلحق العلاقة بين الفرد والدولة من ناحية، وبين المجتمع المدني والدولة من ناحية أخرى سوى تغيرات طفيفة، فمازال القهر هو السمة الغالبة، ومازال الفرد يناضل حتى يصل إلى مشارف حقوق الانسان، والمجتمع المدنى يحارب حتى يحصل على حقه في الاستقلال النسبى عن جهاز الدولة المسيطر[1].

توصيفنا لهذه الصراعات الثقافية يشير ضمنا الى أنها تقع داخل إطار نظام ثقافي عربي يموج بالقيم الثقافية المختلفة التى نبعت من مصادر شتى تراثية وغربية. وهذه القيم دار بينها عبر السنوات الممتدة منذ بداية النهضة العربية الحديثة تفاعلات معقدة وصيغت في ضوئها حلول متعددة حاولت التصدي لمختلف مشكلات تطور المجتمع العربي، أخفق بعضها ونجح بعضها الآخر. وهذه الحلول حاولت ان تواجه مشكلات مختلفة في طبيعتها، منها السياسى والاقتصادي والثقافي. فى المجال السياسي برزت قضية كيف يمكن

1 ـ المصدر نفسه.

تحقيق الاستقلال الوطني والتحرر من الهيمنة الاجنبية؟ هل بالكفاح المسلح أم بالتفاوض؟ وفي فترة تالية اثيرت قضية الوحدة العربية سبيلاً للنهوض العربى فى مواجهة التجزئة الاقليمية. وفي المجال الاقتصادي أثيرت قضية الايديولوجية الحاكمة وهل تكون هي الرأسمالية بصورها المتعددة أم الاشتراكية بألوان طيفها الكثيرة التى تبدأ بالماركسية المنغلقة وتصل الى ما أطلق عليه الاشتراكية العربية التى تفتقر الى الحدود والضوابط. وفي المجال الثقافي برزت قضية الهوية، ودار الصراع بين التوجه الاسلامي والتوجه العروبي من ناحية، وبين أنصار الاصالة ودعاة المعاصرة من ناحية أخرى.

غير أن كل هذه الصراعات الثقافية كانت تدور في اطار مجال واحد تحكم التفاعلات فيه مجموعة متناسقة من القواعد المنهجية والتي يمكن في ضوئها تحديد نتيجة التفاعلات، والحكم بنجاح أو فشل الحلول السياسية والاقتصادية والثقافية التي قدمتها عبر السنوات الممتدة نخب سياسية واقتصادية وثقافية شتى تختلف اختلافات واسعة في التوجهات وفي أساليب العمل[1].

ب ـ موت النظام الثقافي العربي؟

غير أننا نواجه اليوم بسؤال جديد لم يسبق طرحه بهذا الوضوح من قبل. ولا يتعلق السؤال بمشكلة من المشكلات التي درجنا على مناقشتها داخل النظام الثقافي العربى السائد، بل بمقولة أساسية تذهب الى النظام الثقافي العربي الراهن قد مات، وأننا بصدد ولادة نظام ثقافي عربي جديد، له سمات فارقة تميزه عن النظام الثقافي العربي القديم.

سقط النظام الثقافي العربي القديم فى يوم مشهود، فلم يسجل وفاته أحد، وكان ذلك النظام قد ولد فى ظروف معروفة، فلم يتبرع أحد بالتعرف عليه الى أن شب

1 ـ المصدر نفسه.

واكتهل. لقد ولد النظام الثقافي العربي القديم مع قدوم حملة نابليون الى الشرق، وتوضحت ملامحه في عصر التنوير، وبلغ أوج عنفوانه في مرحلة الصراع لأجل الاستقلال، ثم بدأت بوادر الانهاك تظهر عليه منذ الاربعينات والخمسينات بكل ما حملته تلك الحقبتان من تغيرات اجتماعية وسياسية ضخمة كانت أكبر من قدرته على الاستيعاب والاستجابة بكل المقاييس، ولولا انتفاضة الروح الاخيرة التي مثلها جيل الستينات لما استطاعت التطورات الملاحقة أن تطيل عمر ذلك النظام[1]."

وقد كان موت النظام الثقافي العربي بطيئاً، ومريراً، ومتعباً، فقد دخل مرحلة النزع النهائي مع هزيمة يونيو (حزيران 1967)، وظل منذ ذلك الوقت يناور، ويتحايل مثل أي شيخ متعجرف يأبى أن يودع الدنيا، ويعترف لورثته بأنه على شفا الإفلاس لقناعته بأن ما يمر به ليس مرض النهاية، ولكنه ازمة صحية طارئة سرعان ما يتجاوزها".

وكان من الممكن أن يطول أمد الاحتضار لولا ان رصاصة الرحمة أتت للنظام الثقافي العربي القديم الذي عاش اقل من قرنين ببضع سنوات. وكان يستطيع ان يحتفل لو امتد به العمر الى عام 1998 بمئويته الثانية.

"وقبل ان يعترض معترض على وفاة هذا النظام بالاشارة الى بعض رموزه ومقولاته التي ما تزال تتحرك مرة هنا وأخرى هناك لا بد من التأكيد على أن الأجيال الثقافية والانظمة الثقافية أيضا لا تظهر فجأة، أو تختفي كلية كما يفعل البشر. انما تأتي وتذهب على مراحل، بحيث لا تترك أمام متابعيها وصانعيها الا اعتماد التواريخ التقريبية لظهورها وإختفائها"[2].

من الواضح أن المقولة الرئيسية التى يصدر عنها الاستاذ اللاذقاني تثير مشكلات نظرية ومنهجية وتطبيقية متعددة، تحتاج الى عشرات الدراسات لمواجهتها. وهذه

---

1 ـ سليمان يوحنا، "العولمة وتطورات العالم المعاصر، الانهيار الوشيك للنظام الاقتصادي / المالي العالمي؟! ما هي الخيارات..؟" م. س.

2 ـ نفسه

الدراسات لا بد أن تتسلح بالمناهج العلمية التي بلورها علم اجتماع المعرفة وتاريخ الافكار، بالاضافة الى الالمام الدقيق بتاريخ ولادة النظام الثقافي العربي، وبالظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت به، بالاضافة الى تطوره عبر المراحل المختلفة، ونوعية القضايا التى أثارها المثقفون العرب في كل مرحلة[1].

والاختلافات بدأت فيما يتعلق بالتاريخ لنشأة النظام الثقافي العربي الحديث، والتي تناقش عادة تحت عنوان متى بدأ التحديث في الوطن العربى؟

ذلك أنه سادت لفترة طويله من الزمن الفكرة الاستشراقية والتي مؤداها أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون وكل ما حملته معها من أفكار ومفاهيم، وتكنولوجيا، ومظاهر للتقدم، هي بداية تحديث المجتمع العربي.

كيف نستطيع أن نقيم المقولة الرئيسية التي ذهبت الى أن النظام الثقافي العربي القديم الذى ولد من خلال الصدام بين الحملة الفرنسية والمجتمع المصري قد انتهى مع كارثة حرب الخليج؟

لعل أفضل وسيلة منهجية لذلك، أن نطبق نظرية ذائعة عن التقدم فى العلوم الطبيعية صاغها فيلسوف العلم الأمريكي المشهور توماس كون في كتاب "بنية الثورات العلمية" [2].

هذه النظرية ببساطة تذهب الى أنه في لحظة تاريخية ما يسود الاجماع بين أعضاء المجتمع العلمي على نموذج أساسى في ضوئه تتم صياغة المشكلات البحثية وتتحدد طرق بحثها وحلها. وبذلك يتم استبعاد بعض المشكلات من برامج البحث العلمي، أو تستبعد بعض المناهج باعتبار أنها غير جديرة بالتطبيق. غير أن هذا النموذج الأساسي (وهى ترجمتنا لمصطلح بارادايم بالانجليزية) تتآكل قدرته عبر الزمن على مواجهة المشكلات فيسقط، وتنشأ أزمة يشتد فيها الصراع بين نماذج أساسية

---

1 ـ المصدر نفسه.

2 - راجع: توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفةعدد 168، الكويت 1992.

متعددة، الى أن ينشأ نموذج أساسي مسيطر يحتل الساحة ويتم تبنيه من قبل أعضاء المجتمع العلمي. فكأن دورة التقدم العلمي تتلخص في قيام وسقوط النماذج العلمية.

في ضوء ذلك يمكن أن نفهم مقولة موت النظام العربي القديم. وهي تعني أن المشكلات التي كان يواجهها هذا النظام وطرق حلها، والفاعلين الأساسيين من المثقفين وصناع السياسة قد تغيرت أوضاعهم واتجاهاتهم، وأننا بصدد خلق نظام ثقافي عربي جديد، له أجندة بحث مختلفة عما سبق، كما أن أبطاله هم مثقفون وسياسيون من نوع مختلف عن أبطال النظام الثقافي العربي القديم. واذا قبلنا هذه المقولة فالسؤال الرئيسى هو ما هي سمات هذا النظام الثقافي العربي الجديد؟

لا نبالغ اذا قلنا أننا نستطيع أن نرصد سمات رئيسية جديدة فيها انقطاع كامل أو نسبي - حسب الظروف - مع ممارسات النظام الثقافي العربي القديم. بعبارة أخرى نحن نشهد خلق رؤية جديدة للعالم لم تكن موجودة من قبل بهذا الوضوح والتحدد، ليس ذلك فقط، بل هي في طريقها من خلال صراعات شتى بين القديم والجديد- الى أن تكون هي رؤية العالم السائدة، وما عداها مجرد رؤى هامشية.

ولعل السمة الأولى هي تبني نظرة جديدة للعلاقة مع العالم. ونعني بذلك على وجه التحديد أنه سادت فى الخمسينيات والستينيات وتحت تأثير الخطاب الثوري الملتهب، وكرد فعل للخضوع للاجنبي والمستعمر في عصور الاستعمار، نبرة تدعو لتحقيق الاستقلال الوطني، والحفاظ على حرية إصدار القرار، وتبني سياسات وطنية أو قوميه، حتى لو أدى ذلك الى المعاداة المطلقة أو النسبية لبعض أركان النظام العالمي كالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي السابق. بعبارة أخرى السياق التاريخي لمناخ الخمسينيات والستينيات هو الذى سمح بظهور قيادات "عالمثالثية" أنتجت خطاباً سياسياً لتعبئة الجماهير في معارك الاستقلال والتنمية، أدى نتيجة لصراع القوى غير المتكافى إلى إنزال عقوبات

سياسية واقتصادية من قبل الدول العظمى المهيمنة ضد بعض بلاد العالم الثالث، مثل سحب عرض تمويل السد العالي من قبل الولايات المتحدة الأمريكية لعقاب مصر على سياساتها التحررية، أو حالة الحصار الأمريكي لكوبا.

القيم التي سادت النظام الثقافي العربي القديم كانت تدفع لصياغة العلاقات مع النظام العالمي بصورة محددة تحت تاثير الرغبة العارمة لتأكيد الذات في مواجهة الآخر، أحيانا بدون وضع حسابات المصالح بشكل مدروس. وفي الحالات المتطرفة كانت بعض النظم تستهين بتقطيع الروابط بينها وبين بعض أركان النظام العالمى على أساس قدرتها على أن تواصل مسيرة التنمية بغير علاقات وثيقة معها، وهو العهد الذى ذاعت فيه نظرية التبعية والتي حاولت تشخيص العلاقة بين دول المركز ودول الأطراف على أساس استغلال الأولى للثانية، ومحاولتها فرض هيمنتها عليها. ومن ثم أصبحت منطلقات أي سياسة وطنية هي القضاء على التبعية ومحاربة الهيمنة السياسية والاقتصادية بكل الوسائل الممكنة.

مضى ذلك العهد، وخابت غالبية ثورات العالم الثالث، ليس بتأثير القوى العالمية المهيمنة فقط، ولكن نتيجة لازمة سلطوية النخب السياسية الحاكمة، وعدم ديمقراطيتها، وحصارها لدائرة المشاركة السياسية ولفسادها الفاضح[1].

هنا يمكن القول أن من ملامح النظام الثقافي العربي الجديد، سواء قبلنا ذلك أو رفضناه - التخلي عن الخطاب القديم، وقبول مقولات الاعتماد المتبادل بين الدول والشعوب، وما يترتب عن ذلك من صياغة سياسات خارجية تميل الى التعاون بدلاً من الصراع، بالاضافة الى الإدراك المتزايد لدى النخب السياسية الى أن الكونية بصورها المتعددة السياسية والاقتصادية أصبحت حقيقة من حقائق العالم المعاصر[2].

---

1 ـ سليمان يوحنا ، العولمة وتطورات العالم المعاصر. م. س.

2 ـ نفسه.

وعلى ذلك فمن ملامح النظام الثقافي العربي الجديد التي يسعى الى أن تترسخ ويسود، تبنّي نظرية ديمقراطية في مجالات التعاون العربي، تؤمن بشرعية النظم السياسية الراهنة، ولا تحاول تغييرها بالقوة المسلحة، لأن شرعية أي نظام سياسي هي مسألة داخلية يقررها شعب كل بلد عربي بطريقته. وليس فى هذه النظرة مصادرة على التطوير الديمقراطى الحقيقي للنظم العربية. فقد ثبت أن موضوع الشرعية السياسية للنظم العربية لا يحسمه تصنيف النظم العربية الى ملكية وجمهورية. فكثير من النظم الجمهورية تفتقر فعلاً الى الشرعية السياسية لو طبقنا معاييرها بدقة، كما أن بعض النظم الملكية تتمتع بشرعية تاريخية لا شك فيها. واذا أضفنا الى ذلك أن شرعية بعض النظم السياسية التي تقوم على الثورة أصبح مشكوكا فيها، بعدما ثبت أنه فى ضوء هذا الشعار مورست أبشع صور القهر ضد الجماهير، لأدركنا أن منظور النظام الثقافي العربي الجديد أصبح أكثر نقدية وواقعية من منظور النظام الثقافي العربي القديم، والذي كان يتشيع لبعض النظم على حساب نظم أخرى لمجرد رفعها لافتة ما قد تكون دينية أو عقائدية.

وهكذا يمكن القول أن النظرة الى العالم والنظرة الى الذات القومية تغيرت فى اطار النظام الثقافي العربي الجديد. ولا ينبغي أن يفهم من لفظ الجديد هنا الانقطاع التام عن ممارسات النظام القديم، ذلك أن الجدل التاريخي من شأنه أن يجعل مسألة الصراع بين القديم والجديد عملية مستمرة، الى أن يصبح الجديد هو النموذج السائد وليس هذان المجالان فقط هما موضوع الصراع، بل تضاف إليهما مجالات متعددة أخرى أهمها العلاقة مع اسرائيل، بالاضافة الى كل العلاقات المتشابكة بين السلطة والنخبة والجماهير.

وخلاصة ما نريد تأكيده، أن تغير النظم الثقافية فى المجتمعات الإنسانية مسألة معروفة. غير أن الخلاف يبدو في الأسباب التي تقدم تفسيراً لهذه التغيرات. وهناك صراع بين تفسيرات تقليدية، ذلك أن بعض الباحثين يركز على العوامل المادية

التي تتعلق بتغير البنية التحتية في المجتمع، بما يتضمنه من أنماط وعلاقات الانتاج. والأخرون يركزون على خطورة تاثير العوامل المعنوية المتعلقة بالقيم والمفاهيم القانونية والفلسفية والدينية. غير أنه بالنسبة لنا في العالم الثالث، تضاف الى هذه التفسيرات إشكالية تأثير العوامل الخارجية الممثلة في الاستعمار أو هيمنة القوى العظمى أو تأثيراتها الثقافية على مسيرة التطور في هذه البلاد.

إن كل هذه التفسيرات يمكن الاستعانة بها لفهم الملامح الأساسية للنظام الثقافى العربي الجديد والذي لم تكتمل ملامحه النهائية بعد[1].

ج- سمات النظام الثقافى العربى الجديد

أن أبرز سمة للنظام الثقافى العربى الجديد هي تخلصه من ثنائيات اليمين واليسار، ومن علاقات التبعية الفكرية شرقاً وغرباً، لأن الاتحاد السوفياتي سقط ولم يعد يشكل مرجعية دائمة وثابته لليسار، وفي نفس الوقت لم تعد للمرجعيات الفكرية الغربية نفس سطوتها القديمة التي كانت تضعها فوق النقد. إنتهى التأثير الغلاب لمفكرين من نوع جان بول سارتر وغيره، إن أكبر مثال على نمو الاستقلالية أن مقولات فرانسيس فوكوياما عن نهاية التاريخ لم تجد من يشتريها فى العالم العربى[2] والواقع أن سقوط الثنائية الجامدة لليمين واليسار قد لا تكون ملمحاً للنظام الثقافي العربي الجديد فقط، بقدر كونها أيضا ملمحاً من ملامح النظام الثقافي الكوني.

ذلك أنه لم يكن ممكناً للأنساق الفكرية المغلقة كالماركسية الجامدة والليبرالية المنغلقة أن تعيش وتواصل حياتها العادية في عالم سقط فيه الاتحاد السوفياتي

---

1 ـ السيد ياسين، "النظام الثقافي العربي الجديد"، م.س..

2 ـ نفسه.

وانتهت الحرب الباردة، وحدثت تحولات هائلة فى بنية النظم السياسية، وفى بيئة العلاقات الدولية.

نحن نعيش فى عصر تثار فيه التساولات الحادة حول منطق اليمين، ومنطق اليسار. بل إن تعريف اليمين ذاته واليسار أيضاً يعاد النظر فيه بشكل غير مسبوق. ويكفى أن سمة الراديكالية التي كانت لصيقة تقليديا باليسار، أصبحت بعد تقهقر هذا الأخير واتخاذه مواقف دفاعية، احدى السمات البارزة لليمين لكونه هو الذي يقود حملة التغيير المجتمعي والسياسي فى الوقت الراهن، من خلال خطاب سياسي يستفيد فيه من أفكار اليسار الرئيسية.

ولعل الشاهد على صدق هذه الملاحظة، أن جاك شيراك Chiraq المرشح اليميني في انتخابات رئاسة الجمهورية الفرنسية إستطاع من خلال تبني خطاب سياسي عصري أن يؤلف بين أفكار اليمين وأفكار اليسار، مما جعل قطاعات يسارية عديدة تنجذب إليه. فقد حفل خطابه بأفكار ومقترحات تدور حول تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية، وإتاحة الفرصة للشباب، وحل مشكلة البطالة، ورفع مستوى الاجور، وتحسين الخدمات الصحية والاجتماعية، وتصحيح الخلل في معادلة توزيع الدخل. وقد كان نجاح شيراك فى جذب الجماهير إليه ساحقا لدرجة أن جوسبان Jospin المرشح اليساري صاح شاكياً: لقد سرق شيراك خطابي الاجتماعي. وكأن لسان حاله يقوله: ماذا أقول للجماهير بعد أن قال جاك شيراك كل شئ[1]. وفي تقديرنا أن سقوط المرجعيات الفكرية الجامدة يسارية كانت أو يمينية احدى ملامح النظام الثقافي الكوني البازغ. فلم تعد المصداقية للفكرة تمنح لها آلياً بحكم استنادها إلى مرجعية ما مقدسة، بقدر ما هي نتيجة لاختبارها المبدئي على مقياس تحقيقها للنفع العام الذي يعود على الجماهير العريضة بفوائد

---

1 ـ طاهر رضوان، "الوحدة العربية بين الامل والواقعية"، مجلة شؤون عربية، عدد13، مارس 1982، ص. 21

ملموسة، وعلى محك امكانية التطبيق العملي.

وليس معنى ذلك أن هذا التيار أصبح تياراً غالباً، فما زال الصراع مشتعلاً في الوطن العربي بين اليمين واليسار، ومازال الجدل العقيم يدور بين الحلقات الجامدة فى كل من دوائر اليمين واليسار. ولكن ما نريد أن نخلص اليه أن هناك مساحة جديدة بدأت تبسط رواقها على الفضاء الفكري العربي تتفاعل فيها الافكار بحرية كاملة، وبغض النظر عن مراجعها المبدئية، أو مصادرها الايديولوجية. ويحكم مسارات التفاعل منطق جديد، يحاول أن يطبق المنهجية الكونية الجديدة، التي لا تضع أي قيود على بزوغ أي فكرة اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية مهما بلغ شططها. فقد انتهى عهد مصادرة الأفكار، وانقضى زمن وأد الأجنة، فنحن نعيش كونياً في عهد ثورة الاتصال ومجتمع المعلومات العالمي، ونحن نحيا، عربياً، فى عصر الانتقال من اطار السلطوية الغاشمة إلى آفاق الليبرالية المفتوحة[1].

---

1 ـ المصدر نفسه.

IV- دور السياسة الاتصاليّة في بناء ثقافة المشاركة

1- الاعلام العربي والأمل الجديد

2- نظرة الى مضمون الاعلام العربي

3- إشكاليات واتجاهات الإعلام الالكتروني في الوطن العربي

4 - سياسات الاعلام والاتصال في الوطن العربي

5- إشكاليات التكوين المهني في الإعلام والاتصال

6 - دور السياسة الاتصاليّة في بناء ثقافة المشاركة

تمهيد:

لم يعد من الممكن تجاهل الإشكاليات والتحديات التي تفرزها تكنولوجيا الاتصال والإعلام في الوطن العربي على صعيد النظرية والممارسة، وما يترتب عنها من ضرورة بلورة منظور جديد للاتصال يأخذ بالاعتبار حقيقة أنّ اندماج عمليات الاتصال وتدفق المعلومات في فضاء كوني واحد، يعود إليهما الدور الحاسم في نشوء مجموعة معقدة من التحولات النوعية، وفي مقدمتها التحول من الإعلام إلى الاتصال، ومن العُزلة إلى الاندماج، ومن سيطرة المرسل إلى خيارات المتلقي.

لذلك يأخذ موضوع السياسة الاتصاليّة أهمية خاصة لدور هذا المجال في اعطاء هوية للمجتمع، وتبعاً لذلك، لاستتباب الديمقراطية فيه. ويطرح موضوع التكوين بالحاح على المهن الاتصالية برمتها، أي بكل ما يعترضها من مشاكل ومعوقات، ويطرح بالحاح في الوطن العربي الذي ما زال يتلمس طريقه نحو النضج السياسي والثقافي والاقتصادي. ويقترن الموضوع من جهة أخرى بقصور التعريف القانوني للصحفي المهني الذي لا يستند، بوجه رئيسي، إلاّ الى معايير ضمان العيش من المهنة، أو الحصول على البطاقة المهنية أو دبلوم معترف به، مع إغفال جملة من المعايير الأخرى، من أهمها القدرة على التأقلم مع الواقع التكنولوجي الحديث والمقبل، وعلى احترام المعايير الأخلاقية اللّازمة لمهن الاعلام والاتصال.

1- الإعلام العربي والأمل الجديد

أ-أنماط الإعلام العربي

اذا أردنا أن نرصد مستقبل الإعلام العربي، لا بد أن نلحظ أنّ لهذا الإعلام أنماطا متعدّدة ومتداخلة، على النحو التالي[1]:

- النمط الرسمي: وهو الإعلام الذي تموّله وتشرف عليه الدول، وهو أقدم أنماط الإعلام، ويعكس حال السياسة الرسمية، لذلك ففي التجربة العربية هو إعلام سلطوي، تحدّد السلطة خطابه وموضوعاته وتوجهّاته. وهو أحادي : يغيّب الآخر، وهو رسمي، لا علاقة له بالمجتمع وتطلّعاته. وعن هذا الإعلام تغيب الشفافية، ويتصف المضمون بالجمود والتخلّف عن ركب التطوّرات التقنية والاجتماعية، ومهمته المحافظة على الوضع الراهن والحجر على العقول، والتستّر على الفساد. وقد كان له دور في الماضي في إحتكار الساحة، وراح هذا الدور يضعف بظهور الأنماط الأخرى للإعلام.

- الإعلام الخاص: الذي يعتمد على توجهات المالكين وسياستهم. ورغم تقدّمه على الإعلام الرسمي، فإنّه أيضاً أسير للسياسات الحكومية، كما أنّ معظم مالكيه من رجال السلطة أو المرتبطين بهم، وغالباً ما يكون هدف هذا النمط الكسب القائم على نشر ثقافة الاستهلاك. ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعترف بان بعض أجهزة الإعلام الخاص قد شكّل خرقاً للاعلام الرسمي، بتوافر قدر من الشفافية

1 - راجع: مي العبدالله، التلفزيون في عالم متغير، دار النهضة العربية، بيروت 2004.

والموضوعية وإثارة قضايا جادة. وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الإعلام المهاجر، مكتوباً ومرئياً ومسموعاً وتقنياً.

الإعلام الاجنبي الناطق بالعربية: وهو نمط قديم، ولكنه أخذ يتسع، وبالذات مع إنتشار القنوات الفضائية وشبكات المعلومات وإنتشار اللغات الأجنبية. ويتمتع هذا الإعلام بهامش كبير من الحريّة والتقدّم التقني[1].

ب- ضعف المضمون الاعلامي

القنوات الفضائية هي أبرز معالم الإعلام الحديث وأكثرها تأثيراً. وبدأت تشق طريقها الى الإعلام العربي وتعزّز مكانتها منذ التسعينات، وأصبحت ظاهرة جديرة بالإهتمام والدراسة. ويدخل معظم هذه القنوات في إطار التجارة ومتطلّباتها، فيغلب عليها الترفيه. ورغم قلّة المحطّات الجادة من قنوات إخبارية وبرامجية ووثائقية، إلاّ انّها إحتلت مكانة مؤثّرة سياسياً وإجتماعياً وإقتصادياً، وأصبح لها تأثيرها في الوعي، وفي تشكيل التوجهات، وفي تغطية القضايا الحيوية في العالم العربي، بل إنّ بعض المحطات الفضائية العربية سجلّت حضوراً في الاحداث وخلقت معادلة جديدة. إذ أصبح لهذه القنوات إستقلالية في مصادرها الإخبارية، وأصبح بعض هذه القنوات يقف عل مستوى متكافىء مع القنوات الأجنبية العريقة. بل إنها في أحداث معينة، كالإنتفاضة الفلسطينية، ومحنة العراق، وحرب أفغانستان، وحرب تموز2006 في لبنان، وحرب غزة 2008 قد شكّلت منافساً ومصدراً للمحطّات الأجنبية[2].

---

1 ـ أنظر: مي العبدالله، ’’الاعلام العربي في العدوان على غزة‘‘، جريدة البيان، طرابلس 2 شباط 2009.

2 ـ نفسه.

ومن المؤكد أن انفتاح قنوات الاتصال في ظل العولمة والتطوّرات التقنية من أقمار واطباق وهواتف نقّالة، وإزدياد هامش الحريّة بحكم التطوّرات السياسية، واخيراً الإمكانات المالية وإزدياد الطلب على هذه المحطات، كل ذلك شكّل العوامل الأساسية في بروز ظاهرة القنوات الفضائية[1]. فالإعلام الفضائي يشهد تطوّراً مستمراً، مما يجعل منه ظاهرة بارزة للثورة المعلوماتية، تتمثّل في التفاعل بين القنوات ومشاهديها.

ونستطيع أن نقول إنّ التطوّر التكنولوجي قطع شوطاً كبيراً في الشكل والمضمون، وإن كان المضمون لا يسير بسرعة الشكل. ثم إنّ هذه القنوات، وبحكم إنتشارها ورغبتها في التفوّق وكسب المشاهد، وتعدّد مصادر ملكيتها من خاصة واجنبية، فرضت واقعاً على الإعلام الرّسمي، بتوسيع هامش حريّة التعبير وإضعاف سيطرة الدولة بتهميش إعلامها الرّسمي.

ولكن هذا الأمر ينطبق على عدد محدود من القنوات الفضائية العربية، إذ ما زالت الرقابة سيدة الموقف، من مالكي القناة ومن مصدر بثّها، أو رقابة ذاتيّة برسم خطوط حمراء تخشى القناة عواقب تخطّيها. ومن المؤكّد ان سيطرة رأس المال المشارك في القناة يلعب دوراً كبيراً في هذا المجال.

من جهة ثانية، إنّ ازدياد القنوات والتطوّرات الشكلي لا يسير في خط متوازن مع إنتاج برامج ومواد تتعامل مع الواقع العربي، مما يخلق نسيجاً غير متناغم مع الواقع وثقافته وتطلّعاته، وكان لبعض المحطات دور أساسي في تسليط الأضواء على القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في الوطن العربي.

---

1 ـ أنظر: مي العبدالله، ''العرب في مواجهة تطور تكنلوجيا الاعلام و الاتصال''، في العرب و الاعلام الفضائي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004.

قد شهدت الساحة الإعلامية حوارات قادت الى الإستعداد لقبول الرأي والرأي الآخر مما يبعث الامل في تعايش التيارات المختلفة في جو ديموقراطي قائم على الاحترام المتبادل والتعدّدية، وأن كل ذلك قد أتاح إمكانية قراءة التوجّهات، وكسر قدرة الحكومات على إحتكار المعلومات، وأتاح مجال أكبر للشفافية والجرأة غير المتاحة في وسائل الإعلام الأخرى.

وعلى الرغم من قلّة القنوات الجادّة مقارنة بالقنوات الأخرى، غير انّ هذه القنوات إستطاعت أن تعيد ترتيب أجندة الوسائل الاعلامية الاخرى، العربية او غير العربية. وتوالدت قنوات جديدة، متيحة تنافساً اكبر وتسابقاً على كسب المشاهد. وراحت هذه القنوات تخرج عن دوائر التأثير الحكومي، وأصبحت متنفّساً للمشاهد العربي، مؤثرة ومتأثّرة بمواقفه، واصبح ظهور هذا المواطن بجرأة غير مسبوقة ملحوظاً، للحديث عن مواضيع كانت من المحرّمات. وزاد الوعي بحقوق الانسان وإرتفع صوته في الدفاع عنها، مما وسّع الفجوة بين الحكومات والشعوب[1].

رغم ذلك، لا يحتوي مضمون الاتصال في الوطن العربي، في الغالب، على ما يحتاجه الجمهور، او على ما يمكن أن يساعد في تكوين شخصية الإنسان الواعي بمشكلاته وقضاياه، او قضايا وطنه، إلاّ في حالات إستثنائية ترى فيها قيادة النظم الاتصالية أن من مصلحة النظام إطلاع المواطن على قضاياه أو حثّه على المشاركة فيها. وثمة تجاهل أو عدم إهتمام بالإحتياجات الأساسية لفئات كثيرة من المواطنين. وهناك الطرح الأحادي البعد للمسائل الحيوية في السياسات القطرية، الذي لا يعبر في بعض الأحيان عن الواقع.

1 ـ المرجع نفسه.

وتشكل أنماط الرقابة على مضمون الاتصال قضية جدلية في الفكر الاتصالي بصفة عامة. فعلى الرغم من الاقرار بضرورتها في ما يخص الأمن القطري والقومي، والمسائل الدينية والأخلاقية وما شابههما، فإن البعض يعتبرها مناقضة بكل أشكالها لنص المادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الخاصّة بحريّة الرأي[1]. وينظر إليها البعض إستناداً الى تطورها التاريخي في بريطانيا على أنها ظاهرة تاريخية متطورة [2].

ج-الاعلام الالكتروني والأمل الجديد

فرض الإعلام الإلكتروني واقعاً إعلاميا جديدا بكل المقاييس، حيث انتقل بالإعلام إلى مستوى السيادة المطلقة من حيث الانتشار، واختراق كافة الحواجز المكانية والزمنية والتنوع اللامتناهي في الرسائل الإعلامية والمحتوى الإعلامي، لما يملكه من قدرات ومقومات الوصول والنفاذ للجميع، ولامتداده الواسع بتقنياته وأدواته واستخداماته وتطبيقاته المتنوعة، على الفضاء الإلكتروني المترامي الأطراف بلا حدود أو حواجز أو فوارق.

وأسهمت شبكة الإنترنت في إضافة البعد الاتصالي للعمل الإعلامي من خلال ما تتوافر عليه من عناصر للمرئي و المسموع، ووسائل تفاعلية أدّت إلى تحوّل معظم وسائل الإعلام التقليدية من إذاعات ومحطات تلفاز وصحف ومجلات، إلى وسائل ألكترونية .

وتتفق الدراسات على أن حضور الإعلام العربي على شبكة الإنترنت لا يتماثل

---

1 ـ جان يوركوين، ”وسائل الاتصال لاجماهيري وحرية الرأي“، الحلقة النقاشية حول وسائل الاتصال والتفاهم الدولي، جامعة ليوبلبانا، كلية الصحافة والعلوم السياسية، يوغسلافيا، الهيئة العامة للإستعلامات، القاهرة 1969، ص 420.

2 - Antony Smith,” Technology and Control: The Interactive Dimensions of Journalism”, in: James Curran (et al) eds. Mass communication and society, Edward Arnold Publishers, London 1977, p.174.

مع النمو الهائل للمواقع الإعلامية الإلكترونية عالميا، خاصة فيما يتعلق بأعداد المواقع العربية نسبة لعدد سكان الوطن العربي.

وتشير الدراسات إلى تواضع نسبة عدد مستخدمي الإنترنت العرب قياساً إلى العدد الإجمالي للسكان في الوطن العربي، وإلى وجود ضعف في البنية الأساسية لشبكات الاتصالات إضافة إلى بعض العوائق الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبالتالي التأخر بالاستفادة من خدمات شبكة الإنترنت، ما أثر بشكل رئيسي على سوق الاعلام الإلكتروني.

ومن المؤكد أن التوجيه المبرمج لضبط الرأي في العالم العربي قد فلت عقاله. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنّ الدول العربية للأسف ليست مستوعبة تماماً لمتطلّبات التطوّر، بل تحاول تطويقه والالتفاف عليه، وتتصرف بمعزل عن درجة الوعي والشفافية التي فرضتها أنماط الإعلام، مما خلق حالة من الإرباك وتوسيع الهوّة بين الحكومات والشعوب أفسحت المجال للتطرّف واليأس.

ولذا، فمن الأهمية بمكان ان ندرك هذه الحقيقة، وأن تسير الإصلاحات في خطى متوازنة ومتواكبة مع التطوّر التقني والثقافي والاجتماعي، ومع درجة الوعي التي قادت الى هذا التطوّر.

5-اشكاليات التكوين المهني في الاعلام والاتصال[1]

أ- أهمية التكوين المهني

ربّما يكون الضعف في تكوين الصحافيّين العاملين في المؤسسات الإعلامية أحد الأسباب الرئيسة التي تعيق تطوّر جسم اعلامي كفؤ ومسؤول. و بالتالي، نظراً الى أهميّة تدريب الإعلاميين على تغطية مواضيع متخصّصة في الاقتصاد والاعمال او السياسة، او ببساطة إدخال تنوّع بمعناه الواسع في عملهم الإخباريّ، يبقى التكوين المهني في الوطن العربي بصورة عامّة غير كاف الى حدّ كبير. ويشكّل النقص في التمويل أحد الأسباب الرئيسه لضعف التكوين.

ويتمثّل العامل الآخر في عدم إهتمام مدراء وسائل الإعلام بمثل هذا التكوين لأنّهم لا يرون ضرورة لتوفير تأهيل متواصل لموظّفيهم، أو أنّهم غير راضين عن نوعية التكوين الموفّر للإعلاميّين المحترفين. وأخيراً عندما يتمّ التغلّب على هاتين المشكلتين من طريق توفير التمويل والخبرة لورش عمل من جانب وكالات ومنظّمات اجنبيّة، تواجه الإعلاميين مشكلة عدم القدرة على تطبيق ما تعلّموه.

للإعلام في الوطن العربي دور رئيسي في مواجهة الآفات الفكرية التي تعاني منها مجتمعاتنا اليوم. غير أنّ القيام بهذا الدور يتطلب تطوير قدرات مؤسسية تضمن فاعلية أدائها ونجاحها، ووضع مرجعيات اخلاقية تحدد المواضيع التي

---

1 - راجع: مي العبدالله، علوم الاعلام والاتصال واشكاليات التكوين المهني، دار النهضة العربية، بيروت 2012.

يمكن التعامل معها من باب حرية الرأي. اما فيما يتعلق بتطوير القدرات المهنية فإنّ التحدي الأكبر يتمثّل بتطوير الإعلام لأدوات يستطيع من خلالها أن يقوم بدوره مبلغاً ومحللاً.

نحن مقتنعون أن تغيير القيم المجتمعية يأتي بالحوار والإقناع، وتبادل الأفكار في بيئة حرة. فمن ناحية يكون الإعلام تعددياً إذا أراد أن يكون مؤثراً، ولا بد له أيضاً أن يوفر منبراً للحوار العقلاني المستنير، الذي يخلق حراكاً مجتمعياً معمقاً، قوامه التعددية لا الأحادية، والاقناع لا الإملاء.

وعلى الإعلام أيضاً تطوير قدراته المهنية باستمرار، والاستثمار في طاقاته البشرية، بهدف تمكينها من مهارات الوصول الى المعلومة وعرضها وتحليلها بموضوعية الى القارىء والمشاهد. فكما أن الصورة أقوى اليوم من أي كلمة، فإنّ المعلومة هي أكثر تأثيراً من أي رأي.

ويزيد التكوين من إمكانية توفير حل لفجوة المهارات من خلال البرامج التي تقدم التدريب العملي والتعليم المرتبط بالعمل. وفي الوقت الحالي هناك حاجة للتفاعل والتعاون بين المؤسسات الاكاديمية الإعلامية والمؤسسات العاملة في القطاع الإعلامي، إذ تحتاج مؤسسات التعليم الإعلامي الى إعداد خريجين متميزين لديهم القدرة على مواجهة متطلبات السوق لدعم قوة العمل في القطاع الإعلامي، كما تتحمل المؤسسات العاملة في القطاع الإعلامي مسؤولية تحديد وإيضاح المهارات التي تتوقعها من الموظفين الجدد الذين تتطلع لتوظيفهم.

وعلى خلاف الاعتقاد الشائع أن الحوافز المالية والفوائد والإمتيازات الأخرى تعتبر هامة في الاحتفاظ بالكوادر المميزة في مؤسسة ما، فإن نتائج الدراسات تبين أن برامج التطور المهني هي العامل الأكثر أهمية في الاحتفاظ بالموظفين، اذ تحتاج المؤسسات الى التركيز على التطور المهني لموظفيها ذوي الأداء المتميز، من أجل الاحتفاظ بهم والاستفادة من طاقاتهم الكاملة كإعلاميين متخصصين.

فرغم أن الإدارات العليا في العديد من المؤسسات في الدول العربية تقول أن مواردها البشرية هامة، فإنه من النادر أن تتم ترجمة هذا القول الى سياسات وإجراءات محددة على أرض الواقع، وهناك معدلات إنتقال عالية لذوي الاداء المتميز، خصوصاً في القطاعات التنافسية النامية التي تبرز فيها ندرة الموهبة ومنها القطاع الإعلامي.

ب- إشكاليات التكوين

وقد ترافق نمو الإعلام العربي في مختلف أنحاء المنطقة مع ظهور مؤسسات إعلامية جديدة، ويتيح هذا النمو للأشخاص الذين حصلوا على التدريب ولديهم الموهبة المزيد من فرص العمل في القطاع الإعلامي وذلك ضمن أقسام تتراوح بين العمليات السابقة للإنتاج والإنتاج والإدارة والتكنولوجيا. إلا أن الواقع يظهر أن هناك نقصاً إقليمياً في الاعلاميين المؤهلين، وخصوصاً خريجي الجامعات الحاصلين على شهادات في الإعلام. ففي بعض البلدان مثل الإمارات والسعودية، تشير الدراسات الى أنه على الرغم من كثرة المتقدمين بطلبات للحصول على وظائف في القطاع الإعلامي، ما تزال الحاجة الى الكوادر الماهرة قائمة، إذ هناك نقص عام في المتاح من الكفاءات في القطاع الإعلامي العربي، وخصوصاً ضمن قطاع المطبوعات. ويلاحظ أن المؤسسات التي تقدم الشهادات في مجال الإعلام تتباين بشكل كبير من حيث الحجم، إذ يتراوح عدد الطلاب فيها بين 1000 طالب في جامعة القاهرة و40 طالباً في مركز أدهم المتخصص في الجامعة الأمريكية بالقاهرة[1].

---

1 - راجع: نظرة على الاعلام العربي2007 - 2011، تقرير الاعلام العربي، نادي دبي للصحافة 2007.

ولهذا، وحتى إذا لم يكن الخريجون يعانون من نقص في المهارات، فإنه لا يمكن تطوير أعداد كافية من الإعلاميين بنفس السرعة التي ينمو بها القطاع الإعلامي. فعلى سبيل المثال لا يزيد عدد الخريجين الحاصلين على شهادة في الإعلام في دولة الإمارات العربية المتحدة عن 500 خريج سنوياً، لكن هناك أكثر من 50 قناة إعلامية تسعى لتوظيف مواهب جديدة سواء لشغل أو مراكز جديدة للحلول مكان موظفين إنتقلوا منها.

ولا تواجه شركات الإعلام الراسخة، وخاصة الشركات العالمية منها مثل "سي أن أن" و "بي بي سي"، صعوبة كبيرة في إجتذاب المهارات الجديدة ضمن مختلف المستويات الوظيفية فبينما يدرك الداخلون الجدد الى القطاع بأن العمل مع هذه المؤسسات سيعطيهم خبرات ثمينة ويعزز مسيرتهم المهنية، فإن الإعلاميين الأكبر سناً يتم إستقطابهم من مؤسسات أخرى إعتماداً على ما يتمتعون به من كفاءات مثبتة.

وتعاني بعض المؤسسات في المنطقة، من وجود عنصر المحاباة في التوظيف حيث يتم شغل الوظائف من قبل بعض الموظفين لمجرد أن لهم معارف، ويمكن أن تجري التعيينات ضمن شركات إعلامية كنتيجة لوساطة حكومية أو لروابط سياسية بدلاً من أن تتم طبقاً لامكانيات وقدرات الشخص نفسه، مما يضر بجودة المنتج الإعلامي كما يحد من ولاء العاملين للمؤسسة.

وفي حين أن العديد من شركات الإعلام تواجه صعوبات في العثور على موظفين مؤهلين بالشكل المناسب ويتمتعون بالخبرات المطلوبة، فان العديد من الشركات الأخرى تزعم أن لديها عدداً كبيراً من مقدمي طلبات للحصول على وظائف، لكن الصعوبة هي في تقييم القدرات المتاحة لديهم. ويتمتع البحث عن المواهب الجيدة بأهمية كبيرة لدرجة أن رئيساً تنفيذياً لمؤسسة إعلامية رئيسية يقول بأنه ينفق 25 % من وقته في مراجعة السير الذاتية محاولاً العثور على

"الشخص المميز" الذي يمكن أن يضيف قيمة الى كادر التحرير.

وفي الماضي، كان هناك عدد أقل من النماذج التي يمكن الاحتذاء بها ضمن القطاع الإعلامي، ولم تكن الصحافة تعتبر مهنة مناسبة للموهوبين من المهنيين العرب خصوصاً النساء منهم، وكان الصحفيون المهنيون فقط يعتبرونها مهنة. أما اليوم فقد تغيّرت الأمور، لكن هناك فجوة زمنية في تلبية الطلب على الصحفيين ذوي الخبرة، من قبل الكوادر المؤهلة القادرة على تحقيق أداء متميز. وقد بيّنت الدراسات أن النقص في المواهب ضمن هذه الصناعة يشمل أيضاً الصحفيين المتخصصين، وخاصة المحررين الاقتصاديين، و حتى أن تحويل خبير إقتصادي الى صحفي أكثر سهولة من تحويل صحفي الى خبير إقتصادي، لذلك فإن خريجي الدراسات العليا يلقون الترحيب في القطاع الإعلامي، لكن مدى جاذبية المهنة بالنسبة لخريجي الدراسات العليا يرتبط بتساؤلات بشأن الراتب، والمكافأت والتقدم المهني.

ج- المهارات المطلوبة

إن أبرز وأهم سمة يتمتع بها المهني الإعلامي الموهوب هي سمة تتولد لديه ولا يمكن تعليمها، وتتمثل في الشغف بالمهنة. ولما كانت الصحافة تعلمّها فهي تتطلب تكريساً تاماً للوقت والإهتمام والإلتزام التام بها على مدار الساعه والاستعداد للتعليم والقبول بالبدء بممارستها برواتب منخفضة عادة. وفي ظل الظروف المثاليّة، يفضل مالكو الشركات الإعلامية إمتلاك أي مرشح للعمل في مهن الصحافة المهارات التالية[1]:

---

1 - أنظر: Claude Sales, La Formation des journalistes : rapport à Mme Catherine Trautmann, ministre de la culture et de la communication, porte-parole du gouvernement, Paris 1998.

* **الكتابة:** التمتع بمهارات الكتابة اللغتين العربية والإنجليزية، بحيث يكون قادراً على التعبير بشكل جيد ومحكم مع إجادة متميّزة للتهجئة والقواعد.

* **الأبحاث:** القدرة على القيام شخصياً بإجراء أبحاث متعمقة وعبر شبكة الإنترنت وتحليل هذه المعلومات كأساس للأخبار والتقارير التي يعدها.

* **تكنولوجيا المعلومات:** التمتع بقدرات جيدة في الطباعة، ومعرفة ببرامج الكمبيوتر المستخدمة في غرف الأخبار، ومهارات الأبحاث بمساعدة الكمبيوتر " سي أية أر" (وهو ما يتم تعليمه على نطاق واسع في المؤسسات الأكاديمية الإعلامية في الولايات المتحدة).

* **التحليل:** قدرة على تقييم المعلومات التي يتم جمعها من أجل التمييز بين الحقائق والآراء.

* **المعرفة:** المعرفة بالشؤون الوطنية والإقليمية والعالمية، حيث يتيح إدراك الحساسيّات المتعلقة بالمحرمات المحلية والعالمية إنجاز مواد متميزة وغنية بالمعلومات.

* **القانون:** التمتع بمعرفة أساسية بالقانون يحمي الصحفيين والمؤسسات التي يعملون بها من إحتمال التعرض لدعاوى قضائية، وفي بعض الحالات من التدخل الحكومي، وذلك مفيد أيضاً عند تقديم تقارير وأخبار صحفية معينة.

* **الإدارة الإعلامية:** فهم مختلف جوانب عملية الإنتاج والإدارة الإعلامية لتحفيز التكامل بين جميع مجالات العمل ومنع الإنغلاق المعرفي.

وتعد المهارات المذكورة أعلاه مطلوبة بكثافة، وهي تعتبر جزءاً من مهارات المهني الإعلامي الموهوب.

وبالإضافة الى ذلك، وطبقاً لنتائج الدراسات في مجال الاعلام والاتصال الحديثة، فإن على المهني الإعلامي الجديد إكتساب العديد من المهارات الفرعية لتحسين مسيرته المهنية مستقبلاً، وتتعلق هذه المهارات بالسلوك الشخصي والقيم:

* **التفكير التحليلي:** القدرة على قبول آراء مختلفة، وإثارة الأسئلة حول البيانات والإفادات وتحليلها بشكل مستقل.

* **القيم المهنية:** التمتع بقيم عالية لرفض الهدايا أو قبول معاملة أو متحيزة تزييف التقارير الى جانب القدرة على الاحتفاظ بمستويات عالية في النزاهة تقديم الاخبار والتقارير وإجراء المقابلات.

* **الدقة:** لا يعد تلفيق الحقائق والإستشهادات أمراً نادراً في المنطقة، غير أن المصداقية تتمتع بأهمية كبيرة بالنسبة للقراء.

* **السلوكيات المهنية:** الحفاظ على السمعة المهنية للمؤسّسة من خلال إتباع السلوكيات المهنية المناسبة وإرتداء الملابس اللائقة والتّواصل مع الآخرين بشكل واضح ومهني.

* **اللياقة:** إتباع المعايير السائدة للسلوك الجيّد واللّياقة.

* **إحترام المحرر المسؤول:** التعرض للنقد البناء هي تجربة تعليمية لا يكون الخريجون مستعدين لها غالباً، كما أن قبول فكرة أن عملهم أصبح الآن خاصاً بالصحيفة بحيث يمكن تعديله وتغييره يعد بمثابة درس من دروس الحياة يستحق تعلمه بشكل مبكر[1].

---

1 ـ أنظر: المرجع نفسه.

6- دور السياسة الاتصاليّة في بناء ثقافة المشاركة

أ-وضع السياسات الاتصالية

أنّ الإعلام العربي بحاجة الى إصلاح يبدأ بتغيير قوانين النشر القديمة والبالية، واعتماد سياسات إتصالية تهتم بالكوادر الإعلامية وتدريبها، لا سيما وأنّ كليّات الإعلام العربية ما زالت في معظمها تدرّس المناهج القديمة ذات الصلة المفقودة بالواقع، وبالتطورات الكبرى التي تشهدها المجتمعات العربية ويشهدها العالم في كل مجالات الحياة، وبالذات في مجالات الإعلام والاتصال.

وتعرّف السياسة الاتصالية بأنها مجموعة المبادىء والقواعد والتوجيهات والممارسات الواعية والسلوكيات الشائعة التي يقوم عليها النظام الاتصالي في زمن معين، والتي قد تكون مصاغة بدقة أو تظل ضمنية الى حد كبير [1].

وعند تناول سياسات الاتصال في الوطن العربي، ينبغي أن نأخذ في الاعتبار عدم إمكانية وجود سياسة إتصالية نمطية، أو شبه نمطية، وعدم إمكانية تحقيق ذلك، فالنظام الاتصالي الاعلامي لأي قطر عربي يتوافق عضوياً مع نظامه السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ويتسق مع قيمه الثقافية. وعلى الرغم من وجود بعض السمات العامة التي قد تجمع نظم الاتصال القطرية كلها، أو بعضها، فإن الأهداف والوظائف والسياسات الاتصالية سوف تختلف من قطر الى آخر،

---

1 - Lloyed Sommerlad, National Communication Systems: Some Policy Issues and Options, Reports and Papers on Mass Communication, no.74, Unesco, Paris 1978, p.7.

تبعاً لدرجة تطوّر هذا القطر ونموّه، وتبعاً لفلسفته السياسية [1]، فالسياسة الاتصالية تنبع من طبيعة الحقائق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية للبيئة الخاصة بها ، ولا يمكن إدراكها إلاّ في السياق العام لهذه الحقائق[2]، وذلك على الرغم من المؤثرات الخارجية المتشابهة، القومية والدوليّة التي تتعرض لها هذه النظم.

وتختلف الأقطار العربية في ما بينها في أسلوب وضع السياسات الاتصالية، فقد لا توجد سياسة إتصالية مكتوبة، ومن ثم لا توجد أجهزة معنية بصياغتها، ويترك الأمر برمته للتشريعات والقوانين المختصة التي تحكم العملية الاتصالية الاعلامية بجوانبها المختلفة في إطار التوجهات العامة للنظام الاتصالي، الذي تحدده توجهات النظام السياسية. وقد تتولى الأجهزة البيروقراطية تحديد هذه السياسة في إطار التوجهات العامة للنظام الاتصالي. وعلى الرغم من تعددية هذه التشريعات، التي تغطي جوانب العملية الاتصالية كلها والسياق العام الذي تمارس فيه، فإن عدداً من الأقطار العربية لا توجد فيها أية تشريعات أو قواعد قانونية، بالمعنى المتعارف عليه، تنظّم السياسة الاتصالية، ويترك الامر برمّته للتوجهات في الأجهزة الأمنية، أو الأجهزة البيروقراطية التابعة لوزارات الإعلام.

من هنا صعوبة دراسة هذه الاحكام القضائية التي تعتبر مكمّلة للصورة التشريعية القائمة في كل قطر، بالإضافة الى أن هذه التشريعات كثيراً ما تتضمن عبارات تختلف دلالاتها من قطر عربي الى قطر عربي آخر[3].

---

1 - Sommerland, National Communication Systems: Some Policy Issues and options, p.7.

2 ـ محمد مصالحة، السياسة الإعلامية الاتصالية في الوطن العربي دار شروق، لندن 1986، ص35.

3 ـ اللجنة العربية لدراسة قضايا الإعلام والاتصال في الوطن العربي، نحو نظام عربي جديد للإعلام والاتصال: مشروع التقرير النهائي، ص 90.

على أن الصعوبة الأكبر تكمن في عدم الالتزام في أحوال كثيرة بهذه التشريعات التي قد تعبّر في أحوال كثيرة عن إرادة قيادة النظام، وتتضمّن بنوداً مبهمة ذات تفسيرات عديدة، او تتناقض مع بعضها البعض، أو لا تناسب أوضاعاً او حالات معينة، مما يعثّر عملية او محاولات تفسيرها على نحو ثابت، أو محاولة إستقراء التطوّرات الاتصاليّة المستقبليّة في ضوئها، خاصة عندما يعهد بتطبيق بعض بنود هذه التشريعات الى جهات غير قضائية، تعالج كل حالة بمعزل عن السياق العام للمجتمع، أو طبقاً للتعليمات الصادرة من أعلى، حتى لو أدّى ذلك الى الإخلال بروح النصوص القانونية ذاتها[1].

ب- دمج سياسات الاتصال بسياسات التنمية

ومن أهم الخصائص المشتركة بين الدول العربية، أنها لم تدمج سياسات الاتصال والإعلام على النحو الملائم في سياسات التنمية القطرية، ولم تعطها الأولوية المناسبة، على الرغم من التصريحات المتكررة، والإدراك والوعي المتزايد لأهمية الاتصال والإعلام في خطط التنمية. وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في مظاهر عدة، أولها ضعف الاستثمارات التي يتلقاها قطاع الاتصال والإعلام، و التي تحميه من الاعتماد على إستيراد المواد والبرامج الاجنبية، وتحمي الثقافة الوطنية. كما تلتقي معظم الأقطار العربية على عدم القدرة على تحويل سياستها الاتصالية إلى خطط طويلة المدى، تحمل أهدافاً طموحة[2].

---

1 - ابراهيم بدران، العلم والتكنولوجيا والتنمية في الوطن العربي، مؤتمر الأمم المتحدة لتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية، فيينا 19 - 29 آب 1979، اتحاد مجالس البحث العلمي العربية، بغداد 1982، ص 23.

2 - يحيى أبو بكر (وآخرون)، تطوير الاعلام في الدول العربية:الاحتياجات والأولويات، تقارير ودراسات في مجال الاتصال الجماهيري، رقم 95 ، اليونيسكو، باريس 1983، ص11.

ويرجع البعض ذلك الى غياب الإحساس بأهميّة عمليّة التخطيط الاتصالي وأهمية وضع سياسات إتصالية[1]. ويرى فريق آخر أنه في ما عدا ما يدخل بطبيعته في نطاق الخطة الاقتصادية للدولة من نشاط إعلامي يتسم بالطابع الصناعي، فإنه لا يمكن القول إن الدول العربية قد حققت خططاً إعلامية واضحة، سواء على المستوى القطري أو القومي و "كل ما نلحظه هو مجرد توجيه إستثماري، أو تخطيط برنامجي قصير الأمد"[2].

ويرجع الباحثون العرب غياب، أو ندرة التخطيط طويل المدى، في مجالات الاتصال والاعلام في الأقطار العربية كلها، إلى حداثة فكرة التخطيط الإعلامي ذاتها على المستوى العالمي، حيث كانت العناية تتجه الى التخطيط في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ولم يكن التخطيط الاعلامي قد تحددت معالمه بحيث ينظر اليه كجزء لا ينفصل عن التنمية الاجتماعية. وإن مفهوم التخطيط في بعض الأحيان ليس واضحاً تماماً للقائمين بوضع سياسات الاتصال، فإن لجان التخطيط الإعلامي في الوطن العربي، تشغل نفسها في معظم الأحيان بالأحداث السياسية والأوضاع الطارئة، بحيث يكاد يستحيل عليها أن تعطي إهتماماً عميقاً بموضوع التخطيط الاتصالي المتكامل بعيد المدى.

وتفتقر عملية صنع سياسات الاتصال والتخطيط وصياغتها، في أقطار الوطن العربي كلّها الى اساس تبنى عليه من المعلومات والوثائق والبحوث النظرية والميدانية التي تتناول أبعاد العمليات الاتصاليّة كلها، وعناصرها وتأثيرها في السياق الذي تمارس فيه. وهذه المشكلة على درجة كبيرة من الخطورة وتؤثر تأثيراً سلبياً على سياسات الاتصال والتخطيط الاتصالي والإعلامي.

---

1 ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، قضية التخطيط الإعلامي في الوطن العربي المنظمة، القاهرة 1980، ص9.

2 ـ حسن محمد طوالبة، نحو تخطيط إستراتيجي للإعلام العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت1981، ص. 35.

ويمكن للمرء أن يتصور خطورة، ومدى عشوائية وضع سياسات غير مبنية على فهم حقيقي. وهناك عدم تقدير لأبعاد الدور الذي يمكن أن تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرية بالنسبة الى خطط التنمية الاقتصادية من جانب المخططين الاقتصاديين والمؤسسات الاقتصادية[1] .

وما اليه خبراء الإعلام العرب في هذا الشأن يبدو صحيحاً الى حد كبير: ’’حتى يمكن وضع خطة فعّالة للاعلام في الدول العربية، تبدو الحاجة ماسّة الى جهد بحثي هائل، لا بفرط في التجريد النظري، وإنّما يعنى بتقديم معونة حقيقية لهؤلاء الذين يتخذون القرارات، وبدون هذا الجمع المنهجي للمعلومات في المنطقة وتحليلها، فسوف يترك تطور وسائل الاعلام للمصادفة، أو للظروف المواتية أو المعاكسة التي يمكن أن تنشأ من عوامل لا يمكن التنبؤ بها‘‘[2]. وثمة مشاكل عديدة وعقبات شتى تعرقل عمليات جمع المعلومات وإعداد البحوث اللازمة لوضع السياسات الاتصالية والتخطيط لها، يرجع بعضها الى إعتبارات سياسية واقتصادية، وبعضها الآخر الى الافتقار الى الكوادر اللاّزمة كمّاً وكيفاً، والى النقص الواضح في قنوات، ووسائل تدريب الباحثين، والى ضعف الشبكات الوطنية والقومية للمعلومات ومراكز التوثيق[3].

---

1 ـ سعد لبيب، اعتبارات أساسية في التخطيط الاعلامي على المدى البعيد في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم، ص 123 - 134.

2 ـ شون ماكبرايد (وآخرون) أصوات متعددة وعالم واحد: الاتصال والمجتمع اليوم وغداً: نحو نظام عالمي جديد عدلاً وكفاءة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 156 - 157.

3 ـ يحيى أبو بكر (وآخرون)، تطوير الاعلام في الدول العربية: الاحتياجات والأولويات، مصدر سابق، ص13.

ج- نحو رؤية استراتيجية

من كل هذا، برزت أهمية علوم الاعلام و الاتصال وضرورة إشراكها في عملية التخطيط الاعلامي و في السياسات الاعلامية والاتصالية، و برزت حقيقة أن التعاون القومي العربي في مجال البحث العلمي والتكوين المهني، من شأنه أن يوفر لكل الأقطار العربية المستلزمات الأساسية لعملية التخطيط الاتصالي والإعلامي، خاصة إذا أخذ في الاعتبار أن أيّة سياسة إتصالية وإعلاميّة قطريّة لها أبعادها وتداخلاتها القومية الملزمة.

يبقى أن نؤكد أن الزمن الذي نعيشه اليوم تسيّره أنظمة دقيقة وآليات عمل يتداخل فيها السياسي مع المهني والاقتصادي والثقافي بشكل معقد. ولذا فإن نجاح العمل التنموي أو أي عمل يهدف إلى التغيير والتطوير مرهون بتوافر البيئة الملائمة لذلك. ويشكل البعد الإعلامي والاتصالي في مفهومه الشامل أحد أهم ركائز التغيير و التطوير. ولذلك فإن مواكبة الخطاب الإعلامي للمتغيرات الحاصلة وفعالية مساهمته في العمل التنموي مرتبط بدوره، بالتكوين المهني النوعي للقائمين على الاتصال قصد تمكينهم من تحقيق أهدافهم في إطار معايير جديدة من المهنية. وفي هذا المضمار من المرجح أن يكون التدريب والتأهيل الإعلامي أكثر نجاعة في إطار عملية قومية عربية أوسع نطاقاً لتعزيز دور الإعلام في عملية التنمية ومشاركته الفاعلة في عمليات التقويم والإصلاح والتطوير.

وسواء كان جزءاً من مجهود أكثر شمولية أو كان مستقلاً ، فإن التدريب الإعلامي بمعناه الأشمل هو الوسيلة الأكثر نجاعة لكبح الفساد و نشر قيم الفضيلة في المجتمعات التي تلزمها إصلاحات أساسية في مؤسساتها، فضلاً عن الدفاع عن القضايا العربية بأساليب متطورة أكثر إقناعا وتأثيراً. وبناء ونشر ثقافة المشاركة.

وكل ما سبق ذكره يعتمد أولاً وأخيراً على وجود مؤسسات تكوين مهني تشتغل وفق رؤية استراتيجية شاملة، الإنسان فيها هو المحور والأساس، بالمفهوم الشامل للإنسان، فكراً وجسداً، مرسلاً ومتلقياً، منتجاً ومستهلكا. مؤسسات تنطلق من خلال مفاهيم منفتحة على المتغيرات المحلية والعالمية وذلك هو العنوان الصحيح لإحداث أي تطوير حقيقي في الأداء الإعلامي ومواجهة قضايا وإشكاليات الحاضر وتحديات المستقبل.

V – استخدامات وسائل الاتصال الحديثة في الوطن العربي

والاشكاليات الثقافية والتربوية

1 - الاتصال والاشكاليات الثقافية الجديدة

2 - الاتصال والتغيرات الاجتماعية

3 - الإعلام والاتصال ورهانات التكنلوجيا

4 - التربية على استخدام وسائل الاتصال الحديثة

5 - نحو إستراتيجيات تربوية للجهات الفاعلة

6 - تغيُّر القِيم الثقافية: الأسباب والحلول

تمهيد:

بات تقييم المؤسسات الجامعية خاضع لمعايير عالمية محددة من قبل مؤسسات رسمية وخاصة تعمل على تقويم الجامعات من خلال ادائها. وهذا الاداء لا يقتصر على التعليم ونوعيته وجدواه وارتباطه بمحيطه وبسوق العمل، وإنما على البحث العلمي ومكانته ونوعيته بالدرجة الأولى. وإذا ما نظرنا إلى تصنيف شانغاي العلمي للجامعات، لا نجد اي من الجامعات العربية في الخمسمائة جامعة الاولى. ومن الملاحظ أن البحث العلمي لا يزال خجولاً في تلك الجامعات إذا ما قيست بالجامعات الغربية المتقدمة.

وفي كثير من الجامعات في العالم ولا سيما في الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف في لبنان، تم جمع الأطروحات المسجلة في اختصاصات متعددة لغرض الإفادة فيما بينها وفتح المسارات على بعضها. فعلى سبيل المثال لا الحصر، جُمعت الاختصاصات التي تدرس في كليات الآداب والإعلام والتربية والفنون الجميلة والعلوم الاجتماعية في المعهد العالي في الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في الجامعة اللبنانية. ومن المنوي ان تحتضن المعاهد العليا للدكتوراه مراكز بحثية تحتوي بدورها مختبرات يسجل فيها طلاب الدكتوراه ضمن فرق بحثية. تحدد هذه الأخيرة أولويات البحوث العلمية مستندةً على حاجة المحيط و متطلبات سوق العمل.

وانفتاح المسارات هو مفهوم يشجع على انجاز ابحاث منفتحة على مختلف الاختصاصات البحثية. ففي إمكان البحوث الادبية الاستفادة من علمي اللسانيات

والمعلوماتية، كما بإمكان علوم الاتصال الاستفادة من علمي الاجتماع والاحصاء وغيرها[1].

1 ـ أنظر: مي العبدالله وهيثم قطب(تحرير)، نحو رؤية نقدية للتجربة البحثية في علوم الاتصال، الملتقى الأول للرابطة العربية للبحث العلمي وعلوم الاتصال، بيروت ك1 2015.

1- الاتصال والاشكاليات الثقافية الجديدة

أ-رهان ثقافي حضاري

أصبح كسب رهانات الاتصال من جوهر السعي الى كسب رهان الحداثة بمفهومها العميق، المبني على تحقيق حرية الفرد وإنعتاقه، وكسب الانسان قدرة التفاعل مع مجتمعه تفاعلاً إيجابياً. ورهان الاتصال الأساسي هو رهان ثقافي حضاري بمفهوم الثقافة الشامل، الذي يعني سعي الإنسان الدائم الى تفهم الكون من حوله والسيطرة على محيطه الطبيعي، وتسخيره وتطويعه تطويعاً يجعله يفيد من خيره ويدرأ شره، ويعني كذلك تفاعل الإنسان مع بيئته الاجتماعية تفاعلاً إيجابياً فيما يستحدث، وفيما يشرع وينظم، طلباً لبقائها وإصراراً على سيرورتها، وعلى الإسهام في تطويرها. وهو رهان اقتصادي، وبالتالي، رهان مصيري شامل تندرج في صلبه رهانات كبرى لعل أهمها تصحيح علاقة الانسان بذاته و محيطه، وتصحيح علاقته بماضيه، وكسبه القدرة على إستقراء هذا الماضي إستقراءً نقدياً يحفز على إستشراف المستقبل.

والمثقف في عالم تكنولوجيا الاتصال والمعلومات يواجه خيارات صعبة وتحدياتٍ داخلية وخارجية تتطلب نمطاً جديداً من الأفكار والمفاهيم والأدوات الجديدة التي أصبحت كونية ومترابطة وانسيابية، نتيجة الاستخدام المتزايد لتقنيات ومخرجات تكنولوجيا الاتصال والمعلومات[1].

1 - أنظر: Francis Balle, Médias et sociétés : Internet, presse, éditions, cinéma, radio, télévision, Montchrestein, Paris 2007

ب- سيادة العلم

ان العالم اليوم يختلف عن العالم في القرن الماضي والقرون السابقة، بمعنى أنّ الزمن الجديد والمغاير يتطلب بالضرورة مثقفاً جديداً أو ثقافة جديدة ومفهوماً جديداً لوظائف الثقافة والمثقفين. ولعل أبرز ما يميّز الحقيقة الراهنة من تطور العالم المعاصر أنّ الثورة الجذرية في مجال تكنولوجيا الاتصال والمعلومات جعلت مصير العالم مرتبطاً بناتج العمل ونشاط العقول، بعد أن تغيرت على نحوٍ جذري وظائف الثقافة .

كل هذا يفرض على الشعوب التعامل مع إشكاليات الثقافة والمثقفين من منظور جديد يتجاوز موروث طرائق التفكير والعمل والمفاهيم القديمة والانعزال النخبوي، سواء على مستوى السياسات الثقافية أو الإبداعات الفردية، فكل الأطراف تنشط اليوم وسط عالم متغير وفوق ساحة كونية واحدة لا سيادة فيها سوى للعلم.

فكما جعلت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من الفضاءين الطبيعي والإلكتروني مسافة ثقافية عابرة للحدود والقارات والقوميات، فإنّها حوّلت هذه المسافة أيضاً إلى حقل معرفي يختزن ويستقبل ويبث جميع أنواع المعلومات في مختلف فروع المعرفة. إنّه فضاء غزير بالأفكار والمعارف والتصورات التي تطرح قضايا الفلسفة والدين والأخلاق والسياسة، وترصد أحوال الرياضة وأسواق المال والتجارة والصناعة والفن والأدب والموسيقى والسينما والهندسة الوراثية [1].

ج- حوار الثقافات

في ساحة هذا الفضاء الواسع تتلاقى العقول وتتحاور الثقافات وتتفاعل الحضارات، وتقام المؤتمرات والمعارض الحية وحلقات الدردشة والمواجهات

1 - أنظر: Pierre Lévy, L’intelligence collective, La Découverte, Paris 1994.

الساخنة عبر الأثير. بمعنى أنّه فضاء بلا حدود للأفراد والجماعات، وللأفكار والتصورات، وللمعارف والمعلومات، وللرجال والنساء، حيث تتم عملية تاريخية جديدة لإعادة صياغة العَلاقة بين الإنسان والعالم، وبين المجتمعات والثقافات، وبين الحقيقة والأيديولوجيا، وبين العقل والحرية.

لم يُعد ثمة مجال للأفكار التي تحصر مفهوم الثقافة في اطار مغلق، خصوصاً بعد أن أصبحت الثقافة جزءاً أصيلاً من الفتوحات العلمية. ولقد ولى وإلى الأبد ذلك الزمان الذي كانت فيه الثقافة تطل على الواقع من أبراج الكلام والكتابة على أيدي نفر من المثقفين الذين يثورون على الواقع تارة، وينهزمون أمامه أو ينسحبون منه أحياناً، أو يحلمون بما هو أفضل منه في معظم الأحيان [1] .

وقد تراكمت إنجازات الفكر الإنساني في مجالات الفلسفة والأدب واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم، لتشكل وظيفة جديدة للثقافة الإنسانية، وهي الدفع بحركة الحياة دوماً من القديم إلى الجديد، ومن الثابت إلى المتحول، ومن الحزن إلى الفرح.

ومع تراكم إنجازات الثقافة الإنسانية بالارتباط الوثيق مع تراكم تحولات النشاط الاجتماعي للناس، جاء عصرنا الحديث ليخرج الثقافة من أبراج التأملات والأحلام إلى ساحات الفعل الإنساني، ولينقلها من سكون الفكرة إلى حركة الواقع حيث طرحت الحياة على نحوٍ علميٍ مهمة الربط بين الفكر والممارسة.

وتبرز اليوم، لأول مرة في التاريخ الإنساني، ثقافة علمية بالارتباط الوثيق مع إنجازات الثورة التكنولوجية التي فتحت أمام البشرية طريق بناء العالم الجديد الذي حلم به المفكرون منذ سقراط وأرسطو في فجر تاريخ الحضارة المدنية

---

1 - أنظر: Armant Mattelard, la mondialisation de la communication, La Découverte, Paris 1996.

وحتى الآن، حيث يواصل الداعون إلى الإقامة الدائمة في الماضي حربهم ضد العقل والحداثة، مما لذلك من دلالة عميقة على أن بنية الثقافة المعاصرة اتسمت بطابعها الإنساني، فلم يعد المثقفون عبارة عن نخب من الدراويش والكهنة وحفظة النصوص، بل أصبح المثقف عالماً فيما أصبح العلم منتجاً لثقافة معرفية[1] .

وفي سياق التحولات المتسارعة التي أحدثتها الثورة الصناعية الثالثة، في بُنية الاقتصاد العالمي والعَلاقات الدولية والنظم السياسية والأفكار الإنسانية، إكتسب مفهوم القوة محتوى جديداً يقوم على أساس المعايير اللامتناهية للمعرفة .

لقد أصبحت القوّة هي المعرفة، والمعرفة هي القوّة، الأمر الذي أدى إلى أن يتميز الطور الراهن من مسار تطور العصر والحضارة المعاصرة بثورة المعلومات، التي يتوقف عليها مدى النجاح في امتلاك مفاتيح المعرفة وبالتالي مفاتيح القوة [2].

---

1 - أنظر: Armand Mattelart, Histoire de la société de l’information, éditions La Découverte, Paris 2001.

2 - نفسه

2- الاتصال والتغيرات الاجتماعية

أ- نمو البطالة

من نتائج العولمة والتطوران الثقافي والتكنولوجي تغيرات كبرى في حياة الناس، أفرادا وعائلات ومجموعات. لا تلحق هذه التغيرات فقط بالمجتمعات الغربية وإنما بالجميع بما فيها العربية. دوليا، نصف العاطلين عن العمل هم من الشباب والشابات (دون ال 24 سنة) في وقت يزداد فيه عدد الراغبين في العمل أو المحتاجين له. يقدر حجم العمالة الدولية بما يقارب 3 مليارات شخص أي حوالي 60 % من مجموع السكان. يبلغ عدد العاطلين عن العمل حوالي 190 مليون شخص أو نسبة 6,3 % (نسبة البطالة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هي الأعلى في العالم وتصل إلى حدود 14 %)[1].

ب- نمو قطاع الخدمات

تنتقل اليوم العمالة أكثر فأكثر إلى قطاع الخدمات بسبب تطوره وزيادة الطلب عليه. تزداد مشاركة المرأة في العمل لكنها تبقى دون مستوى مشاركة الرجل لأسباب ثقافية وعائلية وتاريخية (الفارق الأكبر بين النسبتين هي في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حيث تقل نسبة العمالة النسائية عن نصف عمالة الرجال).

فالمطلوب في منطقتنا تحقيق إصلاحات جذرية سريعة في القواعد والقوانين والمؤسسات حتى يشارك الجميع في تنمية المجتمعات وتنوعها.

1 - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، "الشركات المتعددة الجنسيّة والأزمة الاقتصادية العالمية". بيروت 1986، ص 43 و 166.

يعاني العالم اليوم من الكثير من الفقر خاصة في جنوب أسيا وأفريقيا السوداء (نسبة السكان الذين لا يحصلون على تغذية كافية هي 10 % في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مقارنة ب 15 % في أسيا و33 % في أفريقيا). المطلوب ليس فقط توافر الغذاء المدروس والمناسب وإنما حسن توزيعه على الذين يحتاجون إليه. هنا يكمن الدور الكبير للمؤسسات الخيرية وغير الحكومية كما لمنظمات الأمم المتحدة لتحقيق بعض العدالة. من النتائج الاقتصادية الايجابية للعولمة زيادة نسب النمو والإنتاجية في كل مناطق العالم، مما يساهم مع الوقت نفسه في محاربة الفقر وانتشار التنمية. وللدولة ،أية دولة، دور كبير في تحسين توزع الثروة والدخل كي تنعكس منافع العولمة على الفقراء والمناطق الريفية والبعيدة.

ج ـ نمو الفقر

لا شك أن الحياة الاقتصادية أصبحت أصعب بسبب زيادة المنافسة في أسواق العمل والإنتاج وبسبب تكاثر الحاجات وتنوعها وتغير الأذواق. بفضل التكنولوجيا والعلوم والإعلام والإعلان، تغيرت السلة الاستهلاكيّة للطبقات المتوسطة دوليّا بشكل دراماتيكي خلال العشرين سنة الماضية. تحتوي السلّة الحديثة على سلع وخدمات كانت تعتبر كماليّة وأصبحت اليوم ضروريّة أو عاديّة كاستهلاك وجبات الطعام خارج المنزل والسفر السياحي.

من النتائج الأساسية للتطوّر تحول الطبقات المتوسطة إلى فقيرة ليس فقط في الغرب وإنما في كل المجتمعات، بينها لبنان. تحولت الطبقات المتوسطة إلى فقيرة بسبب زيادة تكلفة المعيشة، إذ لم تلحق الأجور بمؤشر الأسعار. زاد الإنفاق العائلي بمعظمه على الأمور الضرورية كالسكن والتأمين الصحي والتعليم والنقل والضرائب وليس على الكماليات كما يعتقد البعض. وبسبب التغيرات الديموغرافية، أي ضعف الإنجاب وزيادة عدد المتقاعدين نسبة للعاملين، يزيد الضغط المادي والنفسي على الطبقات المتوسطة ـ الفقيرة الممولة لهذا الواقع الجديد.

3 - الاتصال ورهانات التكنلوجيا

أ - بناء مجتمع المعلومات

الثابت هو أنّ الأسرة العربية قد انخرطت في حركة بناء مجتمع المعلومات، فقد غطت شبكات الاتصال الحديثة أعداداً كبيرة من الأسر، ليصبح التعامل مع الأنترنت للبحث عن المعلومة أو التراسل أو غيره عنصراً جديداً في المشهد اليومي للأسرة العربية. ولكن، يبقى هذا الانخراط دون المستوى المأمول، وهو أيضاً متباين جداً من بلد عربي إلى آخر.

تأسست العلاقة بين المجتمع والوسائل الحديثة للإعلام والاتصال على أثر التحول الذي شهده العالم، فاعتبره البعض مظهرا صحيا سيمكن عامة الناس من الولوج إلى المعلومة والمعارف بطريقة تضمن السرعة والانسياب لا توفرهما الوسائل التقليدية، متنبئين بقدوم عصر الثورة الرقمية التي ستحول المجتمع إلى جنة رقمية، ومعلنين في نفس الوقت على قرب اندثار عصر القراءة والمطالعة والانطواء على النفس والتبعية العقلية أو الذهنية للأطفال خاصة بعد ''استيلاء'' عامة الناس على هذه الوسيلة. ولكن المواقف حول هذه الوسائل تبقى مزدوجة غالباً، فهي تارة موضع لوم وتارة أخرى رمز لمستقبل زاهر[1].

ب - الشباب ووسائل الاتصال الحديثة

ويبدو أنّ علاقة الشباب بهذه الوسائل هي التي يشوبها التردد والشعور

---

1 - هدسون جون وهرندر مارك، ''العلاقات الاقتصادية الدولية''، ترجمة منصور طه ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ السعودية للنشر 1987، ص 734.

المزدوج من طرف الكبار، فهي في نفس الوقت علاقة إعجاب وانبهار ولكنها أيضاً علاقة يشوبها قلق وجزع. فهل تعرّض هذه الوسائل الشباب لمخاطر قصوى كافتقاد المرجعيات، والتبعية الافتراضية، وافتقاد الروح النقدية؟ أم أنّ هذه الثورة الرقمية ستؤثر إيجابياً على مستقبل الأطفال والشباب بما توفره من إمكانيات معرفية وتعليمية.

إنّ قناعة العديد تتجه نحو تشجيع الشباب على التعامل مع هذه الوسائل الجديدة التي تداخلت استعمالاتها وتشابكت باعتبارها أداة للتنشئة، ومجمع للمهارات وناشر للثقافات، وهي كذلك مجال للإبداع ومدعّم بيداغوجي فعّال لا يمكن إنكارها. ولكن هذه التأثيرات الإيجابية تبقى هشّة معرّضة للتشكيك عندما يُساء استعمالها لدرجة ولدت هوّة كبيرة بين مستعمليها من الشباب خاصة وبين جيل مستعملي القلم.

يحتل الشباب المرتبة الأولى ضمن قائمة المستهلكين والمستهدفين بالأنترنت لذلك فهم في قلب الثورة الرقمية. وتبين المؤشرات أنّ أكثر من ثلث مستعملي الأنترنت هم شباب تتراوح أعمارهم بين 16 و24 سنة. فهذا الجيل الرقمي digital generation حسب دراسة بريطانية، يقضي 800 ساعة سنوية بالمدرسة، و80 ساعة نقاش مع العائلة، و1500 ساعة أمام الشاشة وهو تغيير يعتبر من العلامات العميقة للتغيرات السوسيولوجية للمجتمعات العامة.

يتبنى الشباب الوسائل الحديثة للاتصال لأنها تحمل العديد من صفاته وتتفق مع أسلوب حياته، فهم متحركون مثلها، يستعملونها دون الحاجة إلى كابل توصيل، وهي أيضاً أدوات تفاعلية، بالإضافة إلى أنها تمنح فضاء يوفر الشعور بالحرية. فكل هذه العناصر تفسر نجاح هذه الأدوات لدى الشباب. يفضل الشباب إستعمال شاشة الأنترنت لأنها تحميهم من نظرة الآخر وتحررهم من كل الموانع لاكتشاف العالم وتصبح مؤتمنة على الأسرار، وهي أيضاً الحاجب الذي يحمي

من كل التجاوزات الانفعالية ويمكّن من تطوير العلاقات مع الآخر دون التعرض للأخطار القريبة. وإذا اعتبر الكهول الأنترنت مصدراً للمعلومات والمعرفة فهي بالنسبة للشباب مجالٌ للتعارف والتواصل.

وتعتبر المرحلة التي يتحصّل فيها الطفل على هاتفه الجوال الخاص علامة واضحة للاستقلالية الموهوبة من طرف الأولياء ولكنها في نفس الوقت مظهر للرابط الجلي بين الأبناء بالآباء. وهذا ''الحبل الرقمي'' أو ''التطويق الرقمي'' حسب المختصين في علم الاجتماع رمز للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة التي تتميز بالسعي إلى بناء علاقات جديدة خارج الدائرة الأسرية.

إنّ جيل الهاتف الجوّال 12- 24 سنة يجد في هذا الجهاز وسيلة للتعبير عن حاجتهم للصدقات والألفة والحرية والاستقلالية، فتجدهم حاضرين جسدياً في مكان ما، ولكنهم وفي نفس الوقت يعيشون في فضاء يجهل الحدود والزمان. وتمكّن الأنترنت الشباب من بناء علاقات كثيرة تجهل الحدود انطلاقاً من البيت ولكنها علاقات مع أشخاص خارج النطاق العائلي، وهذا السلوك يطوّر حالة من الانفصال السلسة وغير الواعية عن الأسرة.

تحمل الأنترنت مثل بقية أدوات التواصل الحديثة جملة من المخاطر. فقديماً مكّنت آلة الطباعة البشر، عن طريق توفير عدد كبير من نسخ للكتب والمخطوطات، من الاطلاع على ثقافات بلدان مختلفة، كما مكنت صناعة السينما منذ القرن الماضي من إنتاج أفلام اعتبرت تحفاً فنيّة، ولكن وفي نفس الوقت، تمكنت هذه الصناعة من تطوير وترويج، بطريقة لا مثيل لها، الأفلام الإباحيّة وأفلام العنف[1].

---

1 - هدسون جون وهرندر مارك، مصدر سابق ص 738. أنظر أيضاً ''الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها''، مركز دراسات الوحدة العربية، الجزء الثاني، بيروت أيار1986، ص ص 904 - 905.

ج-مواجهة مخاطر وسائل الاتصال الحديثة

إنّ تربية الأبناء ترتكز على تدريبهم على مواجهة المخاطر اليومية، كتعويد الطفل على "عدم لمس النار لأنها تحرق" و"النظر إلى اليمين وإلى اليسار قبل قطع الطريق"، ويمكن أن تندرج التربية على استعمال الأنترنت في هذا السياق[1].

ومن أهم المخاطر التي يمكن أن تهدد الأطفال:

1 - مخاطر الالتقاء بأشخاص يمكن أن يكوّنوا خطراً نفسياً أو اجتماعياً على الأطفال، ويعتبر الحديث مع الأطفال في هذه المواضيع مهماً جدّاً، لحاجة الأطفال إلى مناقشة هذه المسائل في إطار يوفّر الاطمئنان والتفهّم ويمكنه من تبين الأشياء الحقيقية من الوهمية، والاعتياد على مناقشة لقاءاتهم مع أولياءهم.

2 - مواجهة مواقع إباحيّة: تعتبر سهولة الولوج إلى هذه المواقع، والرغبة الكبرى للمعرفة والإطّلاع التي تميّز فترة الطفولة والشباب، خاصة في ما يتعلق بالمواضيع المحظورة، من أهم الأسباب التي تجعل معالجة هذا الخطر يتصف بالصعوبة.

3 - الجلوس المطوّل أمام شاشة الحاسوب: والذي يمكن أن يتحوّل إلى حالة إدمان تجعل المستعمل في عزلة عن محيطه العائلي والاجتماعي، تؤثر على روابط الانتماء العاطفي والاجتماعي، وتستوجب تدخل الأولياء وإعادة الشاب إلى الواقع.

إنّ أحسن سبل الوقاية في هذا المجال هو ما يتم تمريره عبر العلاقات العائلية والحوار مع الأبناء، واستعداد الأولياء لمساعدة الأبناء مهما كان الوضع الذي يواجهون، بالإضافة إلى أهمية وضع حدود بالنسبة لعدد ساعات الإبحار ونوعية الأشخاص الذين يتم التواصل معهم.

إذاً فمسألة وضع الحدود هي مسألة هامة وأساسية في مجال تنشئة الأطفال.

وتبقى مسألة المراقبة صعبة في حال عدم مقدرة الأهل على المتابعة بسبب عدم التمكن وغياب المعارف اللازمة.

---

1 - المصدر نفسه.

4 ـ التربية على استخدام وسائل الاعلام والاتصال

أـ رهانات التربية على استخدام وسائل الاعلام والاتصال

إنّ تطور تكنولوجيا المعلومات والاتصال، أحدث تحولات عميقة في إمكانيات الحصول على المعرفة والفعل فيها وإشاعتها وغيّر بذاك الدور التربوي للأسرة والمدرسة. فاستعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصال في المؤسسة التربوية يسهل العمل التفاعلي، والعمل على مشروع بحثي، والعمل في إطار مجموعات، كما يحدث تغيراً في العلاقات داخل القسم، ويصبح المدرس يلعب دور المرشد والوسيط والمرجع في بناء عمليات تعلم التلاميذ التي أصبحت تتطور بوجود هذه التقنيات الجديدة.

وقد عمق استخدام الوسائط المتعددة عملية التفاعل وطورها ليجعل منها الخاصية الأساسية للمشهد الإعلامي الحديث بمفهومه الشامل، كما جعل من وسائل الاتصال الحديثة كونيّة وتفاعليّة يتم استخدامها من طرف الأفراد والجماعات. إن التطور السريع الذي يعيشه مجال الاتصال والتكنولوجيا الحديثة من شأنه أن يرفع من نسق دور الإعلام في المجتمعات العربية، غير أنه لا بدّ من الإشارة إلى أنّ البنية التحتيّة للاتصالات التي تمثل أساس الثورة الاتصالية عبر ما تتيحه من استغلال لمختلف التطبيقات والخدمات يجعل من الإعلام مادة سهلة النفاذ والانتشار، هذه البنية التحتية تحتاج إلى دعم أكبر فهي دون المطلوب وخاصة دون مستويات ومعدلات الدول المتطورة مع تفاوت واضح بين الدول العربية فيما بينها. كما أنّ عدد مستخدمي شبكة الأنترنت لا يزال

ضعيفاً، ويعود ذلك لارتفاع أسعار الحاسوب الشخصي وأسعار الربط بالهاتف في بعض الدول وضعف التكوين والتدريب على الاستعمال. أمّا في ما يخص المحتوى فإنه لا يرتقي إلى المستوى المطلوب ويطغى عليه الطابع الترفيهي مع قلّة وندرة في المواقع العربية التي تقدم محتوى إعلاميّاً وعلمياً وثقافياً جيّداً.

ورغم ما تم ذكره، فإنه لا بدّ من تثمين المجهود الكبير التي تقوم به الدول العربية فيما يتعلق بتعميم تعليم الأنترنت وحسن استغلالها للأغراض تربويّة وتنشيئيّة، وقد تمكنت بعض الدول العربية من تسجيل مؤشرات طيبة في المجال تراوحت معدلات استعمال الأنترنت ضمنها بين 15 % و40 %.

كما بدأ هذا المجهود يؤتي ثماره بظهور بعض الصحف والمجلات والمواقع العلمية المتخصصة على الشبكة وهي مواقع عربية جديدة ستتمكن من التواصل مع العالم إذا ما حافظت على جديتها وعمقها.

والحقيقة أنّ المحتوى العربي على الشبكة العنكبوتيّة ما زال في بداياته ويحتاج إلى تطوير كبير في الشكل والمضمون. وفي المقابل يبدو أنّ طرق الاستهلاك الجديدة لوسائل الإعلام عن طريق الأنترنت تتدعم فاعليتها شيئاً فشيئاً ولكن مخاطرها حاضرة أيضاً. وفي هذا الإطار يجب أن نميّز بين موضوعين مختلفين الأول يهم حماية الأطفال والشباب من المخاطر التي ذكرتها في الفقرات السابقة، والثاني يتعلق بتربية الأطفال على استعمال هذه الوسائل ودعم قدرات الأسرة للقيام في مجال تأطير وحماية أفرادها[1].

وتحتّم علينا أولويات التدخل الاهتمام بتربية الأطفال والإحاطة بالشباب وتعويدهم على حسن استعمال هذه الوسائل ليصبحوا فاعلين حقيقيين في مستوى اختياراتهم ومشاركاتهم ومساهماتهم، وكذلك في ما يتعلق بحماية أنفسهم. فالتأثيرات السلبية المسجلة على الجانب الصحي والنفسي، وعلى النتائج المدرسيّة، وعلى العلاقات

---

1 - ياس خضير البياتي، التأثيرات الإجتماعية المحتملة للتلفزيون على الشباب، مجلة شؤون اجتماعية - عدد90، ص133.

الأسرية والمجتمعية تحتّم علينا التعجيل في التدخل ووضع استراتيجية متكاملة للتدخل، والابتعاد عن الحلول الجاهزة أو غير المجدية كالمنع والزجر، تيسر الاستفادة من هذه الوسائل.

فالتربية على استعمال التقنيات الحديثة تحمل في طياتها رهانات تكوين شخصي ومعرفي للفرد، وتفتح له أفاقاً كبيرة لتطوير علاقة مع نفسه ومع الآخرين ومع المجتمع ككل.

إنّ التربية على استعمال وسائل الإعلام في وسيلة لحماية الأطفال، في وقت يبقى فيه الطفل ساعات أمام شاشة الحاسوب أو التلفزة مما يستوجب تدريبه على قواعد حسن التعامل مع المحتويات.

ب- موجبات التربية على استخدام وسائل الاعلام والاتصال

أما في ما يخص تأثير برامج التلفزة على تنشئة الأجيال والعلاقات داخل الأسرة، وانطلاقاً من خلاصات العديد من الدراسات والأبحاث الميدانية والتجارب في هذا الموضوع، فإنّ الواجب يدعونا إلى:

1 - العمل على إيجاد الطرق الأفضل لبناء علاقة واعية ونشطة بين الأسرة ووسائل الإعلام الحديثة في ظل التعاون مع المنظمات والجمعيات الأهلية.

2 - إحداث آليات لمتابعة الظواهر الناشئة عن تأثير التقنيات الحديثة.

3 - وضع برامج تكوين متكاملة تدرّس في المؤسسات التربويّة تهدف إلى تربية الناشئين على التعامل المسؤول مع تقنيات الإعلام الحديثة، وتمكنهم من استغلال المنتوج الإعلامي بأسلوب الناقد لا المتقبل السلبي[1].

يتميز العصر الحاضر بكثافة العناصر الثقافية وسرعة تفاقمها وانتشارها وتداخلها وشدة تأثيرها إلى درجة لا يمكن معها مجاراتها ومتابعتها، إلا إن التربية الإعلامية يمكنها أن تساعد المربين على ضبط هذه التأثيرات وترشيدها وبلورتها

---

1 - المصدر نفسه.

في إطار يخدم الأهداف المنشودة. ومن أبرز القضايا المعاصرة التي تعنى بها التربية الإعلامية تثقيف الناشئة بسبل فهم الأمور وتقديرها، وسبل التعايش مع الآخرين، واستيعاب مقتضيات العصر الحديث، وآليات التفاعل مع العولمة، وتعبئة الشباب لمواجهة الأحداث الجارية الطارئة وغير الطارئة، وتمكينهم من المهارات التي تعينهم على المواجهة عوضاً عن الخوف والاستسلام أو الانعزال والرفض أو التبرير، أو إسقاط المشكلات على الغير. كما تعنى التربية الإعلامية بمساعدة الطلاب على فهم حقوقهم وواجباتهم، وتقدير قيم الشورى، والإخلاص، وحب الوطن، والانتماء الصحيح، واحترام الآخر، والحرية العادلة، ومواجهة الشائعات والتضليل، ومحاربة الإنحرافات الفكرية والمنحرفين وفق الطرق المناسبة لذلك. وتوفر التربية الإعلامية مساحة كبيرة من الفرص المواتية لمعالجة المشكلات النفسية والثقافية والاجتماعية التي يعاني منها الطلاب في المدرسة كمشكلة الأمية الحضارية، والأمية التكنولوجية، والأمية السياسية، علاوة على التوترات التي تنشأ بفعل الاتصال مع الآخرين، وعدم الألفة، والتحيزية والاستغراق في المحلية وغيرها. وتلعب التربية الإعلامية دوراً بارزاً في إكساب الطلاب الثقافة الاجتماعية النقية، وامتلاكهم مهارات النقد والتقويم والتحليل وحل المشكلات والربط بين الأشياء وبين المتغيرات، والمهارات التركيبية، ومهارات الحديث والقراءة والكتابة والمهارات الاجتماعية والثقافية التي تساعدهم على الاتصال الفعال، وتمكنهم من استيعاب الخصوصيات الثقافية في علاقتها مع العموميات والمتغيرات الثقافية الأخرى. وإلى جانب ذلك، فإن التربية الإعلامية تساعد على تكوين نموذج القدوة الحسنة لدى الطلاب في المدرسة، وامتلاك الطلاب مهارات الخطابة والعرض والحوار وحسن تقدير الإنجازات، والتحمل والصبر، وتعزيز مفاهيم اجتماعية وصحية بالغة الأهمية لديهم. كما إن التربية الإعلامية يمكن تقديمها بصور وألوان شتى، وتستخدم فيها وسائط عديدة كالمعلمين والمناهج الدراسية، والإذاعة والصحافة المدرسية، والأنشطة اللاصفية والمعارض

المدرسية، والحفلات والمهرجانات والمناسبات التي تقيمها المدارس سنوياً أو فصلياً أو حسب المقتضيات التي تقوم من أجلها، إلى جانب الفنون المدرسية على اختلافها وذلك بغية إعداد الطالب لكي يكون عضواً فاعلاً في مجتمعه يملك اتجاهات إيجابية نحو الناس ونحو الأشياء ونحو العمل ونحو الإنتاج، ومشاركاً فاعلاً في علاج مشكلات بيئته ومجتمعه، وقادراً على تحقيق شروط المواطنة السليمة في تصرفاته وسلوكياته برمتها[1].

ج- الثقافة التربوية والثقافة الإعلامية

والنظام التربوي يقوم على قيم النظام المتمثلة في المحتوى الدراسي المنضبط، وعلى قيم التنافس في التحصيل والانجاز المتمثلة في التعلم الذاتي وتفريد التعليم، بينما يستند النظام الإعلامي إلى الاتصال الجماهيري الذي يهتم بالجديد دون التأمل في محتواه، وبالمواضيع المتنوعة دون التركيز على تخصص بعينه، وتقديم البرامج الترفيهية الممتعة التي يسهل فهمها بغض النظر عن ركاكة الأساليب أو تفاهة المفردات اللغوية، وهذا يظهر التناقض بين النظامين التربوي والإعلامي. ويترتب على هذا التناقض لون من التصادم في العلاقة القائمة بين المؤسسات التربوية والإعلامية، وظهور تباين واضح بين الثقافة المدرسية التي تعتمد على المعرفة ذات الطابع الأكاديمي البيداغوجي، وبين الثقافة الإعلامية التي تروجها وسائل الإعلام والاتصال ذات الطابع الترويحي المستند إلى الإثارة والدعاية. ورغم التباين الثقافي الذي توفره المؤسسات التربوية والإعلامية، ورغم التناقض في أهدافهما وغاياتهما ووسائلهما وأساليبهما، إلا أنه توجد مجالات من التجانس والتشابه بين المؤسستين التربوية والإعلامية. فكلاهما عملية إتصال، وكلاهما يسهم في التنشئة الاجتماعية للفرد الذي يقضي فترة طويلة من حياته مشاهداً لوسائل الإعلام أو متعلماً داخل صفوف المدرسة.

1 ـ أنظر: علي وطفة، ''موقف الشباب من وسائل الإعلام''، مجلة شؤون اجتماعية، العدد49 .

5 - نحو ستراتيجيات تربوية للجهات الفاعلة

أ- التكامل بين التربية والاعلام

إن نصيب الجيل الحالي من تأثيرات وسائل الإعلام الجماهيرية في تكوين ثقافته، وتحديد أنماط سلوكه، وإكسابه المفاهيم والقيم والعادات والاتجاهات، قد تزايد كثيراً في ظل تقدم تقنية الاتصالات والمعلومات، وازدحام الفضاء بالأقمار الصناعية التي تبث برامجها طوال الليل والنهار. وهذا يتطلب تجاوز القطيعة القائمة بين التربويين والإعلاميين، والتعاون في توظيف وسائل الإعلام في خدمة أغراض تربوية محددة، وتوظيف التربية في تفعيل الرسائل الإعلامية.

ومع التطورات التقنية الحديثة تحول موقف المؤسسة التربوية، وأصبحت وسائل الإعلام وتقنية المعلومات تستخدم في صلب العملية التربوية، واستخدام المعلم الوسائط المتعددة وشبكة المعلومات الدولية في إعداد الخبرات التعليمية وتوصيلها للطلاب، وأصبح التعليم عن بعد، والتعلم الإلكتروني، والجامعة الافتراضية، والمواقع التعليمية مجالات مهمة تعتمد عليها المؤسسة التعليمية.

ب-التربية على الاختيار والنقد

إن مشكلة التربية مع الإعلام لا تكمن في تأثير وسائله على النشء بقدر ما ترتبط بكيفية تعامل النشء مع ما تبثه وسائل الإعلام. وهنا يأتي دور التربية الإعلامية في إكساب الطلاب القدرة على الاختيار والنقد، وإكسابهم مهارة الفرز والانتقاء الحسن، لما يؤدي إلى نموهم نمواً متزناً متكاملاً في جميع جوانب

شخصياتهم. لكن، وللأسف، قليل من المدارس في العالم العربي يهتم بتقديم خدمات التربية الإعلامية على الصعيد المدرسي رغم الأهمية القصوى لها في تشكيل الذات أو إعادة تشكيلها. ويعود الضعف في الاهتمام بالتربية الاعلامية في العالم العربي الى غياب السياسات الوطنية المتكاملة، وغياب التنسيق بين المؤسسات المختلفة.

تبدو المؤسسة التربوية مؤهلة أكثر من غيرها لتمكين التلاميذ والطلاب من ثقافة إعلامية تجعل استهلاكه للمادة الإعلامية عامة والإنتاج الثقافي الأجنبي يتسم بالعقلانيّة والنقد. لكنّ إدراج مادة "التربية الإعلامية" يكاد يكون الأداة الوحيدة التي تستعمل في المدارس، لتوفر للتلميذ وعياً أكبر بخلفيات وسائل الإعلام والاتصال في توجيه الفكر والأذواق والسلوك. وتركّز التربية الاعلامية في المدارس على تنمية مهارات المتعلّم وقدرته على فهم أسلوب عمل وسائل الاعلام والاتصال وآلياتها وتاثيراتها.

في معظم المدارس، تدخل التربية الاعلامية في مادة التربية وضمن الدروس المقررة وخصوصا المواد المقررة كاللغة العربية وعلم النفس والتاريخ.. ومنذ سنوات قليلة تهتم المدارس بصورة خاصة بالتدريب على الحاسوب والانترنت، وباكتساب التلاميذ مجموعة من المهارات في المرحلتين الابتدائية والثانوية. وتجهّز لهذا الغرض غرفاً خاصة يدير العمل فيها متخصصون بتكنلوجيا الاتصال. وفي هذه الدورات يتعلّم التلميذ " قراءة الصورة" و تحليلها، و زوايا التصوير، ووظائف الصورة، و الربط بين النص والصورة والموسيقى. كما تشمل الدورات الفيلم والتلفزيون والإذاعة والصحافة : خطوات إنتاج الأفلام القصيرة ، أنواع الأفلام، أنواع الموسيقى، أنواع الإعلانات، تحليل المحتوى، أخلاقيات وسائل الاعلام والاتصال، وإنجاز مشاريع فيديو قصيرة.

يقول المسؤولون التربويون أن التربية على استخدام وسائل الاتصال باتت

لديهم من الأولويات في خططهم التربوية ولا مفر من إعداد المعلمين والمدربين لهذا الغرض[1].

ج- جدوى وسائل الإعلام والاتصال في العملية التربويّة

تواجه الدول العربية تحديات هامة في مجال تكنولوجيا الاتصال الحديث تتمثل في ضرورة توجيه التدخلات لتقليص الفجوة بينها وبين بقية الدول التي انخرطت في مجتمع المعلومات واستثمرته لتحقيق أهدافها التنموية، وتقليص الفجوات الموجودة بين مختلف فئات المجتمع في البلد الواحد، واعتماد مناهج تربوية وتثقيفية تمكّن الشباب من الانخراط الإيجابي في هذا المجال.

لقد تبين من خلال ما سبق، أنّ تطور وسائل الإعلام والاتصال هو تلقائي ومحتوم ومتواصل ولا مفر منه، وأنّ تأثيره على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة العربية لا يمكن إيقافه، وهذا الوضع يحتم علينا تفادي المواقف والتحاليل الكارثية والقيام بتحاليل تتسم بالوضوح والموضوعية لتحديد مناهج العمل والتدخل.

إنّ العلاقة التفاعلية بين المدرسة والأسرة تفرض علينا الحديث عن العلاقة بين وسائل الإعلام والاتصال والمدرسة. إذ انّ دور المؤسسة الإعلاميّة لا يقلّ قيمة عن دور المؤسسة التربوية في التنشئة الاجتماعية للفرد إلى جانب المؤسسة العائلية. كما أنّ الوقت الذي يقضيه الطفل أو الشاب في تعامله مع وسائل الإعلام لا يقلّ أهمية عن الوقت الذي يقضيه في المدرسة. وتعوّل المدرسة العصريّة على وسائل الإعلام لتوفير المعرفة. وتؤدي الوسائل الإعلاميّة السمعيّة والبصريّة وظيفة ثقافيّة وتربويّة حتى بالنسبة إلى من يجهل الكتابة والقراءة ولمن لم يتعلّم في المدرسة، كما أنّ التعلّم عبر هذه الوسائل يحقق في جانب هام منه وظيفة الترويح عن النفس. لذلك فانّ المدرسة ووسائل الإعلام

---

1 ـ أنظر: تقرير مكتب العمل العربي حول ازدياد معدلات الفقر والبطالة، صحيفة السفير، 16 شباط 1998.

والاتصال تخدم نفس الأغراض التربويّة وتدعم دور الأسرة في هذا المجال.

وبالرغم من الاستعمالات المتعددة والمتنوعة لوسائل الإعلام والاتصال في خدمة أغراض تربوية، فإنّ الجدل يبقى قائماً بين الأولياء والمربين حول الجدوى الفعليّة لوسائل الإعلام في العملية التربويّة. فإلى جانب المردود العلمي والمعرفي، يبدو متأكداً تحديد الجدوى من استعمال تكنولوجيا الإعلام في المنظومة التربويّة، الأسرية والمؤسساتيّة، في البلدان العربية وتحليل الأبعاد الاقتصاديّة لهذا الاستعمال في ظلّ الاختلاف في الإمكانيات المتاحة لكل بلد.

6 - تغيُّـر القِـيم الثقافية: الأسباب والحلول

أ - تغيّر منظومة القيم الاجتماعية

كشفَت الدراسات التي تناولت منظومةِ القِيم في المجتمعات العربيّة خلال الخمسين عامًا المنصرمة عن نتائِج مثيرة، في مقدمتها: شعور المواطِـن العربي بالظُّـلم واليَـأس والإحْـباط وغِـياب العدالة وانعدام الثِّـقة بين الشعب والحكومة وانحياز الدولة لرجال الأعمال وأصحاب النُّـفوذ على حساب البسطاء.

واعتبرت الدراسات أن "زيادة أعداد الفقراء ومَـن يعيشون تحت خطِّ الفقر، دليلٌ على الخلَـل الموجود في منظومة العدالة الاجتماعية"، وأن "التغيّـرات التي شهِـدها المجتمع تركت آثاراً كبيرة على سلوكِـيات المواطنين ومنظومة القِـيم وشكل الأطر الثقافية والاجتماعية". ورأت الدراسات أن "منظمات المجتمع المدني، هي الأكثر قُـدرة على قيادة الإصلاح ومواجهة السلبيات، شريطة تقديم نماذج جيِّـدة تسعى للعمل التطوعي، لا لتحقيق مكاسِـب شخصية، وأن تقدِّم نماذِج حقيقية لإنكار الذّات والتَّـفاني في خِـدمة الوطن" على الرغم من أننا "شعب بالغ التديُّـن، إلا أننا نفصِـل بين المعاملات والعِـبادات، لدرجة انتشر معها الفساد الصغير، ليشكِّـل ظاهرة وأصبح سلوكاً يومياً.. حتى أن الدراسات الخاصة أثبتت أن نِـسبة الرّشوة بين موظّـفي الدولة وصلت إلى 55 %!"..."المنظومة القيمية في المجتمع شهدت تغيُّـرات كثيرة، فأصبحت قِـيَـماً مادِية، وقلّـت معايير الثِّـقة بين الناس، كما شهدت خلَـلاً في منظومة العدالة الاجتماعية وزادت حالات الفساد والرّغبة في الكسْـب المادّي السريع، سواء من خلال تقديم الخدمات المجانية في

الهيئات الحكومية بمقابل مادّي، وهو ما يُعرف بالرّشوة أو الإكرامية"[1].

ب-الفجوة في الممارسات الدينية

وحول الفجوة التي كشفت عنها الدراسة بين المُعاملات والعِبادات، تشير الدراسات إلى أنه "لا يوجد اتِّساق بين القول والفِعل. فرغم أن التديُّن ينتشِر بشكل عام، إلا انه تديُّن شكلي ولا يمَس جوهر الدِّين الحقيقي والمُعاملات بين الناس. البعض يتصوّر أن التديُّن يعني ارتِداء ما يُسمى بالزيِّ الإسلامي أو المبالغة في أداء العِبادات، بينما أن التديُّن الحقيقي لا بد أن يمتدّ إلى السلوكيات من رفض الرّشوة والفساد"... وأن السبيل إلى الإصلاح لا بد أن يكون كلِّيا، وليس جزئيا. فيجب أن تكون هناك مُراقبة لتنفيذ هذه المبادئ في كل قطاعات المجتمع والاهتمام بإصلاح النُّظم التعليمية. فدور المدرسة لا يجب أن يقتصِر على تلقين المواد الدراسية، بل يجب عليها أن تُمارس دوراً أكبر في تعليم التلاميذ السلوك الحَسن والصِّدق والثقة في الحياة والمجتمع والدولة... "اننا نعيش في مجتمع يجِب أن نتفانى في خِدمته وننكِر الذّات في سبيله. فليس منطِقيا أن يردِّد المُدرِّس شِعارات الصِّدق والأمانة والإخلاص في العمل أمام طلاّبه، ثم يطالِبهم بأن يحصلوا لديه على درس خصوصي"..[2]

ج-أهم متغيرات القيم والسلوك

وحول دور منظمات المجتمع المدني في علاج منظومة الخلَل الاجتماعي، "هناك نماذِج عديدة لمنظمات المجتمع المدني. فهناك جمعيات تنمية المجتمع،

---

1 - شقير محمد لبيب، "الوحدة الاقتصادية العربية"، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. ص 911 - 912.

2 - زكي رمزي، "السياسات التصحيحية والتنمية في الوطن العربي"، دار الرازي، بيروت 1989، ص 35.

وهي غالباً ما تكون ذات صِبغة حكومية، وهناك جمعيات ذات طبيعة خاصة، مثل الجمعيات الفِكرية والثقافية التي يقوم بتكوينها مجموعة من الأفراد، تجمعهم ثقافات ومُيولات واحدة، وهناك الجمعيات الشرعية أو الدِّينية، سواء الإسلامية أو القبطية، وهذه هي الأهَم لكونها الأقرب إلى المواطن، والمسؤولية المُلقاة على عاتقها كبيرة، بشرط أن تسعى إلى تقديم نماذِج صالِحة للتطوّع وأن تعِي جيِّدا أن نشاطها قائم على خِدمة المجتمع وبثّ القِيم الاجتماعية وتقديم نماذِج جيِّدة للمواطن''.[1]

وبالنسبة لأهَم العوامل التي ساهمت في إحداث التغيير، هناك ''عوامِل عديدة، أهمها انتقال المجتمع من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي بصورة سريعة للغاية خلال الـ 20 عاما الماضية ومن قبل هذيْن النظاميْن، ومنذ 50 عاما، كان هناك نظام ليبرالي رأسمالي يقوم على الإقطاع وملكية مساحات كبيرة من الأراضي، ثم ظهَر النظام الاشتراكي الذي تمتلك فيه الدولة جميع أدوات ووسائل الإنتاج مثل: البنوك والمصانع وجميع الأنشطة المختلفة''، معتبرًا أن ''الدولة كانت تلعَب الدّور الأساسي في كل شيء، ثم بدأت تنسحِب وتتحوّل إلى نظام شِبه رأسمالي''، وأن ''هذه التغيّرات تركت آثارًا على سلوكيات المواطنين ومنظومة القِيم وشكل الأطر الثقافية والاجتماعية''.

1 - زكي رمزي، ''السياسات التصحيحية والتنمية في الوطن العربي''، م. س، ص 37.

VI-الفكر الاتصالي و"نظرية ثقافة المشاركة"

Participatory Culture Theory

1 - أثر تكنلوجيا الاتصال الحديثة على العلوم الانسانية والاجتماعية

2 - تجلّيات الفكر العلمي الاتصالي

3 - مراحل تطور الفكر الاتصالي

4 - النماذج النظريّة الاتصاليّة البارزة في "الثورات العربية"

5 - الإطار المعرفي ل"نظرية ثقافة المشاركة"

6 - علوم الاتصال و"نظرية ثقافة المشاركة" Participatory Culture Theory

تمهيد:

لقد بدأت رحلة البحث الإنساني من التعرف البسيط على الوقائع، إلى التفكير في جدوى التفكير ومصداقية طرق التفكير، مما مهّد لتأسيس قواعد البحث بالمعنى القديم أو الحديث للعلم، وساعد في تطور مناهج البحث المختلفة، وتبلور المنهج العلمي بمدلوله الذي هو عليه اليوم.

ومع أن التفكير المنهجي قد حقق مثل العلم نوعاً من الاستقلال عن الفلسفة، إلا أنه بقي يسبح إلى غاية اليوم في فضائها المعرفي، والدليل على ذلك إعتماده عدة مصطلحات ومعاني، مثل: ''نظرية المعرفة'' و''فلسفة العلوم'' و''الإبستمولوجيا''، وهي المفاهيم التي كثيرا ما يتم الخلط بينها، وكثيراً ما تستخدم بنفس المعنى اليوم، بالرغم من الحدود الدقيقة القائمة بينها.

وبالطبع، كانت كل مراحل التطور تشهد نوعا معينا من المعارف الإنسانيّة، تراوحت بين الأشكال البسيطة والمنظومات العقلية والفكرية المعقدة، وكلها شكّلت الإطار المعرفي paradigm لعلوم الإعلام والاتصال. وما زال هذا المجال يحتاج الى اجتهاد فكري كبير لتطوير نماذجه ونظرياته بما يتلاءم مع التطور التكنلوجي والمتغيرات الثقافية العالمية، وبالأخص متغيرات الشرق الأوسط والمنطقة العربية وحاجات التنمية فيها.

من هنا أوصلتنا جهودٌ البحثية ودراساتنا الميدانية الخاصة في مجالات علوم الاعلام والاتصال المختلفة، بناء على النظريات الحديثة الوافدة الينا من الغرب، وعلى تحليل واقعنا العربي والاستخدامات والاشباعات الحالية للاعلام والاتصال، الى الخروج برؤية مستقبليّة ترتكز على''نظرية ثقافة المشاركة''.

1-أثر تكنلوجيا الاتصال الحديثة على العلوم الانسانية والاجتماعية

أ- تأثيرات تكنلوجيا الاتصال الحديثة على دراسات الأدب

تستقبل العلوم الانسانية والاجتماعية قرن العولمة بتساؤلات ومجادلات صاخبة حول تحديد مناهجها ومنطقها ومستقبلها وأدوات بحثها وعلاقاتها بالأنظمة الأخرى، ولا يكاد يضاهيها في ذلك أي نظام معرفي آخر. وقد يرجع ذلك إلى حداثة هذه الحقول العلميّة وطبيعة امتداداتها المنهجية والمعرفية إلى مختلف أشكال المعرفة المعاصرة، بحيث تهتز جذورها وأغصانها بقوة مع الاهتزازات الكبرى التي تتعرض لها الحقول المجاورة لها.

إن احداثاً اجتماعية وثقافية مهمة ونظريات جديدة تسببت خلال العقود الاخيرة بان تواجه العلوم الانسانية والاجتماعية تحدّيات جادّة. فقد قدمت نظريات علم العلامات وعلم الرواية وما بعد البنيوية والبنوية وما بعد الاستعمار والدراسات الثقافية والتوجهات البينية للخطاب، أساليب حديثة في مجال المقارنة والتطبيق وبالتالي تحدت عملية التأثير والتأثر التقليدي لهذه العلوم.

إن هذا يعني أن الدور التقليدى للعلوم الانسانية والاجتماعية المتمثل في مجرد دراسة العلاقات الأدبية بين الأمم، بات قاصراً عن مواكبة المستجدات المليئة بالتحديات والتهديدات. وصار لزاماً عليها أن تطور أدواتها لمواجهتها من أجل الكشف عن الآليات الجديدة للتأثير الأدبي- الثقافي، وأن تتحول الى مجهر فحص قائم على درس منهجي– علمي، يمتلك جهازاً مصطلحياً وإجراءات بحثية مدروسة ومتطورة .

إننا حيث نعيش الآن في عصر انتشار المعلومات، يطرح السؤال الأساسي وهو كيف يتم تقييم أثر التقنيات الحديثة مثل الانترنت على هذه العلوم؟ او هل يجب التصديق بالموت القريب للعلوم الانسانية والآداب مثلا؟

يمكن لنظرة إلى المواقع الالكترونية الناشطة في مجال الآداب مثلا، وتحليل عينة من مضامينها أن تساعد على الإجابة عن هذه الأسئلة وإظهار كيف أن استخدام الحاسوب وتوظيف تقنياته التكنولوجية المختلفة في الكتابة الإبداعية أدى إلى إحداث تغييرات عديدة في شكل النص الأدبي ومضمونه، وبالتالي في مفاهيم وأساليب ومنطلقات الأدب.

ظهرت التكنولوجيا الرقمية وانتشرت بسرعة، وأصبح حضورها طاغيًا وله إسهامه الواضح في تطور الكثير من مجالات الحياة وأبواب العلم، وأصبحت استعمالات وتطبيقات الواقع الافتراضي في حياتنا كثيرة بحيث لا يوجد في حياتنا مجال إلا ويعتمد بشكل أو بآخر على احدى تقنيات الاتصال الحديثة. وتبعًا لذلك ظهرت لنا مصطلحات متعددة لم نكن نعرفها من قبل واستخدامات جديدة أوجدت "الواقع الخيالي - الواقع الافتراضي - الواقع المتوقع".

ومن أشهر وسائل الواقع الافتراضي شاشات العرض بمختلف أنواعها، وهناك ميزة توفرها تلك الشاشات للمشاهد تعتمد على حقيقة علمية هي أنها تملأ مجال الرؤية البصرية للمشاهد فتمنحه شعورًا بالاندماج الكامل مع المشهد، أو ما يعرف بالانغماس في الأحداث المعروضة بحيث يفقد القدرة في لحظة معينة على التفريق بين ما هو حقيقي وما تعرضه الشاشة.

وهذه الحالة التي تخلقها شاشة العرض تفيد كثيرًا ويجري تطبيقها في المجال الأدبي من خلال استخدامه لكسر حاجز الخوف لدى الشعراء وكتاب القصة المبتدئين، وتستفيد منها لجان تنمية المواهب في الأندية الأدبية، وفي المدارس عن طريق المكلّفين بالإشراف على الأنشطة الثقافيّة حيث يوجد بعض المبتدئين الذين يملكون

الموهبة الخلاقة، ويعانون في ذات الوقت حالة من الرهاب الاجتماعي وعدم القدرة على مواجهة الجمهور. وباستخدام هذه التقنية يمكن أن يتغلّبوا تدريجيًا على هذه المشكلة بأن تأتي الصورة على شكل شاشة عرض وعليها عدد كبير من الجمهور، ويلقي الشاعر أو القاص نصوصه على الجمهور الافتراضي، ومع التكرار سيجد المبتدئ نفسه قد تجاوز إشكالية الخجل والرهاب الاجتماعي وعدم القدرة على مواجهة الجمهور وهذه التقنية معمول بها في وحدات المعالجة النفسية للرهاب والآلام في كثير من الدول.

ومن وسائل العرض المهمة الأخرى نظارات العرض الإلكترونية حيث تكون هناك شاشة صغيرة على كل عين من عيني المشاهد تتيح رؤية ثلاثية الأبعاد، وذلك عن طريق عرض المشهد على كل عين بانزياح بسيط أو انحراف بسيط بين الصورة المعروضة على العين اليمنى والصورة المعروضة على العين اليسرى وهو ما يجعل الرؤية بهذه النظارات رؤية مجسمة ذات عمق أو بعبارة أخرى أدق (رؤية ثلاثية الأبعاد). هذا العرض يستلزم بناء حجرات أو غرف مصغرة متطورة لتدريب الشعراء أو القاصين أو الإذاعيين ومقدمي البرامج في المجالات الأدبية والتعليمية والثقافية، ومن يتطلب منهم مواجهة الجمهور لتدريبهم على كيفية الإلقاء وحركة الجسد والإيماءات ورفع الصوت وخفضه.

ولا يقتصر هذا الدور للواقع الافتراضي على التدريب للمبتدئين في المجالات الأدبية، بل يتعداه إلى خلق واقع آخر للنصوص من خلال استخدام تقنيات شاشات العروض كاحدى تطبيقات الواقع الافتراضي، وذلك برفد النصوص بالمشاهد المناسبة والأصوات والجرافيكس والفلاشات التي تعطي بعدًا للنص يجعل المتلقي يندمج مع النصوص بشكل كبير وتكون عامل جذب نحو النص. وقد يأتي اليوم الذي يأتي الشاعر أو القاص محملًا نصوصه على جهاز الحاسب المحمول وملقيًا نصوصه على الجمهور، بمصاحبة تلك المؤثرات الصوتية والبصرية مما يعطي النص بعدًا آخر غير الإلقاء.

وقد بدأ بالفعل بعض أرباب الأدب في تطبيق تقنيات الواقع الافتراضي والإفادة منه في خلق نصوص أدبية تستخدم الواقع الافتراضي وتطبيقاته على شكل روايات تستخدم فيها مؤثرات بصرية وصوتية وفلاشات مناسبة، منها مثلاً رواية للأديب الأردني "محمد سناجلة" عضو اتحاد الكتاب العرب وبعض الأمسيات التي أحياها "محمد حبيبي" باستخدام شاشات العرض، مما يجعل النص الأدبي ليس مجرد مادة مكتوبة أو ملقاه شفهيًا بل مادة يصاحبها مؤثرات عدة تجعل النص أكثر جمالًا وتجبر المتلقي على الاندماج مع النص، لاحتوائها على مؤثرات متنوعة يتم توظيفها لخدمة النص بشكل احترافي لأنها تؤدي إلى حدوث اندماج كامل للمشاهد مع النص، وتمنح المشاهد هذا الشعور تجاه النص. بل إن المدهش أنه في بعض النصوص تأتي الصورة والصوت والحركة لتضيف على الدلالة المعتادة للكلمات شحنات إضافية تجعلها أكثر كثافة أو أكثر شعرية، فضلًا عن أن أي كلمة في النص يمكن أن تكون رابطًا لنص متفرع يضيء تلك الكلمة، أو أن تحمل تعليقًا يظهر بمجرد مرور مؤشر الفأرة فوقها، ليضيف معنى مخبأ ربما يحل غموضًا لا يفهم من غيره.

وسيأتي يوم تكون النشاطات الأدبية المنبرية افتراضية ومادة محفوظة على أقراص صلبة يمكن اقتناؤها من محلات الفيديو وألعاب البلاي ستيشن كما هو الحال مع مباريات كرة القدم وسباقات السيارات حاليًا، بحيث يتم اقتناء شريط بلاي ستيشن عليه مادة أدبية (شعر - قصة - خاطرة) لشعراء وأدباء يمثلون أدباء الواقع كما هو الحال مع لاعبي كرة القدم، فيما الجمهور افتراضي والمتلقي الحقيقي يشاهد عبر الشاشة مجريات هذا النشاط الافتراضي الأدبي ويتفاعل معه، بل يختار نوع الأمسية وفرسانها والنصوص المقدمة كما هو الحال في مباريات كرة القدم الإلكترونية. وبالتأكيد أن هذا الأسلوب يتقاطع مع ثقافة الجيل الرقمية والتقنية، وإذا كان هناك توجه جاد لاستقطابهم فمن المهم أن نحترم هذا الميل نحو التقنية الحديثة ونحو التكنولوجيا الرقمية، وسيكون هذا عاملًا مساعدًا نحو تقريبهم من مرافئ الأدب ونشاطاته ومنابره والأمر ليس صعبًا

بل هو متاح جدًا فشركات الإنتاج تستطيع أن تنجز مثل هذه الأشرطة، وما يمنعها فقط هو خوفها من ألا تحظى بالرواج الذي تحظى به مباريات كرة القدم الإلكترونية، وإلا فإنها ستفعل وستنتج "نشاطات أدبية إلكترونية[1]".

هناك استخدامات أخرى ممكنة لهذا الواقع وخصوصًا في مجال التدريب على كتابة الأجناس الأدبية المختلفة "الشعر - القصة - الرواية - الخاطرة - وما سواها من الأجناس الأدبية" بأن يقوم المتلقي باقتناء المادة الأدبية المحملة على قرص صلب ويقوم باختيار الجنس الأدبي الذي يرغب فيه واسم المدرب الذي يرغب تلقي الدورة على يديه وبعد ذلك يتلقى التعليمات ويطبقها. ويمكن للأندية الأدبية ولدور التربية وللجهات الراعية للثقافة إيجاد مواقع وبوابات إلكترونية تحقق هذا الهدف وتفيد من هذا الواقع.

وكذلك فإن الواقع الافتراضي يستخدم في مجال التصميم لكونه أحد أكثر المجالات استفادة من تكنولوجيا الواقع الافتراضي، وتتيح هذه التقنية لدور النشر إمكانية أن تعرض تصاميم مختلفة للراغب في طباعة كتاب مثلًا عبر رحلات فيديو افتراضية توضح كامل صفحات الكتاب المراد طباعته، وعدد صفحاته وشكله وتصاميمه وحجمه من مختلف الزوايا، مما يتيح للمؤلف فرصة مشاهدة نسخة أولية من الكتاب مع إمكانية التعديل والحذف والإضافة كما يشاء ويقوم بالتنسيق واختيار الألوان عن بعد[2].

هكذا وجد الأدباء فضاء خصباً لاستثمار رغبة الذات في التعبير تحت فيض الإمكانيات التقنية والمعلوماتية والمعرفية التي تقدمها هذه الثقافة، وكذلك ما تقدمه وسائطها من خدمات مبهرة ومدهشة بدون قيد أو رقيب يعطل عملية الانطلاق في البحث والاكتشاف، وفي إمكانية التعبير والإبحار في المعلومة. ولعل هذا التحول في أدوات التواصل مع المعرفة، بالشكل الخدماتي السريع والفعال، قد

---

1 - عبد النبي اصطيف، دعوة إلى المنهج المقارن في دراسة الأدب العربي ونقده. مجلّة الآداب الأجنبية، ع 25، ربيع وصيف 1987، ص 97 - 116.

2 - نفسه

ساهم في تطور أشكال التعبير التي لا شك أنها تعبر عن التحول في رؤيا العالم. فقد شهد الأدب ومختلف أشكال التعبير شكلاً جديداً من التجلي الرمزي، باعتماد تقنيات التكنولوجيا الحديثة، والوسائط الإلكترونية. وإذا كانت كل حقبة تاريخية يعبر أفرادها عن علاقتهم بالعالم، وتصورهم للوجود من خلال عدد من الأشكال الرمزية بالخصوص التي تكون ذات علاقة بآليات التفكير والمناهج والتواصل المتاحة، فإن الأدب الرقمي أو التفاعلي الذي يتم في علاقة وظيفية مع التكنولوجية الحديثة، لا شك أنه يقترح رؤى جديدة في إدراك العالم، كما أنه يعبر عن حالة انتقاليّة لمعنى الوجود، ولمنطق التفكير. وتبقى ثوابت:

1 - أن بناء أي تصور معرفي ومفهومي لممارسة أدبية، ينطلق من ذاكرة ثقافية ونصية بما فيها الموروث والحداثي.

2 - أن أي شكل أدبي لا يولد من العدم، كما أنه لا يتلاشى، وإنما يستمر في أشكال تعبيرية سواء كخلفية نصية، أو يدخل في علاقة جديدة مع البناء الجديد، ليستمر وجوده باعتباره ذاكرة للكتابة والنص والتعبير.

3 - أن كل شكل جديد للتجلي الأدبي، يطور نظرية الأدب ولا يلغيها[1].

اذا أخذنا كمثل الأدب المقارن العربي- الفارسي، نرى أنه يشكّل حدثًا ثقافيًا تبادليًا غير مسبوق تقريبًا في تاريخ الثقافة الإنسانية، وذلك بالنظر إلى خصائصه ومواصفاته ونتائجه. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى بعض الفرضيات المؤسسة لمسألة الاتصال الثقافي العربي- الفارسي وهي[2]:

1 - كان التواصل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ شاملًا ومولّدًا لأشكال ومجالات معرفيّة متعدّدة.

---

1 - المصدر نفسه.

2 - خالد وليد محمود، "هل ثمة تداخل ثقافي عربي فارسي؟"، تاريخ النشر: الأربعاء 24 سبتمبر 2014، موقع الأخبار:

http://www.alalkhabar now.net/news/145843/2014/03/24/

2 - لم يكن التّواصل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ مجرّد حدث تاريخيّ يتحرّك أفقيًّا من نقطة إلى أخرى، بقدرما كان حدثًا إنسانيًا فريدًا قام على عدد من القضايا الثّقافيّة والمعرفيّة المتشابكة.

3 - أخذت المعطيات الثّقافيّة الفارسيّة الّتي دخلت إلى المجال الثّقافيّ العربيّ هوية جديدة وأبعادًا مفارقةً.

4 - تميّز التّواصل العربيّ الفارسيّ بالقبول والتّلقائيّة، ولم يعرف الممارسات التّحميليّة الجائرة في عمومه.

5 - تميّزت أدوار العقل الفارسيّ داخل الثّقافة الإسلاميّة بخصائص مؤثّرة، خاصّة في نشأة المدارس الفكريّة والفلسفيّة الإسلاميّة.

6 - أنتج التّواصل العربيّ الفارسيّ حضارةً إنسانيّةً كان لها الدّور الأهمّ في التّحوّلات الّتي عرفتها البشريّة في الغرب مع النّهضة الإنسيّة خلال القرنين 15 و16 الميلاديّين.

وفي هذا الإطار، يمكن الإشارة إلى أن تاريخ العلاقات العربية الفارسية الأسطوري منه والمدوّن لا يخرج عن قاعدة عامة حكمت التفاعل بين الطرفين وهي قاعدة المد والجزر على المستويات كلها، لذا فإنّ:

7- العلاقات العربيّة الفارسيّة قبل الإسلام لم تكن دائمًا علاقة بين طرفين متكافئين، فقد كان العرب لقرون قبل ظهور الدّين الجديد في وضعية التّابع للإمبراطوريّة الفارسيّة، ممّا رسّخ في أذهان الفرس تلك النّظرة الدّونية إلى العرب، ورغم ذلك كان بعض ملوك فارس يُقدّرون ملكة الشّعر عند العرب، ويعتبرونها عامل تميُّز في حياتهم الصّحراويّة. كما أن العلاقات الثّقافيّة العربيّة الفارسيّة قبل الإسلام لم تحقّق كفايتها التّبادليّة، إذ لم تنضج تلك العلاقات ولم تكن مؤهّلة لبلورة تداخل ثقافيّ عميق، لكنّ ثمة وجودًا لمؤثّرات تفاعلية شكّلت الأرضيّة الخصبة لاكتمال الشّروط التّاريخيّة في ما بعد لانطلاق صيرورة التّداخل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ.

8 - يُمثّل الإسلام المُحفّز الأكثر تأثيرًا في التّداخل العربيّ الفارسيّ، وهو الّذي ميّز بوضوح بين ما قبله وما بعده في مسار العلاقات الثّقافيّة العربيّة الفارسيّة، بحيث يستطيع الجميع أن يُلاحظ حضور عامل مركزيّ جديد في حركة التّداخل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ، نَقَل المُجتمعين العربيّ والفارسيّ نقلة نوعيّة إلى مسرح التّفاعل العالميّ[1].

9 - إنّ نزول أوّل آية قرآنيّة تأمر النّبيّ، عليه الصّلاة والسّلام، بالقراءة أعطى للهوية الثّقافيّة الإسلاميّة المتشكّلة سمة الوعي المبدع والمتطلّع للآفاق، وهو ما أسّس العلاقة بين الدّين الجديد والثّقافة منذ الوهلة الأولى على محور الإنسان. كما لم يترك الإسلام العلاقة بين الدّين والثّقافة ساكنة أومحكومة بتلقّي الثّانية من الأوّل، بل ميّزها بعنصر الإبداع. وقد مثّلت فترة الرّسالة النّبويّة مرحلة نضج المنهاج النّبويّ في معالجة الحياة الإنسانيّة. هذا الفهم الجديد للجهد الثّقافيّ الإنسانيّ أعطى للعرب قابليّة للانفتاح على الشّعوب الأخرى وتقبّل عناصرها الثّقافيّة تفاعلًا وتبادلًا.

10 - إن التّواصل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ كان عملية واعية ومدركة، إذ ميّز معظم الفاعلين الفرس والعرب في هذا المسار بين انتمائهم لمشروع ثقافيّ تداخليّ عالميّ، وانتمائهم للخصوصيّة المحلّية، وأظهرت الكثير من النّصوص نجاح هؤلاء في تفادي الاصطدام بين الخاصّيتين الذّاتيّة المحليّة والعالميّة التّداخليّة، بل أبدعوا أيّما إبداع في استثمار قوة الأولى لأجل إغناء الثّانية.

11 - تعرّض مسار التّواصل الثّقافيّ العربيّ الفارسيّ طوال القرون الأربعة الماضيّة لضربات قاسيّة، وكان التّعصّب الطّائفي والأيديولوجيّ من أهمّ الوسائل التي استخدمت في تقويض هذا المسار. ويعتبر وصول الصّفويّين إلى سدّة الحكم في بلاد فارس، لحظة حاسمة في هذا السيّاق، حيث، ولأول مرة في تاريخ فارس

1- خالد وليد محمود، ''هل ثمة تداخل ثقافي عربي فارسي؟''، **م. س.**

الإسلامي، يتحالف الاستبداد والتعصّب العرقيّ والطّائفيّ، لتبدأ عمليّة عزل البلاد عن فضائها الحضاريّ شيئًا فشيئًا؛ إذ دفعت رغبة الصّفويّين -ذوي الأصول التركيّة السّنية، في الحصول على مشروعيّة تاريخيّة ودينيّة لحُكمهم، إلى توظيف عنصريّ للمذهب الشّيعي الإثني عشري، والقوميّة الفارسيّة في حرب عسكريّة وثقافيّة ضد الخلافة العثمانيّة[1].

ب- تأثير الإنترنت على أشكال الإبداع والتلقي

ننطلق من فرضية ذات شقّين: الأول: اختلاف الأداة يؤدي إلى اختلاف في طبيعة المنتج. أما الثاني، فهو: إختلاف المنتج يؤدي إلى إختلاف في كيفية التعامل معه، بمعنى أن التحولات التي أصابت النص ستقود إلى حصول تغييرات مقابلة في طريقة تلقيه. ولا بد من التمييز في النصوص الرقمية بين نوعين: بسيطة ومركبة: البسيطة هي التي نشرت إلكترونيا على شبكة الأنترنت بدون توظيف تقنية الوسائط أو تقنية النص الممنهل hypertext. أما النصوص المركبة، فهي التي تنشر على شبكة الأنترنت مع توظيف تقنية الوسائط أو تقنية النص المتشعب أو هما معاً بما يجعل من المتعذر الحصول على نسخ ورقية من هذا النوع من الأعمال ورقيا.

وقد أظهرت نتائج إحدى الدراسات التحليلية الحديثة[2] كيف أن استخدام الحاسوب وتوظيف تقنياته التكنولوجية المختلفة في الكتابة الإبداعية أدى إلى إحداث تغييرات عديدة في شكل النص الأدبي ومضمونه. تشكّل متن التحليل من : ''رواية بنات الرياض'' لرجاء الصائغ السعودية، والمجموعة القصصية ''أحاديث الأنترنت'' للسورية ندى الدنا، وقصيدة ''غرف الدردشة'' للسعودي

---

1 ـ المصدر نفسه.

2 ـ عز الدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، دار الكرمل، عمان 1988.

عبد الرحمن ذيب، وقصة "المسيخ إلكترونيا" للمغربية حياة الياقوت، وقصة "بريد إلكتروني" للمغربية فاطمة بوزيان، وقصيدة "ذاكرة الأنترنت" للمصري أحمد فضل شبلول، ثم ديوان "ولي فيها عناكب أخرى" للمغربي طه عدنان. وقد حلّلت الباحثة كل عمل من الأعمال السابقة بغاية تبيّن تأثّرها بنشرها إلكترونيا في شبكة الأنترنت، فخلصت إلى أنه على الرغم من حفاظ هذه النصوص على خصائص النص الأدبي الورقي وعدم توظيفها للتقنيات التكنولوجية التي يتيحها الحاسوب وشبكة الأنترنت، فهي تأثّرت بمجرد نشرها عبر شبكة الأنترنت، وذلك في جوانب كثيرة جمَّعتها الباحثة في المحاور التالية:

1 - بروز الانترنت موضوعا رئيسيا في الخطاب الأدبي: حيث عالجت جميع النصوص المدروسة موضوع الشبكة ومدى تأثيرها على حياة الإنسان المعاصر من حيث أنه صار شديد الارتباط بها، تتأثر تفاصيل حياته اليومية وعلاقاته بالآخرين عبرها، كما أن الأدباء يعسكون في نصوصهم تصوراتهم حولها ومواقفهم منها بحيث صارت محورا لإنتاجاتهم الأدبية.

2 - تأثير الأنترنت على لغة الخطاب الأدبي: ويتمثل في استعمال ثروة لغوية جديدة، كما في الثراء الطباعي، واستخدام اللغة الأنجليزية، والكتابة باللغة العامية.

3 - تأثير الأنترنت على طول الخطاب الأدبي: ويتجلى أساساً في جنوح الأدباء إلى كتابة نصوص قصيرة لاعتبارات غير أدبية تتمثل في الإرهاق الجسدي الذي تسببه القراءة في الشاشة، ومواكبة إيقاع السرعة الذي بات يسم العصر، وتوفر كم هائل من النصوص في الشبكة، وآليّة الكتابة التي ولدها الميل للاختصار وتقليص الجهد العضلي، وأخيرا حريّة النشر التي باتت حقّا للجميع.

4 - تغيير مفهومي الزمان والمكان في الخطاب الأدبي الأنترنتي: ويتجلّى في إلغاء الشبكة للمقولتين السابقتين بمعناهما المتعارف عليه لفائدة مكان وزمان

افتراضيين يُحَيِّدان البعد الفيزيائي والوقتي لصالح وجود ينصهر فيه الهنا والآن لدى سائر المتواجدين في العالم الافتراضي.

5 - أن استخدام الوسائط المتعددة التي تتيحها برامج الحاسوب والأنترنت في الكتابة الأدبية قد أدى إلى إحداث تغييرات عديدة في شكل النص ومبناه الخارجي: ما تولد عنه أجناس أدبيّة جديدة تجمع بين خصائص أدبيّة من جهة، وخصائص تكنولوجية من جهة أخرى. هذه الأجناس تتحدّد، حسب المؤلّفة في: الشعر البصري الرقمي الذي ميزت فيه بين نوعين فرعيين: أولهما يعتمد على توظيف مؤثرات بصرية وأخرى قصائد وثانيهما يعتمد على توظيف مؤثرات بصرية وسمعية، ثم الشعر الجمعي، وأخيراً النصوص التفاعلية المتخلفة التي تتفرع إلى رواية / قصة تفاعلية، ورواية الواقعية الرقمية التفاعلية، ثم الشعر التفاعلي. إضافة إلى ما سبق، فمتى اعتبرنا الفلاشات الدعوية أدبا رقميا حصلنا على كم هائل من النصوص الأدبية العربية الرقمية، من جهة، ما لا يجرؤ ناقد على زعمه، ثم وجدنا أنفسنا أمام ضرورة إدراج البطاقات الفلاشية التي تعج بها مواقع عربية وأجنبية ضمن الأدب الرقمي من جهة ثانية، وسبق أن كانت هذه البطاقات موضوع نقاش في منتديات اتحاد كتاب الأنترنت العرب دونَ أن تُدرج ضمن الأدب الرقمي لا لشي سوى لأنها، شأنها شأن الفلاشات الإسلامية، لا تتوفر على خاصية التفاعل[1]. ولا بد من الى الاشارة الى التّحولات التي طرأت على تلقّي النص نتيجة للتغييرات التي لحقت بالنص نفسه والتي تعتبر جميعا محصلة تأثير شبكة الأنترنت وما أتاحت من إمكانيات للقارئ والكاتب على حد سواء. فعلى صعيد القراءة أو التلقي، رَصَدَ البحث لدى قارئ النصوص الرقمية خاصيات الإبحار والمزاوجة في التلقي بين المشاهدة والاستماع، ثم الإبداع الذي يميز فيه

1 ـ راجع: المصدر نفسه.

بين مبدع مقيد وآخر حر. الأول هو ''ذلك التلقي الذي يبني نصه من خلال روابط إبحاره بين الروابط التي يتضمنها النص، أي هو المتلقي المبحر الذي يختار بين الروابط العديدة والإمكانيات المختلفة التي يتيحها النص، فيشكل نصاً جديداً من حيث البناء والسيرورة والتشكيل، كما تمليه عليه رغباته وحب استطلاعه وفهمه. هذا المتلقي يحقق إبداعه من خلال إسهامه في العملية نفسها حيث لا يبقى مكتفيا بمتابعة النص، بل يبني ويصوغ بطريقته الخاصة وهو ينقر على الفأرة ويتحرك في جسد النص الذي يقرأه''. أما المبدع الحر فهو ''المتلقي الذي يملك مطلق الحرية في الإبداع وذلك حين يشارك هو في كتابة النص حقيقة، دون أن يكون مقيداً بالاختيار من بين إمكانيات متاحة، و نجد مثل هذا المتلقي في النصوص الجمعية، وهي التي تطلب من المتلقي أن يشارك في بناء النص وكتابته''. وأخيراً التعليق، وهو شكل هام من أشكال التفاعل، وفيه ''يستطيع المتلقون التعليق على النصوص التي يقرأونها بشكل مباشر على الشبكة''.

فيما ظل تفاعل المتلقي مع النص الورقي محدوداً ومحصوراً في الحيزين الذهني والمعنوي أتاح النص المنشور في الشبكة للقارئ أشكالا تفاعلية جديدة مثل تصفح متن النص والتجول عبر روابطه وقراءته قراءة غير خطية والتدخل في بنائه ووجهات مساراته والاستمتاع بمشاهدته أثناء تشكله والاستماع إليه، ثم المشاركة والمساهمة في كتابته وصياغته، فضلاً عن التعليق والتعقيب والإدلاء بالرأي حول النص وحول تفاعلات متلقين آخرين معه[1].

ج- الخصوصية الثقافية للآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية

الأدب المقارن هو فن وعلم جوّد أساليبه أدباء الغرب وفنانوه ونقاده خلال

1 ـ المصدر نفسه.

القرن التاسع عشر وقد ظهر وترعرع في أحضان الصالونات الأدبية ونما خلال سيطرة الفلسفة الإنسانية humaniste phlosophy على المفكّرين والأدباء. وتطوّر شيئاً فشيئا وتقننت أطروحاته وتجلت معالم مناهج دراسته المختلفة، وظلت الروح الخفية التي تحركه متمثلة في البحث الجمالي عن المختلف والمؤتلف بين آثار وروائع أدبية إنسانية تنتمي لآداب مختلفة[1].

وليس من مقاصد الأدب المقارن في شيء المفاضلة بين الشعوب والأمم وإنما المقصد الأساسي هو تكريس عقلية الحوار ومبدأ التعارف الحضاري بين الشعوب والآداب. غير أن عصر العولمة قد هجم على الساحة الثقافية العالمية وحاولت نزعاته الاستهلاكية طمس الخصوصيات الثقافية لشعوب المعمورة قصد تدجينها وقولبتها في نسخة واحدة مكرسة.

فكان من تحديات هذا العصر الجديد أن تتصدى الآداب والفنون لهذا التنميط المتجاهل لطبيعة الأدب والفن الإنسانيين القائمة على روح الاختلاف الخلاق.

رغم اختلاف اللغات والقوميات والمناطق الجغرافية وتاريخ الشعوب، كان للأدب دور كبير في تذليل كلّ هذه الفوارق ليكون جسر عبور ما بين الثقافات يمكّن من الانفتاح على ثقافات عديدة. ومن هذا الاحتكاك الثقافي نشأت فكرة المقارنة بين الآداب المختلفة، ليظهر علم أو فنّ "الأدب المقارن" خلال القرن التاسع عشر الذي أجمع النقّاد على أنّ هذا العلم/الفنّ قائم على المقارنة بين آداب في لغات مختلفة دارساً علاقات التأثير والتأثّر بينها وباحثاً عن مواطن الائتلاف والاختلاف فيها.

غير أن عصر العولمة "قد هجم على الساحة الثقافية العالمية وحاولت نزعاته الاستهلاكية طمس الخصوصيات الثقافية لشعوب المعمورة قصد تدجينها وقولبتها

1 ـ فيكتور جيرمونسكي، التيارات الأدبية بوصفها ظاهرة دولية. تر. غسان مرتضى الآداب الأجنبية، ع. 83، صيف 1995، ص 137 - 174.

في نسخة واحدة مكرسة[1]''.

ولعل الأدب المقارن من المناهج الحديثة التي تظلّ قلعة تصمد عندها الآثار الأدبية العالمية من مغبة المتاجرة بها في سوق العولمة. فمن واجبات النقاد الذين يزاولون الأدب المقارن أن يحسنوا التعامل مع العولمة الثقافية في سبيل تحقيق الاستثناء الثقافي، وهو أمر مطروح بإلحاح نظرا إلى الحاجة إلى رفع الضيم عن الجانب الثقافي الذي لا يمكن أن نقصيه من حيز الإبداع والتفرد بدعوى التعميم والعولمة. ''في العالم العربي لا مناص من ذكر إدوار سعيد الذي أحسن تمثيل العرب في هذا المجال وأبدع في نقد العقلية الكولونيالية وعرّى النظرة الاستشراقية للفكر والأدب العربيين. فبمثل أعماله نجد مكاناً تحت شمس الإبداع الإنساني، ويظل الأدب المقارن مهما في تحقيق التواصل والتحاور الحضاري والأدبي بين الأمم''[2].

بل ان ''مشروعية الأدب المقارن'' تزداد على مرّ الحقب والأعوام وتغير المناخات الثقافية والتقارب بين الشعوب. فالعولمة والثورة المعلوماتية والاتصالات الحديثة تؤدي الى البحث عن وجوه التلاقي بين الآداب والثقافات وتسهم في اكتساب هذا الفرع من البحث المزيد من الشرعية. ذلك أن التقارب بين البشر يؤدي الى بروز جوانب خفية تقتضي المقارنة بينها، لهذا فكلما ترسخت فرص اللقاء ازدادت اتجاهات الأدب المقارن ثباتاً ورسوخاً.

وفي الامكان ولوج الآداب عكسياً فعلى سبيل المثال يمكن أن يثبت الباحث قيما مسبقة يسعى الى البحث عنها في أدبين مختلفين أوأكثر. من ذلك، مثلا يمكن مجاراة تودوروف في الايقونات التي وضعها لعصر الأنوار وهي الاستقلالية/

---

1 ـ أنظر: حسام الخطيب، الأدب المقارن. الجزء الأول: في النظرية والمنهج، جامعة دمشق 1982.

2 ـ عبده عبود، الأدب الألماني، دراسة استقبالية في الوطن العربي. (الآداب الأجنبية) ، العدد 48، السنة 13، صيف 1986، ص67 - 89.

اللائكية/الحقيقة/الانسانية والكونية، ثم التنقيب في الآداب الفرنسية والآداب العربية عن مداخل تثبت التداني أوالتباعد بينها. لهذا فالامكانات كثيرة متنوعة. والعولمة تنمّي فرص المقارنة وتكسبها تفرّعات كثيرة جديدة ولا تحدّ منها أو تعوقها. وقد غيّرت مفهوم "الوساطة" القديم واختصرت الوسائط التقليدية، لهذا فمن نافل القول أن نجزم بأنها تفتح أفاقا جديدة للبحث.

لكن مشروعية بقاء الأدب المقارن في عصر العولمة والثورة المعلوماتية ثابتة أكثر من أيّ وقت مضى، بل تحوّلت بسبب وسائل الاتصال الحديثة وبفضلها إلى ضرورة تحتّمها كثرة التواصل بين الثقافات وسرعة التبادل الأدبي والفني، وهو ما لم يتوفر في الماضي إلى منتصف القرن العشرين. وهذه الوسائل التقنية بالذات صارت تخدم الأدب المقارن لأنّها توفّر له مجالات عديدة وخصبة للمقارنة، وتيسّر له رصد التحوّلات الأدبيّة وارتحال الفنون من بلد إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى ومن كتاب إلى آخر. ثم إن تخزين المعلومات وسرعة الوصول إليها ودقة توظيفها كلّ هذا صار يساعد على المقارنة وقياس مدى التأثر والتأثير ومدى الخروج عن الأنماط المعهودة، والتمرّد على النماذج والقوالب التي تريد أن تفرضها العولمة لإلغاء كلّ خصوصية ثقافية إقليمية أومحلّية، وليس دور الأدب المقارن متمثلاً في التصدي لاكتساح العولمة والغزو الثقافي بل هو يرصد المواجهات ويقيّمها ويفسّرها. وبذلك فقد مكّنت الظروف الراهنة هذا العلم من توسيع مجالاته وتدقيق مقارباته وربح الوقت في رسم المشهد وتحوّلاته المختلفة[1].

وإذا ما طرحنا جدوى الوجود بالنسبة إلى الأدب المقارن العربي-الفارسي في ظل العولمة والثورة المعلوماتية، فإنّه من المنطقي تعميم السؤال على الظاهرة الأدبية جملة وحيثيّات وجودها في ظلّ عالم الوسائط، ولذلك نرى أن هذه المستحدثات

---

1 ـ دراسة الأدب العربي الحديث في جامعاتنا، أزمة عقليات أم أزمة هيكلية، الموقف الأدبي، ع265، أيار 1993، ص 145 - 136.

هي مساعدة للأدب بعامة وللأدب المقارن خاصة، لا سيّما وأن الأمر لا يتعلق بالأدب وحده وإنما بالثقافة كلها، أي ثقافات الأمم ومنتجاتها الحضارية. أي أن التواصل الذي سيكون دافعه بشكل او بآخر حاجتنا إلى معرفة الآخر والتواصل معه وفهمه وإفهامه ذواتنا وهي الحالة التي تكاد تصل إلى حالة القفل أو الانسداد كما يسميها الباحثون، يمكن للمقارن أن يجد فيها ضالته لاسيما وان المنتج الأدبي يصله راهنا لا مستتبعا، وهو ما يسمح له بمعرفة الآخر وتعريف الآخر به من خلال. مجموعات من الاشتغالات، اهمها: اطاريح التلقي لاسيما التلقيات المختلفة والآنية والمتعاقبة واطاريح تكامل المعارف وتداخل العلوم في ما بينها: تداخل العلوم الانسانية من جهة، وتداخل هذه العلوم مع نظيرتها الحقة، مما يسمح بالحديث عن تكامل معرفي لثقافة الذات مقابل تكامل معرفي لثقافة الآخر[1].

إن من إيجابيات الثورة المعلوماتية عدم التأخّر في الاطلاع على منتج الآخر، علماً أنه قد يتأخّر الاستيعاب، لكن ما يهمّ هو أن تتم المواكبة بما من شأنه تجاوز الانحصار في ما هو كلاسيكي و الأمر حاصل لا سيما مع المتخصصين القادرين على ملاحقة الأسس التنظيرية المستجدة وصياغة التطبيقات وإعادة صياغتها بما يتماشى مع الحداثة الأدبية من جهة، والنقدية المنهجية من جهة ثانية، والمعلوماتية الصناعية من جهة ثالثة، بل يمكن اعتبار ان بعضا من هؤلاء بسب انشغالاته باللآفاق ومعرفته بالأسباب وممارساته المقارناتية وقربه من مواطن الخلل، بوسعه العمل على الوصول إلى تنظير منطلق من مرجعيات فكرية خاصة، أساسها المعرفة بالمجال وحدوده وآفاقه من خلال استشراف حالات الدرس، خصوصا و أن المستجدات في مجال الأدب ونقده تتعدد وتتجدد باستمرار[2].

---

1 ـ أنظر: الأدب المقارن ـ مدخل نظري ودراسات تطبيقية، منشورات جامعة البعث، حمص 1992.

2 ـ نفسه.

يبقى الأدب المقارن الحديث بحكم كثرة الإنتاج وتجدّده وتعدّد التجارب وتشابهها واختلافها في مختلف الثقافات هو المجال المفضّل للدراسة المقارنة. وقد تقلّصت اليوم مجالات الأدب المقارن العربي - الفارسي، فتخلّى عن البحث في صورة البلدان والشعوب في آداب الغير إلى التاريخ والجغرافيا، كما تخلّى عن دراسة المذاهب الفكريّة إلى تاريخ الأفكار، والأجناس الأدبيّة إلى الأدب العام، وتوسّع من ناحية أخرى وظهرت له مجالات جديدة كان رواد المدرسة الفرنسية يقصونها من مجالات الأدب المقارن مثل المقارنة بين آداب مختلفة مكتوبة في لغة واحدة. فقد كان يعتبر اختلاف اللغات شرطاً أساسياً للمقارنة ثم تبين أن اختلاف المضامين والتوجهات والمصادر لا يقلّ أهمية عن اختلاف اللغات. فالآداب المكتوبة بالفرنسية مثلاً تختلف من ثقافة إلى أخرى، فتجد الأدب الكندي والأدب البلجيكي والأدب الافريقي والأدب المغاربي، وكلّها ناطقة بالفرنسية لكنّها تختلف عن بعضها البعض كما تختلف عن الأدب الفرنسي المكتوب بالفرنسية. لذلك يقصيها مؤرّخو الأدب الفرنسي من تاريخ الآداب الفرنسية فيسعفها الأدب المقارن ببيان خصوصياتها وتميّزها وربما امتيازها بالنسبة إلى الأدب الفرنسي داخل فرنسا. وصار الأدب المقارن لا يستنكف المقارنة بين الأدب النسائي والأدب الرجالي مثلا، وبين أدب الشباب وأدب الكهول، أو بين أدب البيض وأدب السود في أمريكا أوإفريقيا الجنوبية. وتوسّع المجال إلى الأدب الآسيوي والأدب العربي الحديث فعقدت مقارنات لمعرفة ما أخذاه عن الأدب الغربي وما زوّداه به من تقنيات وموضوعات شتى. فالاتجاه إذن يسير نحوالآداب الحديثة مشرقاً ومغرباً والفضل يعود إلى وسائل الاتصال الحديثة وخاصة منها الانترنت.

إلحاقاً بما سبق لم يعد قدر الأدب المقارن العربي-الفارسي الاقتصار على الآداب الكلاسيكية فحسب وإنما بات عليه السعي إلى اكتشاف أرض جديدة للبحث في تلك العلاقات الكائنة بين الثقافات على مستوى أوسع خاصة وأن الأدب

المقارن نفسه لم يتوقف عند كل الأجناس الأدبية، فقد كان للملحمة والرواية والمسرحية النصيب الأكبر فى سياق الدراسات المقارنة.

فى مقابل ذلك لم يكن حظ القصة القصيرة بالقدر الذي يجعلها مطروحة على مائدة البحث المقارن، كما أن السينما بوصفها نصاً لم تدخل المجال بالدرجة التى تجعل منها مساحة كاشفة تنضاف إلى سـياق الدرس المقـارن، وهي تحمل الكثير من الشروط المطلوبة للدراسة المقارنة[1].

إذا كانت العملية الإنتاجيّة في وضعية الأدب المقارن المطبوع ورقيا، تتم من خلال المنتج والمتلقي والمنتوج(النص)، فإن نظرية تداول هذه العملية الإنتاجية من خلال الوعي النقدي قد اجتهدت عبر عصور عديدة، وباعتماد مناهج أدبية وأدوات إجرائية في محاولة البحث أو توصيف المنطق الذي تحتكم إليه العملية الإبداعية، وإنتاج إدراك لهذا المستوى العلائقي بين مكونات الفعل الإنتاجي الأدبي، فكانت الإدراكات النقدية تختلف فيما بينها، وتتفاوت في تشخيصها لهذا المستوى العلائقي، وذلك بناء على الفرضية الفلسفية التي تنطلق منها. ولعل رغبة الوعي النقدي في إيجاد تفسيرات للسر الإبداعي وفي السعي إلى بناء ملامح الوعي الممكن للجماعة أو الفرد أو الحضارة من خلال الممارسة الإبداعية هو الذي كان وراء إنتاج هذا التعدد الهائل، والمفتوح باستمرار على فرضية الوعي النقدي فيما يخص آليات القراءة.

ولعلنا قد نفهم هذا التعدد الذي يتوالد مع كل تحول في بنية تركيبة العملية الإبداعية من خلال سر إنتاج اللحظة الإبداعيّة، وأهميتها في إنتاج رؤيا العالم. هي اللّحظة الفاصلة بين الواقعي والتخييلي، أو بعبارة أخرى هي الحالة التي يصبح عليها المبدع عندما يبدأ في الانزياح عن الواقعي المعيشي، والانخراط في

---

1 ـ أنظر: سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، بيروت 1987.

المتخيل حيث فرصة التجلي الرمزي لوعيه المحتمل، والذي يكون وراء طبيعة بناء النص.

إن التفكير في الأدب الرقمي من خلال استحضار الأبعاد المعرفية والبنائية والنقدية والفلسفية لنظريّة الأدب في إطاره الشفهي أو المطبوع ورقياً، مسألة يفرضها التصور الفلسفي للأدب، سواء في بعده الجمالي المعرفي، أو في بعده التقني الأسلوبي المرتبط بالخطاب، كما تفرضها مشروعية مرافقة النقد للتجربة الأدبية وهي تشهد اختلافات في تمظهراتها وتجلياتها[1].

لهذا، فالحديث عن تجربة الأدب المطبوع ضمن إستراتيجية التفكير في الأدب الرقمي، مسألة مشروعة في إطار محاولة فهم هذا الغنى الذي يتولد عن رغبة إدراك الحالة الإبداعية. والتي معها يشتغل الفكر البشري ويطور أدواته، مادام فعل القراءة في نص أدبي هو فعل التفكير الذي يعتمد أشكالا من الأدوات والمناهج.

أن نقرأ الأدب الرقمي سواء في إطار تحديده النظري، أو من خلال تجليه النصي، يعني أن نمارس التفكير باعتماد وسائل حديثة تنتمي إلى ثقافة النص الرقمي، ولكن في نفس الوقت نفكّر من خلال ذاكرتنا النصيّة والنظريّة.

إنّ الاقتراب من الأدب في وضعه الرقمي، هو اقتراب من المتغيّر في الحالة التي تصبح عليها الممارسة الإبداعيّة، عندما تعتمد دعامة الرقمي. يعني انتقال سياقي وبنيوي وأسلوبي في الظاهرة الأدبية. لهذا، فأوّل متغيّر يصادفنا عند تأملنا لهذه التجربة الأدبية هو الرقمي باعتباره وسائط تكنولوجية وإلكترونية، بها يتشكل النص الأدبي وينفتح على زمنه التكويني، بل تتحول بدورها إلى عنصر وظيفي.

تبدأ مجرد وسائط في إطار الخدمات التي تقدمها التكنولوجيا الحديثة لكل مستخدم لها، ولكنها تصبح مكوناً وظيفياً بالنسبة لمنتج النص الأدبي، نظراً لكونها تصنع بنائيّة النص، ومن ثمة تحدد شكله، وشكل قراءته. ولكون النص يتحول

---

1 ـ أنظر المرجع نفسه.

بموجبها إلى حالة مغايرة عن النص كما يريد المبدع أن ينتجه.

يحضر الرقمي في هذا الشأن باعتباره وسيطاً في العملية الإنتاجية للنص، لأنه يقدم خدمات للنص ودعماً معلوماتياً وتوثيقياً ونصياً ولغوياً ورمزياً للكتابة، لكنه يعيش بدوره التحول ويصير وظيفيا. لهذا، يمكن القول بأن الأدب يصبح رقميا عندما يتحول الرقمي إلى عنصر وظيفي، أي يصبح مكونا بنائيا ، ويتحكم في تدبير القراءة وتشكل النص. ولكن النص يبقى غير رقمي عندما يظل الرقمي مجرد وسيط لبناء النص ليس إلا. والمؤشر على ذلك، أن النص إذا ما تم طبعه ورقياً فإنه قد يفقد بعض بهاراته الجمالية التقنية، مثل الصورة المتحركة والصوت وغير ذلك، ولكنه يحافظ على إطاره العام.

اليوم إنّ الأدب هو الذي ينتج النص الرقمي، مستثمراً وسائط التكنولوجيا الحديثة، ومشتغلا على تقنية النص المترابط hypertexte، وموظفاً مختلف أشكال الوسائط المتعددة. وهو لا يعتمد فقط فعل الرغبة في الكتابة والإلهام الذي يرافق عادة زمن التخيل في النص المطبوع أو الشفهي ، ولكنه إضافة إلى ذلك كاتب عالم بثقافة المعلوماتيّة، والتقنية الرقمية، بل يتقن تطبيقها في علاقتها بفن الكتابة. هذا يعني أننا بصدد كاتب له معرفة بالعلم، وهذا شيء جديد في نظرية الأدب التي لم تكن تنظر إلى المبدع في إطار تكوينه العلمي، بقدر ما كانت تقف عند نضج متخيله و إبداعية نصه[1].

ينتج الكاتب الرقمي حالة نصية متشعبة وغير تتابعية من حيث أفق التلقي. وذلك بحكم اشتغال النص المترابط الذي يمنح اختيارات متعددة للقراءة، كما يمنح للقارئ أزمنة مختلفة للتواصل مع النص من خلال تقنية الروابط[2].

مع ذلك، وإنطلاقاً من النصوص الرقمية العربية القليلة، نلاحظ أن المتخيّل

1 ـ فؤاد المرعي، في نظرة الأدب الكقارن، م. س، ص. 187.

2 ـ نفسه.

حاضر بقوة في تشكيل الحكاية. كما أن وضعيّة هذا المتخيّل تسمح بتحرير الذاكرة (ذاكرة القارئ) من سلطة الواقعي الرقمي. ونجد نفس الشئ في تجارب غربية فرنسية مثلا حيث نلاحظ خاصة في الرواية الرقمية أن السرد ما يزال يحتفظ بقوته، والحكي يتحكم في بناء النص. بل يمكن اعتبار المكونات الرقميّة عاملاً وظيفياً وفنياً وجمالياً أيضاً يساهم في الارتقاء باللحظة المتخيّلة للنص الحكائي في وضعية النصوص السرديّة.

ما يلاحظ على طبيعة المنتج الرقمي في علاقته بنصه وبمتلقيه، أنه ينطلق من مبدأ التحرر من وهم النص المكتمل والذي لا ينتمي إلا إلى منتجه.

ونتيجة لطبيعة تشكّل النص الرقمي، فإنّ قراءته تستلزم امتلاك نفس آليات الثقافة الرقميّة. وهذا يفترض على القارئ أن يمتلك هو الآخر، شأنه شأن الكاتب الرقمي، نفس إمكانيات الثقافة الرقميّة. مما يعني أن منتج النص الرقمي ومتلقيه يستعملان نفس التقنيات الرقمية، وفي هذا اختلاف بين الرقمي والنصوص الشفهية والمطبوعة ورقيا المفتوحة على الأقل على قراء مختلفين من حيث تناولها شريطة أن تكون لديهم نفس المعرفة باللغة التي يتم بها إرسال النصوص. أما في وضعية النص الرقمي فإن الاقتراب منه لا يتم إلا عبر الوسائط الرقمية إضافة إلى اللغة المرسل بها. غير أن الملاحظ أن القارئ الرقمي يعيش حرية مفتوحة على الخيارات الذاتية في القراءة النصية، إذ تسمح له تقنية النص المترابط hypertexte بأن يختار للنص مدخلا للقراءة ، كما يصبح هو المتدبر لأسلوب القراءة ومنهجها، لديه حرية المرور من أي طريق شاء، كما لديه صلاحية القرار من أين يبدأ وأين ينتهي. هذا ما يجعله منفتحاً على قراءات مختلفة كلّما تواصل مع النص وغيّر طريقة القراءة، ومارس حريته في أن يدخل عالم النص من بدايات مختلفة عن قراءاته السابقة لنفس النص.

ويؤكد منتجو النص الرقمي على ضرورة هذا الحضور للقارئ كما نجد في

نص"صقيع" لمحمد سناجلة حين يدعو قراءه للدخول في تجربة إعادة كتابة النص.

يتضح من خلال الممارسة والتفكير أيضاً في الإنتاج الإبداعي الرقمي، أن تقنية النص المترابط تشتغل بقوة في إعطاء النص شرعيّته التي لا تكتمل إلا مع كلّ قراءة، على اعتبار أن هذه التقنية تمنح للقارئ من جهة خيارات في القراءة، وحرية في تدبر طريقة تلقي النص. كما تجعله يحقق فعل الإبحار بالشكل الذي يختاره، بل يمكن لقارئ لنفس النص أن يحقق مع كل قراءة نصاً مترابطاً قد لا يشبه النص السابق. وهنا يدخل فعل التفاعل باعتباره تقنية وظيفية في القراءة. في هذا المعنى، يصبح النص الذي ينتجه الكاتب ليس هو الذي يتم تلقيه من طرف القارئ[1].

يتشكّل نص آخر في علاقة تفاعلية فوق الشاشة بين القارئ حسب وضعية حالته وبين النص المترابط. لقد عاش العرب والفرس، سنة وشيعة، مسلمين وغير مسلمين، قرونًا طويلة صانعين الصيرورة التداخلية الثقافية، بل كان التعدد العرقي والديني عاملًا محفزًا لهذا المسار. واليوم على الرغم من كل ما يجري، لا نزال نقف باندهاش أمام استمرار مقومات وأسس التداخل الثقافي العربي الفارسي في كلتا الضفتين، نستطيع بسهولة أن نلحظ الحضور الدائم والقوي للعرب في حياة الفرس وحضور الفرس في حياة العرب، وهذا ببساطة هو معنى "التواصل الثقافي العربي الفارسي"، وهذه هي الخاصية الحضارية العابرة للإنسان.

لكن، لا شك أننا نعيش لحظة تاريخية نشهد من خلالها تشكل ثقافة جديدة، تعتمد في مرجعيتها وآلياتها التواصلية على التكنولوجيا الحديثة، التي تعبّر عن أرقى مكتسبات تطور مسار الفكر البشري، وهي ثقافة تحدث في إطار استحقاقات حقوقية وعلمية واجتماعية وتنموية، في مناخ يدفع إلى المزيد من إعطاء الفرصة أمام التعبير الذاتي الحر.

---

1 ـ فؤاد المرعي، في نظرية الأدب المقارن، م. ن.

ولا شك أيضاً، أن عملية بناء تصور حول تجربة الممارسة الأدبية الرقمية في المشهد العربي، تتميز بالأهمية والخطورة في ذات الوقت، لأنّها بمثابة شمعة وسط ظلام كثيف. وهذا ما يفرض على الأقل التعامل مع زمن بناء التصور حول هذه التجربة الإبداعيّة الجديدة، باستحضار مجموعة من الأسئلة، سواء المتداولة فيما يخص علاقة الفكر العربي، بكل ما هو جديد وغير مألوف في التفكير والممارسة، أو الجديدة تلك التي تنبثق مع عملية الانخراط في التجربة الجديدة تنظيراً وجرأة[1].

إن الخطورة تأتي من كون التجربة الأولى يتم التعامل معها، عادة، بشيء من الدهشة والانبهار، وهي مسألة مشروعة في إطار طموح الفكر البشري إلى الكشف والاكتشاف. غير أنها دهشة في حاجة إلى تحصين فكري وثقافي وفلسفي يدعم عملية البناء من أجل ضمان انخراط إنتاجي في التجربة الجديدة.

وعليه، يمكن تعزيز التفكير في وضع تصوّر حول التجربة باستحضار الفرضيّات التالية[2]:

1 - إن الانتقال إلى الدعامة الرقمية، يعطي فرصة جديدة بل مختلفة أمام التجلي الإبداعي، انطلاقاً من كونه تجلياً مختلفاً عن المألوف في التشكل والتكون عن الشفهي والمطبوع، حيث البنية التركيبية و سياق الإنتاج وكذا الوسائل التعبيرية والبنائية مختلفة عن المتعاقد عليه في الممارسة الإبداعية، وهذا من شأنه أن ينتج معرفة جديدة بوضعية الوعي في الزمن الراهن.

2 - إن ظهور أي شكل تعبيري جديد، يعود إلى ظهور قوانينه، وهي قوانين تعبر عن أنماط التفكير والتواصل في المرحلة. وتبقى القراءة مستوى تواصلياً تقنياً

---

1 - أنظر: محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت 1987.

2 - أنظر: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، ط8، بيروت 1986.

ومعرفياً وحضارياً، من أجل إنتاج معرفة طبيعة اشتغال هذه القوانين، ورصد الوعي المنتج لها ، في سبيل فهم المرحلة بمنطقها وقوانينها. إذ لا يتعلق الأمر فقط بمجرد تفكيك تجربة تعبيرية إلى عناصرها البنيوية والقول بجدتها أو لامألوفيتها، وإنما القراءة سؤال فلسفي وأسلوب في التفكير في المرحلة التي نعيشها.

3 - ما يمنح تجربة النص الرقمي شرعية التداول في المشهد الإبداعي العربي، هو الانخراط في ممارسة هذا التعبير من طرف المبدعين العرب.

4 - إن تحقيق متن مهم من النصوص الرقمية الإبداعية العربية، خطوة مهمة لتحقيق تصور مسؤول نقدي وتنظير حول طبيعة التجربة. ذلك، لأن بناء تحديدات مفهومية للخطاب الإبداعي الرقمي في التجربة العربية، ما يزال في طور التفكير أمام ضعف الممارسة الإنتاجية، لأن الاشتغال على النصوص الرقمية باعتبارها متناً ونسقاً، هو الذي يبلور منطق هذا الأدب، ويسمح بالتالي ببناء تصور حول منطق الممارسة الإبداعية الرقمية.

5 - التحسيس بالثقافة الرقمية ودورها الحضاري في تطوير علاقة الفكر بالمعرفة بشكل فعال وسريع لا يجب أن يتحوّل إلى نظرية نقدية تؤطر عملية الكتابة الرقمية. ذلك لأن النصوص هي وحدها المؤهلة لتطوير ثقافة قراءة النص الرقمي الأدبي والتنظير لمنطق هذا الأدب.

6 - كثيراً ما رافق عملية قراءة النص الإبداعي العربي الشفهي والمطبوع بالخصوص (الرواية ،القصة القصية والشعر) سؤال تطبيق النظريات الغربية النقدية، فهل يمكن أن يضيء هذا السؤال تجربة القراءة في النصوص الرقمية العربية، حتى تطور التجربة العربية شكل قراءتها، وتطور مفاهيم القراءة الرقمية إنطلاقاً من الممارسة العربية، دون أن يعني هذا، التخلي عن مبدأ التفاعل مع التجارب الغربية السباقة إلى هذه التجربة ولكن، لِمَ لا يتم التعامل مع التجربة الرقمية العربية بنوع من الإصغاء، كما وجدنا مع النقد الفرنسي الذي طور

خطابه بتمثل التجارب النقدية الروسية والألمانية وغيرهما، ولكنه لم يقف عند لحظة التمثل والتطبيق، إنما أنتج خطابا نقديا (أي طريقة في التفكير) من صميم الإبداعية الفرنسية، مما أعطى للنقد الفرنسي شرعية تداوله عالمياً، وبالتالي ساهم في نشر مفاهيم الفكر الفرنسي؟

7 - إن التفكير في التجربة الإبداعية الرقمية في المشهد الثقافي العربي-الايراني، هو تفكير في مستوى من مستويات الحداثة في الممارسة العربية ذلك لأن شكل التعامل مع هذه الممارسة يحقق تصوراً عن شكل الانخراط في هذا المتغير الحداثي العالمي. وإذا كان هناك الكثير من معوقات الفكر الحداثي ما تزال تعرقل كل عمل انتقالي حقيقي نحو الحداثة باعتبارها ممارسة في الفكر والحياة واليومي في التجربة العربية، ولكون كثير من مفاهيم الحداثة كما ظهرت، وتظهر، في الغرب ما تزال مهيمنة على الخطاب النظري العربي، وتجد صعوبات أجرتها على الواقع والسلوك والحياة، فلا شك أن هذا الوضع الإكراهي يشتغل معيقاً في عملية الانطلاق المرن للمبدع العربي بكل حرية وجرأة في مختلف وسائل التكنولوجية الحديثة، واستثمارها من أجل تعبير يستوعب مختلف التحولات التي يعرفها الوعي. وإذا كان الإبداع مع وضعية الرقمي أصبح مرتبطا بشرط علمي وتقني على المنتج والمتلقي الانخراط التكويني فيهما، فإننا في هذا الصدد نسجل ملاحظة على السياسات الرسمية العربية التي ما تزال تدفع بأدمغتها التكنولوجية للهجرة إلى الغرب الأوروبي و الأمريكي، مما يجعلها تتحول، أي الدول العربية، إلى مراكز للتكوين. ويعيد التاريخ نفسه في هذا الإطار عندما نستحضر عملية جلب الاستعمار الأوربي خاصة الفرنسي لليد العاملة من المغرب العربي إبان الاستعمار، ثم ما بعد استقلال الدول المغاربية من أجل بناء فرنسا.

مع ذلك، تبقى القراءة باعتبارها أسلوباً في التفكير، وطريقة إجرائية ومعرفية

وفلسفية هي القادرة على إدراك أو على الأقل الاقتراب من معرفة المنطق الذي يشكل النص الرقمي. ويبقى رهان الممارسة التجريبية خير محك للتفكير في هذه التجربة. وتبقى عملية انخراط كل مبدع ومثقف عربي في رهان هذه الممارسة، إنتاجا أو تنظيرا خطوة حضارية بامتياز.

2- تجلّيات الفكر العلمي الاتصالي

أ- بوادر التفكير المنهجي

بدأ الإنسان رحلة البحث والاستقصاء منذ أن وطئت قدماه الأرض، حيث أدرك مبكراً أهمية استخدام ملَكَة العقل لفهم ما يتجلى له من ظواهر قد اختلفت سماتها، وتعددت طبائعها، ولسبر غور ما يغيب عنه من حقائق تختزن أسرارها مفردات الطبيعة وعناصرها. غير أن بداية التفكير العقلي المنظم، وبوادر التفكير المنهجي المقصود قد تطلب مرور وقت طويل، حتى يبدأ في التبلور في شقه العملي مع بزوغ حضارة الإسلام، خاصة في القرنين الرابع والخامس الهجريين. كما تطور البحث الإنساني من مرحلة الطفولة الساذجة إلى أن وصل إلى ما هو عليه اليوم، بوصفه ملازماً لتطور العلم والاستكشاف. فبعد أن كان العلم في بعض المجالات قليل الشأن، أخذ يتطور وينمو، إلى أن اتسعت آفاقه ونضجت طرقه وأدواته، فوصل إلى مستوى هيأ له فرص الانطلاق والاندفاع في شتى الميادين والدروب[1].

وبفضل تراكم المعارف الحسيّة الأولى، وظهور الأشكال المبكرة للتفكير الفلسفي أي ما يسمى بالمعرفة الفلسفية، بدأ الإنسان يفكر ليس فقط فيما يحيط به من ظواهر وعوالم، بل في مدى صدق معارفه ومدى دقة طرق تفكيره ذاتها. وقد

---

1 - Maurice Angers, Initiation pratique à la méthodologie des Sciences Humaines, Ed Casbah, Alger 1997, p58.

سمح ذلك بتطور الاشكاليّات المعرفية (الإبستيمولوجية) التي ناقش من خلالها الإنسان جدوى العقل، وأسس النظريّة والقياس[1].

ب-الانسان ومحيطه

ومن أهم هذه الاشكاليّات المعرفية، التساؤل المتكرر المتعلق بكيفية تعامل الإنسان مع محيطه: أي تعامل "المفكر"أو"الفاعل" أو "الباحث" Sujet مع مختلف الأشياء Objets والوقائع Faits التي يُوجِّه إليها عقله لإدراك خواصها، وبلغة العصر وصف مكوناتها وفهم طبيعتها وتفسير عمليّاتها.

ولقد تعددت الإجتهادات والإسهامات قي هذا المجال، وبفضل ذلك بدأ موضوع البحث والاستكشاف الإنساني يحتل مكانته الهامة داخل المجتمعات والدول. إلاّ أنّ تعقد الإشكاليات المطروقة جعل الفلسفة تقيم، منذ أيامها المبكرة، جداراً معرفياً عالياً ومنيعاً بين الإنسان (المفكر) وبين الموضوع (الوجود) أو بين الروح أو الفكر والمادة، مما أدى إلى تبلور تيّارين فلسفيّين متناقضين[2].

وعلى الرغم من المترتبات السلبيّة لهذا الانشطار الإبستيمولوجي، فقد فتح الباب أمام الإنسان ليبدأ بطرح مسألة التمييز بين ما ينتمي للعلم وما لا ينتمي له، وبهذا بدأت تتبلور القضايا المتعلقة بخطوات البحث ومقدماته، وشروطه وإجراءاته، كما أصبحت مسألة المنهج والمقاربات تأخذ طريقها داخل عقل وتفكير الفلاسفة والعلماء.

---

1 ـ علي شتا، المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة 1997، ص16.

2 ـ نفسه.

ج- ظهور المنطق

وكان البحث عن شروط الحقيقة وعن طرق التحقق من صحة الاستدلال العقلي، الخطوة الأولى في هذا المسار، حيث قاد هذا الانشغال إلى ظهور المنطق بشكله المكتمل في عقل أرسطو، كما يقول إيمانويل كانط Emmanuel Kant. ونظرا لأهمية المنطق، اعتبره القديس أوجستين Saint Augustin علم دراسة العلوم، وأول أداة استخدمها الإنسان كمعيار للحقيقة، وأهم ميزان بشري للنظر الصحيح، وعرّفه عباس محمود العقاد بوصفه "علم يجمع الأصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز[1]".

ويعرض جون ستيوارت ميل تعريفين للمنهجيّة العلميّة:

يشير التعريف الأول إلى المسلك القياسي procédé syllogistique، بمعنى نمط الاستدلال الذي يمكن، وبدقة كافية، أن يطلق عليه نتيجة من العام إلى الخاص، ويشير الآخر الى التمنطق Raisonner، يعني الوصول إلى إثبات من إثبات تم قبوله والتسليم به، وبهذا فالاستقراء يمكن اعتباره برهانا على غرار البراهين الهندسية، وقد فضّل الكاتب هذا التعريف على التعريف الأوّل.

أما ويل ديورانت فيقول في قصة الفلسفة: "إن المنطق يعني ببساطة، الفن والأسلوب الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا. إنه نظام وأسلوب كل علم، وكل نظام، وكل فن، وحتى الموسيقى تلجأ إليه. إنه علم، لأن وسائل التفكير الصحيح يمكن اختصارها إلى مدى كبير وتحويلها إلى قواعد كالطبيعيات والهندسة، وتدريسها لكل عقل عادي. إنه فن لأنه بالممارسة يقدم للفكر ذلك الإتقان والدقة والضبط اللاشعوري السريع الذي يرشد ويوجه أصابع عازف البيانو بانسجام سهل في العزف على آلته. لا شيء أثقل على الفهم من المنطق ولا

---

1 ـ عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت2002، ص26.

شيء أكثر أهمية منه[1]".

وبالطبع، أثبت التطور الفكري والعلمي محدودية القياس الذي يستند إلى هذا المنطق: فاتساق الأفكار وصحة البرهان وتوفر الشروط قد لا يعني بالضرورة صدق المحتوى، ولذلك دعت الحاجة لتجاوز هذا العقم في المنطق، ومحاولة توليد معارف يتفق فيها الشكل مع المحتوى، بدل اختزال المنطق للعملية المعرفية في دراسة الشروط الشكلية لها. وقد ظهرت محاولات عديدة لتحقيق ذلك، منها إسهام هيجل Hegel بما سمي بالمنطق الجدلي الذي حاول من خلاله تجاوز الجمود والسكون، والتأكيد على أن الفكر في تطور مستمر ينتقل بمقتضاه الباحث من شكل إلى شكل جديد مغاير للشكل الأول[2]. يقول هيغل: "إذا كان المنطق الصوري يرى بأن القضية إما تكون صحيحة أو خاطئة، فإن المنطق الجدلي يعلن بأن كل قضية ذات محتوى واقعي هي صحيحة وفي ذات الوقت خاطئة، صحيحة إذا تم تجاوزها، وهي خاطئة إذا تم النظر إليها على أنها مطلقة"[3].

ليس هناك شيء لا يجري عليه العدم، فبرأي هيغل: "كل شيء يتضمن في ذاته بذرة فنائه.. فساعة ولادته هي ساعة مماته". وهكذا فقد ساعد المنطق الجدلي على تجاوز المنطق الصوري، غير أن تجاوز المنطق الصوري قاد إلى مثاليّة جديدة، لأن هيجل حبس نفسه في مثالية صارمة، واستبدل الواقع بالفكر، وجعل الفكر هو أساس التطور. و يعتبر هيجل، إلى جانب ديكارت وكانط، من

---

1 - أنظر: John Stuart Mill, Système de logique déductive et inductive, Exposé des principes de la preuve et des méthodes de recherche scientifique, Livre 1, Des noms et des propositions, Chicago 1865.

2- Henri Lefèvre, Le Matérialisme historique, PUF (nouvelle philosophique) 1971, 34, cité par Madeleine Grawitz, Méthodes des sciences sociales, Dalloz, 5° editions, Paris 1984, p6.

3 - نفسه.

أهم أنصار التيار المثالي الذي تمتد جذوره إلى أفلاطون وأرسطو. ويلخص الفيلسوف باركلي هذا الاتجاه بقوله: "ماذا تمثّل الأشياء إن لم تكن عبارة عما نتصوره عنها. وماذا ندرك نحن إنْ لم تكن أفكارنا ومشاعرنا"[1].

ومن الجهة المقابلة نجد أن التيار المادي يمتد إلى طاليس وهيروقليدس وأبيقور، لكن ماديتهم كانت جامدة ساذجة، لأنها ألغت الضمير، وغاصت في المادة حتى نشأت ميتافيزيقا جديدة قائمة على المادة وليس على الفكر، إلى أن أصبح هذا التيار يجد منافسيه في أنصار التقدم العلمي، وذلك منذ القرن السابع الميلادي، على العكس من التيار الأول الذي تقوقع داخل أسوار وأتباع الكنيسة.

إنشغل العلماء بالمنطق طيلة القرون الوسطى، ثم بدأ يعرف خسوفا وانحسارا لعدة قرون قبل أن ينتعش في نهاية القرن التاسع عشر، حيث أضحى مختبرا مفاهيميا تبلورت في كنفه الثورات النظرية والتكنولوجية الأساسية للقرن العشرين، حيث ظهرت تجديدات للمنطق خاصة بفضل المقاربات اللسانية والتطبيقات في مجال المعلوماتية. وفي ذلك ردٌ قوي على من اعتبر عصر المنطق قد انتهى، أو منْ حكم عليه بالعقم الأبدي[2].

وقبل هذه العودة والتجديد للمنطق، كان العلم قد بدأ في التنصل من الفلسفة، لتصبح الملاحظة والتجربة أدواته المنهجية الرئيسة وليس التأمل الفلسفي، كما أنه أصبح يربط الفكر بالواقع، بدل أن يدرسه بعيدا عن معطيات الحس والتجربة.

---

1 ـ المصدر نفسه.

2 ـ نفسه.

3- مراحل تطور الفكر الاتصالي

أ- تحديد مفهوم الاتصال

يمكن اختصار وصف الاتصال بأنه سر استمرار الحياة على الأرض وتطورها، بل إن بعض الباحثين يرى أن "الاتصال هو الحياة نفسها". وعلى الرغم من أن الجنس البشرى لا ينفرد وحده بهذه الظاهرة، حيث توجد أنواع عديدة من الاتصال بين الكائنات الحية، بيد أن الاتصال بين البشر شهد تنوعاً في أساليبه، وتطوراً مذهلا في المراحل التاريخية المتأخرة[1].

ومع تعدد التعريفات التي وضعت من قبل الباحثين لمفهوم الاتصال فإننا يمكن أن نعتمد تعريفاً مبسطاً وشاملاً هو: عملية يتم بمقتضاها تفاعل بين مرسل ومستقبل ورسالة في مضامين اجتماعية معينة، وفي هذا التفاعل يتم نقل أفكار ومعلومات ومنبهات بين الأفراد عن قضية، أو معنى مجرد أو واقع معين .

هذا التعريف يعني أن الاتصال عملية مشاركة participation بين المرسل والمستقبل، وليس عملية نقل transmision، إذ إن النقل يعني الإنتهاء عند المصدر، أما المشاركة فتعني الإزدواجيّة أو التوحد في الوجود، وهذا هو الأقرب إلى العملية الإتصالية. ولذا فإنه يمكن الاتفاق على أن الإتصال هو عملية مشاركة في الأفكار والمعلومات، عن طريق عمليات إرسال وبث للمعنى، وتوجيه وتسيير له، ثم استقبال بكفاءة معينة، لخلق إستجابة معينة في وسط إجتماعي معين.

---

1 - راجع: André Vitalis, Médias, temporalité et démocratie, Editions Apogée, PUF, Paris 2000.

وتتفق أغلب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، منذ ما يزيد على نصف قرن، وحتى الوقت الراهن، على تقسيم الإتصال إلى أنواع أو نماذج عدة، من أبرزها الإتصال الذاتي، والإتصال الشخصي، والإتصال الجمعي، والإتصال الجماهيري بواسطة وسائل الإعلام والإتصال.

على المستوى العلمي البحثي يمكن القول بوجود مدخلين لتعريف الإتصال:

1 - المدخل الأول ينظر إلى الإتصال على أنه عملية يقوم فيها طرف أول (مرسل) بإرسال رسالة إلى طرف مقابل(مستقبل) بما يؤدي إلى إحداث أثر معين على متلقي الرسالة. هو يهدف إلى تعريف المراحل التي يمر بها الإتصال، ويدرس كل مرحلة على حدة، وهدفها وتأثيرها على عملية الإتصال ككل[1].

2 - المدخل الثاني يرى أن الاتصال يقوم على تبادل المعاني الموجودة في الرسائل، والتي من خلالها يتفاعل الأفراد من ذوي الثقافات المختلفة، وذلك من أجل إتاحة الفرصة لتوصيل المعنى، وفهم الرسالة.

هو تعريف بنائي أو تركيبي، حيث يركز على العناصر الرئيسية المكونة للمعنى، والتي تنقسم بدورها إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

1 - الموضوع: إشارته ورموزه.

2 - قارىء الموضوع والخبرة الثقافية والاجتماعية التي كونته، والإشارات والرموز التي يستخدمها.

3 - الوعي بوجود واقع خارجي يرجع إليه الموضوع[2].

في هذا الإطار، تأسست وتطورت النماذج العلمية التي تشرح وتفسر عملية الإتصال بعناصرها المختلفة. ظهر في البداية النموذج الخطي أو المباشر الذي يرى أن تلك العناصر هي: المرسل والرسالة والمستقبل، ولكن الدراسات التي

---

1 - المرجع نفسه.

2 - راجع: مي العبدالله، نظريّات الاتصال، دار النهضة العربية، بيروت 2006.

أجريت منذ الأربعينيات من القرن الماضي، بينت مدى قصور ذلك النموذج، وحطمت النظرية القائلة بأن لوسائل الإعلام تأثيراً مباشراً على الجمهور. فأتى العديد من النماذج التي تطورت من الطبيعة الثنائية إلى الطبيعة الدائرية، والتي على ضوئها تتكون عملية الاتصال من ستة عناصر أساسية هي: المصدر، الرسالة، الوسيلة، المتلقي، رجع الصدى والتأثير[1].

يقصد بالمصدرsource منشأ الرسالة، وقد يكون فرداً أو مجموعة من الأفراد، أو مؤسسة أو شركة، وكثيرا ما يستخدم المصدر بمعنى القائم بالاتصال. غير أن ما يجدر التنويه إليه هنا أن المصدر ليس بالضرورة هو القائم بالاتصال، فمندوب التلفزيون قد يحصل على خبر معين من موقع الأحداث ثم يتولى المحرر صياغته وتحريره، ويقدمه قارئ النشرة إلى الجمهور. في هذه الحالة وجدنا في بعض دراسات الاتصال من يذهب إلى أن كلاً من المندوب والمحرر وقارئ النشرة بمثابة قائم بالاتصال، وان اختلف الدور، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن القائم بالاتصال هو قارئ النشرة فقط. يعني انه بينما يوسع البعض مفهوم القائم بالاتصال ليشمل كل من يشارك في الرسالة بصورة أو بأخرى، فإن البعض الآخر يضيق المفهوم قاصرا إياه على من يقوم بالدور الواضح للمتلقي.

أما الرسالة message، فهي "المنبه" الذي ينقله المصدر إلى المستقبل، وتتضمن المعاني من أفكار وآراء تتعلق بموضوعات معينة يتم التعبير عنها رمزيا سواء باللغة المنطوقة أو غير المنطوقة. وتتوقف فاعلية الاتصال على الفهم المشترك للموضوع واللغة التي يقدم بها، فالمصطلحات العلمية والمعادلات الرياضية المعقدة الخاصة بالكيمياء الحيوية مثلا تكون مفهومة بين أستاذ الكيمياء وطلابه، أما إذا تحدث نفس الأستاذ عن الموضوع مع طلاب الإعلام والاتصال لا يكون الأمر كذلك، فهناك فجوة أو عدم وجود مجال مشترك للفهم بين المرسل

---

1 ـ المرجع نفسه.

والمستقبل. والمنطق نفسه إذا كان الأستاذ يلقي محاضرة بلغة لا يفهمها أو لا يعرفها الحاضرون، أو إذا استخدم إيماءات وإشارات ذات دلالة مختلفة لهم[1].

من جهة أخرى تتوقف فاعلية الاتصال على الحجم الإجمالي للمعلومات المتضمنة في الرسالة، ومستوى هذه المعلومات من حيث البساطة والتعقيد، حيث أن المعلومات إذا كانت قليلة فإنها قد لا تجيب على تساؤلات المتلقي ولا تحيطه علما كافيا بموضوع الرسالة، الأمر الذي يجعلها عرضة للتشويه. أما المعلومات الكثيرة فقد يصعب على المتلقي استيعابها ولا يقدر جهازه الإدراكي على الربط بينها.

وتعرف الوسيلة أو القناة canal بأنها الأداة التي من خلالها أو بواسطتها يتم نقل الرسالة من المرسل إلى المستقبل، وتختلف باختلاف مستوى الاتصال: ففي الاتصال الجماهيري تكون الصحيفة أو المجلة أو الإذاعة أو التلفزيون، وفي الاتصال الجمعي مثل المحاضرة أو خطبة الجمعة أو المؤتمرات تكون الميكرفون، وفي بعض مواقف الاتصال الجمعي أيضا قد تكون مطبوعات أو شرائح أو أفلام فيديو، أما في الاتصال المباشر فإن الوسيلة لا تكون تكنلوجية وإنما إنسانيّة.

وقد أصبح دور وسائل الإعلام والاتصال في المجتمع مهما وخطيرا جداً، إلى درجة خصصت جميع الحكومات أقساماً ودوائر ووزارات إعلام تتولى تحقيق أهداف داخلية وخارجية عن طريق تلك الوسائل، ومن تلك الأهداف الداخلية رفع مستوى الجماهير ثقافياً، وتطوير أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية.

ولم يتوقف هذا الأمر عند الحكومات، بل إن مؤسسات إجتماعية وسياسية واقتصادية إهتمت بها، ووجدت أن تلك الوسائل تخدمها وتخدم أهدافها وتساعد

---

1 - راجع: مي العبدالله، الاتصال في عصر العولمة، دار النهضة العربية، بيروت 2001.

في ازدهارها. أما خارجياً فمن أهداف دوائر الإعلام تعريف العالم بحضارة الشعوب ووجهات نظر الحكومات في المسائل الدولية.

وليس أدل على أهمية الإعلام وتأثيره على الجماهير، ما أصبح معروفاً في العالم، من أن الدولة ذات الإعلام القوي تعتبر قوية وقادرة، إذ أصبح الإعلام عاملاً رئيسيا في نفوذ بعض الدول، وبخاصة تلك التي وجدت فيه إحدى دعاماتها الرئيسية، وقدمته على باقي دعائم الدولة.

ب-تحديد وظائف وسائل الاتصال

لكل ذلك، اجتهد الباحثون منذ السبعينات في التركيز على الأبحاث التي تتناول وظائف وسائل الاتصال المتعددة، وعلى دراسات الجمهور.

و قد اتّفقوا على ست وظائف رئيسية للإعلام والاتصال، هي:

أ- الوظيفة الإخبارية.

ب- التوجيه وتكوين المواقف والاتجاهات.

ج- زيادة الثقافة والمعلومات.

د- تنمية العلاقات الإنسانية وزيادة التماسك الاجتماعي.

هـ- الترفيه وتوفير سبل التسلية وقضاء أوقات الفراغ.

و- الإعلان والدعاية.

من المتعارف عليه ان المدرسة تتولى مهمة التوجيه، باعتبار أن الطالب يقضي قسماً مهماً من حياته فيها. لكن المجتمع بجميع مؤسساته الأسرية والعائلية والاجتماعية والدينية والاقتصادية له دور كبير في مجال التوجيه، وتكوين المواقف والإتجاهات الخاصة بكل فرد.

من هنا تتلاقى تلك المؤسسات مع المدرسة في مهمة التوجيه وتكوين المواقف والإتجاهات، خاصة وأن المجتمع ليس كله طلابا، ولا يتاح عادة لكل أفراد

المجتمع دخول المدارس أو الإستمرار في الدرس والتحصيل. وإذا كانت المدرسة تقوم بمهمتها تلك عن طريق الهيئة التعليمية والكتاب، فإن توجيه المجتمع يمارس بشكل مباشر وغير مباشر على السواء عن طريق وسائل الإعلام والاتصال، فكلما كانت مادتها ملائمة للجمهور لغة ومحتوى، ازداد تأثيرها. فلا يعقل مثلا ان تخاطب الذين لا يجيدون اللغة العربية باللغة الفصحى، ولا الذين ليس لديهم مستوى ثقافي معين بالمنطق وعلم الكلام والحجج الفكرية والفلسفية.

والتثقيف العام هدفه هو زيادة ثقافة الفرد بواسطة وسائل الإعلام والاتصال، وليس بالطرق والوسائل الاكاديمية التلعيمية. والتثقيف العام يحدث في الإطار الاجتماعي للفرد أكان ذلك بشكل عفوي وعارض أو بشكل مخطط ومبرمج ومقصود[1].

والتثقيف العفوي هو مواجهة دائمة من جانب وسائل الإعلام والاتصال للفرد يحصل بصورة دائمة عن طريق المعلومات والأفكار والصور والآراء، وهذا يحدث عندما يتجول الطالب في ساحة ملعب جامعته فيفاجأ بجريدة حائط أو بتلفزيون نادي الجامعة أو باللافتات المرفوعة في أماكن من الجامعة، وكلها تحمل عبارات تلفت نظره، فيندفع في قراءتها أو متابعتها فتعلق بعض الكلمات في ذهنه ويأخذ ببعض الآراء...

أما التثقيف المخطط فهو حصيلة وظيفتي التوجيه والتبشير. كما هناك بعض الحالات التي تقع في دائرة التثقيف المخطط كالبرامج الزراعية التي هي عبارة عن حلقات ارشاد للمزارعين يدعون إليها أو تبث إليهم عبر الاذاعة أو التلفزيون[2]:

---

1 - راجع: Les Professions de la communication - Fonctions et Métiers, Jean-Luc Michel, Ellipses, Paris 1999, 2004, 2009.

2 - راجع: Sociologie de la Communication et des Médias, Éric Maigret, Armand Colin, Paris 2003

ويعرف الإتصال الاجتماعي عادة بالاحتكاك المتبادل بين الأفراد بعضهم مع بعض، هذا الاحتكاك هو نوع من التعارف الاجتماعي يتم عن طريق وسائل الإعلام التي تتولى تعميق الصلات الاجتماعية وتنميتها.

فعندما تقدم الصحف كل يوم أخبارا إجتماعية عن الأفراد او الجماعات أو المؤسسات الإجتماعية والثقافية، فإنها بذلك تكون صلة وصل يومية تنقل أخبار الأفراح والأحزان من وفيات وفشل وخسارة، وعبر الصفحات الخاصة كالولادات والوفيات والشكر، وهي وسيلة للاتصال الاجتماعي اليومي بين جميع فئات الجماهير. كما تقوم وسائل الإعلام والاتصال كلها تقريبا بتعريف الناس ببعض الاشخاص البارزين أو الذين هم في طريق الشهرة، سواء في مجال السياسة او الفن او المجتمع او الادب.

وتقوم وسائل الإعلام والاتصال بما تقوم به من وظائف، بمهمة ملء أوقات الفراغ عند الجمهور بما هو مسل ومرفه، بواسطة الابواب المسلية في وسائل الاعلام و الاتصال. في جميع الحالات، هي تأخذ في اعتبارها مبدأ واضحاً وهو ان برامج الترفيه والتسلية ضرورية لراحة الجمهور ولجذبه اليها. وحتى في مجال الترفيه، هناك برامج وأبواب ترفيهة موجهة يمكن عن طريقها الدعوة إلى بعض المواقف، ودعم بعض الاتجاهات او تحويرها وحتى تغييرها، وهذا يتطلب بالطبع أساليب مناسبة من جانب وسائل الإعلام والاتصال.

وتقوم وسائل الإعلام والاتصال أيضا بوظيفة الاعلان عن السلع الجديدة التي تهم المواطنين، كما تقوم بدور هام في حقول العمل والتجارة عندما تتولى الاعلان عن وجود وظائف شاغرة أو وجود موظفين مستعدين للعمل. ولهذا استطاعت وسائل الإعلام على تنوعها من صحافة وتلفزيون وسينما وأحيانا إذاعة، أمام تعقيد الحياة وتعدد ما فيها من اختراعات وصناعات واكتشافات، ان تقوم بمهمة التعريف بما هو جديد وتقديمه إلى الجمهور وعرض فوائده واسعاره

وحسناته بشكل عام[1].

وتؤدّي وسائل الاعلام و الاتصال دور المعلم والمربي وحتى الاب والام في حالات كثيرة. فالبرامج التربوية والمدرسية وبرامج الاطفال وبرامج الطلاب وغيرها من البرامح، تلتقي بوظيفة التثقيف، لكنها تتعدى تلك الوظيفة إلى ما هو أعمق وأعم واشمل، إلى درجة يمكن القول معها إن الفرد يولد وينمو قليلاً حتى تتولاه وسائل الإعلام والاتصال وترعاه وتقدم إليه ما يلزم من تثقيف وتوجيه وترفيه وإعلان وغير ذلك، وأحيانا تقدم إليه ما يسيء إلى نمو شخصيته وآرائه، فتنحرف بها أو تشوهها.

ج-تطور مفهوم " الجمهور"

لقد خضع مصطلح الجمهور في تشكيله إلى مرحلتين مهمتين:

1- مرحلة ما قبل ظهور وسائل الإعلام: كانت فكرة الجمهور في أصلها تعني الناس الذين يقبلون على عرض درامي أو لعبة أو أي استعراض عام. وكان هذا الجمهور يتصف بعدة مميزات إذ أن جميع أفراده معروفون بذواتهم ومحددين في الزمان و المكان، ذلك أنهم سكان لمدينة أو قرية ما. وكان تجمُّعهم لتشكيل جمهور العبادة أو المسرح أو الملعب أو السوق غالباً منضماً بحكم العادة، تشرف عليه سلطة دينية أو روحية أو إدارية، حيت كان يجلس سيد القبيلة في الصف الأول ثم تأتي حاشيته ثم النبلاء، حتى نصل إلى جميع الناس. وقد أضفت تلك السلطات على الجمهور طابع المؤسسة التي تفرض سلوكيات جماعية معينة. ولا زالت جوانب عديدة من هذا المفهوم سائدة في الاستخدامات الراهنة لمصطلح الجمهور.

---

1 ـ أنظر: عبد الحميد محمد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، جامعة حلوان، القاهرة 2002.

2- مرحلة ظهور وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية: وقد قُسّمت هذه المرحلة بدورها إلى أربع مراحل مهمة ساهمت في إضافة عناصر جوهرية على المفهوم، ويتجلى ذلك في ما يلي[1]:

- **المرحلة الأولى:**

تعتبر هذه المرحلة أهم مرحلة في تاريخ وسائل الإعلام الجماهيرية وفي تشكيل مفهوم الجمهور، اذ عرفت اختراع حروف الطباعة في القرن الخامس عشر على يد الألماني جوتنبورغ ممّا أدى إلى ظهور جمهور القراء للمنشورات و المطبوعات، بما فيها الصحف لاحقاً، و توزيعها على نطاق أوسع مما كان عليه الحال سابقاً.

و قد اوجد هذا التطور النوعي تقسيما اجتماعيا اقتصاديا كان معروفا في السابق بين الأغنياء و الفقراء والحضر والبدو، وساعد هذا التطور على تكوين مفهوم أولي لما يعرف حاليا بالجمهور العام public كفكرة أو رأي يربط بين عدد غير محدود من الناس يختلفون تبعا لاهتماماتهم و مستوى تربيتهم و تطلعاتهم الدينية أو السياسية أو الفكرية...

- **المرحلة الثانية:**

التطور التاريخي الثاني الذي كان له التأثير البالغ في تشكيل الجمهور هو الإفرازات الاجتماعية و الثورة الصناعية التي أعطت دفعا قويا للطباعة، مما أسهم في تنمية و تسويق الصحافة، خاصة الصحافة الشعبية أو الموجهة، إلى المجتمعات الجماهيرية mass society الجديدة التي نمت حول المدن الصناعية

1 - راجع: عبد الحميد محمد، دراسات الجمهور في بحوث الإعلام، دار عالم الكتاب، القاهرة 1993.

الكبرى، المكونة خاصة من المهاجرين الذين انتقلوا من الأرياف التي تسودها الروابط العائلية والصلات الاجتماعية إلى المدن والمجتمعات الحديثة التي تتميز بالتباين بين إفرادها لغياب قيم ثقافية و تقاليد وأعراف اجتماعية مشتركة.

في هذه المرحلة التاريخية بدأت الصحافة تتخذ شكلها الجماهيري الذي لا زال يلازم وسائل الإعلام و الاتصال إلى الوقت الراهن، مع بعض التعديلات الشكلية كما سنرى.

○ **المرحلة الثالثة**:

و من العوامل التي ساهمت في تشكيل مفهوم الجمهور ورسم معالمه الحديثة ظهور وسائل الإعلام الالكترونية، مع الإذاعة في عشرينات القرن الماضي، والتلفزيون في نفس القرن.

فقد أصبح الجمهور غير محدد في المكان، حيث باعد البث الإذاعي و التلفزيوني بين أفراد الجمهور من جهة وبينهم وبين المرسل أو القائم بالاتصال من جهة أخرى، وظهر شكلان جديدان من أشكال الجمهور هما المستمعون والمشاهدون الذين لم تعد الأمية والحواجز الطبيعية تحولان دون تعرضهم للرسائل الإعلامية كما كان الشأن بالنسبة للصحافة المكتوبة.

○**المرحلة الرابعة:**

ويتمثل العنصر التاريخي الرابع في اعتناق نظريات الديمقراطية السياسية التي تعتبر وسائل الإعلام والاتصال و حريتها أحد أهم مظاهرها. فقد انعكس تطبيق الأفكار الديمقراطية في أنظمة الحكم على وظائف وسائل الإعلام والاتصال وعلى الرقابة السياسة والاجتماعية ومبادئ الوصول إليها والمشاركة فيها، كما انعكس على وعي المجتمع ككل بأهمية وسال الإعلام و الاتصال ودورها في

الحياة السياسية و الاقتصادية و الثقافيّة.

لم يعد الجمهور مجرد قراء للصحف و مستمعين للإذاعات ومشاهدين للتلفزيون، وإنما في نفس الوقت أصبح، بالنسبة للباحثين، يتضمن ناخبين و مستهلكين للسلع و الخدمات، لذلك ظهرت مصطلحات لها علاقة وطيدة بالجمهور مثل الجمهور الناخبين mass electorate و جمهور السوق mass market.

إن هذه المراحل الأربعة التي ذكرناها لا تعني أن تطور مفهوم الجمهور قد توقف عند هذا الحد، فهو في تطوّر دائم متلازم مع تطور تكنولوجيا الاتصال. وقد بدأت تظهر بعض المصطلحات التي ترتبط بتقنية الانترنت مثل جمهور الواب web audience وaudience online وغيرها من المصطلحات[1].

من هذا المنطلق، وبناء على المراحل التي تناولناها في تشكيل مفهوم الجمهور، يمكن أن نقول بان الجمهور هو ذلك المتلقي أو المتفاعل مع رسالة إعلامية مكتوبة أو مسموعة أو مرئية أو الكترونية تحتوي على أهداف سياسية أو اقتصادية أو إيديولوجية، ونحدد أنواعه على الشكل التالي[2]:

1- الجمهور العام:

نشأ مفهوم الجمهور العام مع مفهوم المجال العام تطور وسائل الاعلام و الاتصال في العالم. هو بالتبسيط، أكثر حجماً من التجمعات الأخرى أعضاؤه أكثر تبعثراً، متباعدون في المكان و أحيانا في الزمان، ولكنه ذو ديمومة أكثر ويتشكل حول قضية مشتركة من الحياة العامة. و هدفه الرئيسي هو تكوين اهتمام أو رأي عام حول قضية أو ظاهرة اجتماعية. وقد ارتبط ظهوره وتطوره بالبرجوازية و الصحافة حتى أصبح هدفاً أساسياً للوصول إلى تغيير سياسي، وعنصراً أساسياً للمشاركة

1- أنظر: أحمد عبد الحميد، دراسات الجمهور في بحوث الإعلام، م. س.

2- نفسه.

في المؤسسات الديمقراطية. و يمثّل الجمهور العام الديمقراطية، فهو يتميز بوجود جماعة نشطة متفاعلة و مستقلة فكرياً عن الوسيلة الإعلامية التي تعمل من خلالها.

وقد عرّفه ديوي على أنه تجمع سياسي لمجموعة من الأفراد يشكّلون وحدة إجتماعية من خلال الاعتراف المتبادل بوجود مشاكل مشتركة ينبغي إيجاد حلول مشتركة لها[1].

2- الجمهور الخاص[2]:

هو الجمهور الذي يجتمع فيه أفراده حول بعض الاهتمامات أو الحاجات أو الاتجاهات، مثل الافراد المشتركين في صحيفة ما، ويصبح من بعد ذلك من واجب وسائل الاعلام إثارة هذا الاهتمام وتدعيمه وتلبية حاجاته للاحتفاظ بالجمهور وتوسيعه .

وقد قدّم كلوس Clauss تحليلا عدديا للجمهور، حسب درجات مساهمته، كما يلي[3]:

- **الجمهور المفترض**:

هو مجموع السكان المستعدين لاستقبال عرض وحدة الاتصال، أي الذين يملكون الوسائل المادية والتقنية التي تمكنهم من استقبال الرسائل الإعلامية

---

1 - أنظر: الطاهر خرف الله وآخرون، الوسيط في الدراسات الجامعية، دار هومة، الجزائر1996.

2 - أنظر: عبد الباسط عبد المعطي، عبد الحميد محمود، استطلاع آراء الجمهور المصري في الافلام السينمائية، المجلة الاجتماعية القومية، القاهرة أيّار 1994.

3 - راجع: R. Claus, R.M. Oliphant, and K .Claus,"Signs, Legal Rights and Aesthetic Considerations", Signs of the Times Publishing Company, Cincinnati, OH 1972.

لوسيلة معينة، و من هنا فإن كل من يمتلكون أجهزة استقبال تلفزيون أو إذاعة يشكّلون الجمهور المفترض لهما. و الجمهور المفترض للصحيفة يقاس بعدد نسخ السحب، أما جمهور الويب(الانترنت) المفترض حسب هذا المنظور، فهو أكثر تعقيداً لأنه يتطلب توفر جهاز كمبيوتر وخط هاتفي ومودم إلى جانب اشتراك في الانترنت.

○ **الجمهور الفعلي**:

هو مجموع الأشخاص الذين استقبلوا فعلاً العرض الإعلامي، مثل المواظبين على برنامج تلفزيوني أو المستمعين المداومين على حصة إذاعية معينة أو قراء صحيفة أو زوار موقع الكتروني، يسجل حضورهم بمجرد النقر على الرابطة.

○**الجمهور المتعرض:**

وهو جزء من الجمهور الفعلي الذي يتلقى الرسالة الإعلامية بصرف النظر عن إدراكها وعن الموقف الذي يتخذه منها. فهناك من الجمهور من يستجيب للرسالة الإعلامية، و هناك من يتجاهلها تبعا لتطابقها مع احتياجاته ومصالحه المادية واهتماماته الفكرية والثقافية.

○**الجمهور الفعّال:**

وهو الجزء الذي يتفاعل أي يستجيب للرسالة الإعلامية، وهو الجمهور المستهدف من خلال الإعلانات التجارية والدعوات الانتخابية و الذي يحاول المرسل كسب وده أو حياده.

○ **الجماهير:**

مصطلح الجماهير أكثر شيوعاً واستخداماً في الدراسات الإعلامية و الثقافة

الشعبية العامية للإشارة إلى الجمهور العريض الذي تستهدفه غالباً وسائل الإعلام والاتصال. غير أن المصطلح يحمل دلالات معقدة ومتناقضة تبعا للسياقات الاجتماعية والثقافية، حيث ما زال الاعتقاد سائدا أنه يحمل معاني سلبية وأخرى إيجابية[1].

أما الجانب السلبي في المصطلح فهو ناجم عن الاستخدامات العامية، يعني مجموع الأشخاص الذين يفتقدون قيم الثقافة السائدة و لهم مستويات دنيا من الذكاء و العقلانية.

وأما الجانب الايجابي للمصطلح و خاصة في التقاليد الاشتراكية فإنه يعني القوة والتضامن من أجل تحقيق أهداف سياسية والوصول إلى غايات إيديولوجية.

وفي كلا الحالتين يظهر أن الإستخدامين يتضمنان الإشارة إلى عدد واسع من الأفراد يشتركون في ظروف إجتماعية وإقتصادية تجعل منهم قوة رفض ومواجهة الظروف المحلية.

وقد حاول هربرت بلومر إعطاء الفرق بين الجماعة والحشد، فقام بالتقسيم التالي[2]:

***الجماعة :**

كل أعضائها يعرفون بعضهم بعضا، وهم واعون لعضويتهم المشتركة في الجماعة، يتقاسمون نفس القيم ولهم بنية لعلاقاتهم مستمرة في الزمن، يعملون من خلالها على تحقيق أهداف مشتركة ومخطّطة.

---

1 - أنظر: R. Claus, R.M. Oliphant, and K .Claus,"Signs. Legal Rights and Aesthetic Considerations", Op. cit.

2 - أنظر: E. Griffin, A First Look at Communication Theory, The McGraw-Hill Companies, New York 1997.

***الحشد :**

أوسع من الجماعة، محدود في الزمان والمكان، مؤقت و نادر، يعاد تكوينه بنفس الشكل، قد يكون أعضاؤه محددي الهوية، يتقاسمون نفس الاهتمامات ولكن لا توجد بينهم بنية و لا تنظيم اجتماعي أو معنوي يربط بينهم. أعضاؤه متساوون ومدركون أن تجمعهم مؤقت، أملاه الحدث العارض، ويمكن أن يحقق هدفا ما ولكنه يتصف غالبا بالعاطفة والانفعال وأحيانا بالعفوية.

لقد كرّس ''اينيس'' جهدا معتبرا في البحث عن أبرز المميزات التي تنطبق على الجماعة الاجتماعية، وقد فرّق بين الخصائص الظاهرية وخصوصيات البنية الداخلية للجماعة، وقد عرّف العناصر الثلاثة في تحديد الطابع الاجتماعي لسلوك الجماعة، على النحو التالي[1]:

1- الاختلافات الاجتماعية:

إن الدراسات والأبحاث التي أجريت على جمهور وسائل الإعلام المختلفة أثبتت وجود اختلافات شكليّة جوهرية عند جماهير وسائل الإعلام والاتصال المختلفة، تتمثل في[2]:

○**اختلاف المصالح و الاهتمامات:** وهذا يفسره جزئياً تنوع الرسائل والوسائل الإعلامية، حيث أنه هناك دوافع و حوافز تدفع بالجمهور إلى اقتناء رسالة أو وسيلة إعلامية دون أخرى.

○**اختلاف درجات الإدراك:** يظهر الاختلاف الاجتماعي أيضا في تحديد الموقف تجاه الرسائل والوسائل الإعلامية وفهمها وتفسيرها، وهذا نتيجة اختلاف مستوى

---

1 - راجع: R. Claus, R.M. Oliphant, and K .Claus,"Signs. Legal Rights and Aesthetic Considerations", op.cit.

2 - نفسه.

التربية والتعليم والثقافة.

○**اختلاف مدة التأثير**: حيث أن الجمهور لا يتأثر بالرسالة الإعلامية في وقت واحد، فهناك اختلاف بين قطاعات الجمهور كذلك من حيث استمرار التأثير (أسبوع، أسبوعان، ساعة).

2- التفاعل الاجتماعي:

○**الطابع الاجتماعي**: يختلف سلوك الجمهور تبعاً لطبيعة الرسالة أو الوسط، فقد دخلت وسائل الأعلام والاتصال في جل نشاطات الحياة الاجتماعية. عندما يشاهد التلفزيون مثلا من قبل أعضاء الأسرة، يتفاعلون مع بعضهم البعض وتوفر لهم موضوعا للحديث وتبادل الآراء والإحساسات، وحتى لاتخاذ المواقف. من جهة أخرى، يسبب استخدام بعض وسائل الأعلام والاتصال الأخرى كالصحف والراديو والانترنت، الانفراد والعزلة عن المحيط الاجتماعي.

○ **الاستخدامات الاجتماعية**: أي أن وسائل الإعلام والاتصال تستخدم جماعيا من قبل الأفراد وهذا ما ذهب إليه "جيمس لول" Janes Lull حيث أنجز بحثا عن عائلة تشرك أفرادها في استخدام وسائل الإعلام والاتصال، فتوصل الى استنتاج وضّح من خلاله اجتماعية وسائل الإعلام والاتصال[1].

○ **العزلة الاجتماعية**: تعني استخدام وسائل الإعلام والاتصال بمعزل عن الآخرين، وخاصة الاستخدام المفرط، وهذا نوع من أنواع العزلة الذاتية نتيجة الحرمان و الهروب من الواقع خوفا أو عجزا عن مقاومة الضغوطات الاجتماعية.

○**علاقة الجمهور بالمرسل:** ينظر إلى العلاقة الممكنة بين الجمهور والمرسل من خلال وسائل الإعلام والاتصال على مستويين:

---

1 - نفسه.

1- محاولة المرسل الاتصال بمستقبله عن طريق رسالة إعلامية.

2- محاولة كل من المصدر والمتلقي بلوغ نفس الأهداف عن طريق وسائل الإعلام والاتصال.

يبقى أن نقول أن الجماهير تنتظر من وسائل الإعلام والاتصال المحليّة و الفضائية، أن تمدها بالتعليم والثقافة والترفيه والتسلية، بشكل يتناسب مع مكوّناتها ومقوّماتها التي تنبع من الأفكار التقليدية والثقافية السائدة، والمستمدة من العائلة أو المنظومة التربوية الخاصّة بها.

4-النماذج النظرية الاتصاليّة البارزة في ”الثورات العربية“

أ-نظريات الاتصال الأولى

ميّز العلماء شكلين أساسيين للاتصال الانساني، وهما الاتصال المباشر الذي يقتضي وجود شخصين او أكثر في مكان واحد وزمان واحد، والاتصال عبر الوسائط الذي يقصد به كل اشكال الاتصال التي ترتكز على وسيط تقني، وتشكل وسائل الاتصال الجماهيرية الكبرى كالصحافة والراديو والتلفزيون والانترنت أهم الركائز لهذا النوع من الاتصال الانساني[1].

والاتصال الحديث عبر هذه الوسائل يرتبط بالأساس بهدف سياسي، وهو تنظيم ”مساحة عامة“ لمناقشة المصالح العامة والخاصة. لكن هذه الرسالة المثالية تصطدم بمنطق اقتصادي يعيد طرحها. من هنا ينشأ تناقض يفسّر المواقف والخطابات المتضاربة بعنف، التي يخلقها منذ نشأته هذا الشكل للاتصال الانساني. الاتصال عبر الوسائط التقنية هو في اساسه ثمرة وظاهرة لحرية اساسية: حرية التفكير وحرية التعبير، وقد فرضت نفسها بصعوبة ضد قوى تحاول منعها او السيطرة عليها أو إفسادها.

في قلب الحياة العامة للمجتمعات الديموقراطية التي ما زالت في الواقع مقموعة ومقيدة من قبل الممارسات السياسية، ظهرت وسائل الاعلام والاتصال حديثاً في التاريخ البشري. اول الصحف كانت صحف المناسبات منذ ظهرت الصحافة

1 ـ راجع: مي العبدالله، علوم الإعلام و الاتصال، دار النهضة العربية، بيروت 2009.

المنتظمة في القرن السابع عشر، ثم في البلدان الاوروبية الرئيسية حين ظهرت اول صحيفة يومية في انكلترا في القرن الثامن عشر.

وشهد قرن الأنوار نضالاً صعباً من اجل حرية الصحافة، وتقدمت بريطانيا العظمى في هذا المجال (محو الاذن المسبق في 1695 ثم اعلان الـLibel Act في 1792).

في فرنسا اصطدمت حرية الصحافة خلال القرن التاسع عشر بنظام رقابة ثم انذار خلال الامبراطورية الثانية. ولم تكرس إلا في نهاية القرن التاسع عشرمع قانون 29 تموز1881 [1].

ورغم تطورها في ظروف صعبة، كانت وسائل الاعلام والاتصال منذ القرن الثامن عشر، موضوع مجموعة من الخطابات ''المتفائلة'' التي تمتدح ايجابياتها وميزاتها. والصحافة المكتوبة التي يطلق عليها اليكسيس دوتوكفيل Alexis Detoqueville لقب ''الاداة الديموقراطية للحرية''، تستمر في الظهور كأداة اساسية لتقديم الأفكار ومناقشتها بحرية.

بدأت المواقف الناقدة لوسائل الاعلام والاتصال منذ القرن السابع عشر بقلم بعض الكتاب مثل لافونتان La Fontaine الذي يعتبر ان كل ''صانع للصحف هو محتال ''doit tribut au malin''، وازداد النقد في القرن التاسع عشر عندما افتضح اكثر فأكثر إحتيال أصحاب الصحف وأُدينت عدم مسؤولية الصحافيين الذين كما يقول بلزاك Honoré de Balzac ''بالنسبة اليهم كل ما هو ممكن هو واقعي''[2]. وعندما ظهر البث الاذاعي في القرن العشرين (1920) وبعده التلفزيون (1945) كان حاملا للآمال، وبحكم تأثيرها الجماهيري أعطيت لهذه الوسائل سلطات أخرى إيجابية للمصلحة العامة، بحسب المراحل التاريخية

---

1 ـ أنظر: مي العبدالله، الاتصال و الديمقراطية، دار النهضة العربية، بيروت 2006.

2 ـ نفسه.

والظروف: ”دمقرطة“ الثقافة، توسيع النقاش العام، وحديثاً تصليح أشكال مختلفة للخلل الاجتماعي.

وانتقلت الانتقادات الى القرن العشرين حول مسألة تأثيرات نشاط وسائل الاعلام والاتصال. فمنذ الثلاثينات تجد هذه الوسائل نفسها متهمة بكونها ادوات خطيرة للتلاعب بالجماهير. وفي هذا الصدد يدافع جاك الول Jacques Ellul عن أطروحة ان الراديو والتلفزيون ممكن ان يوضعا في خدمة شكل من اشكال ”الاغتصاب النفسي“ viol psychique للأفراد.

ويؤكد باحثون آخرون من جهتهم على التحولات الثقافية التي أحدثتها وسائل الاعلام والاتصال التي، وهي تلغي المعايير والقيم، تأتي ”بثقافة متوسطة“، او”مركّبة“mosaïque. وحديثاً، فإن تسريع الوقت الاتصالي وتعميم الاتصال بالشبكات، يدفع بباحثين آخرين مثل Jean Baudrillard بأن ينبّهوا الى حالة ”النقل خارج الواقع“déréalisation التي يبعث اليها الافراد والجماعات تدريجياً في مجتمعاتنا التي تصير أكثر فأكثر مجتمعات ”إتصالية[1]“.

ومصدر هذه الاحكام المتضارية المتعلقة بهذا الشكل الاتصالي الاجتماعي الجديد، هو التوتر القائم المستمر بين الرهانات الاقتصادية والرمزية التي هي في قلب النظام الاتصالي. فالثورة الصناعية التي حدثت في القرن التاسع عشر أعطت في الواقع للاتصال عبر الوسائل الجديدة بعداً استراتيجياً للتطور الاقتصادي للمجتمعات الغربية، اذ ظهرت في حينها كوسيلة مقررة لتحول طرق التفكير، يجب ان تتكيف مع بيئة جديدة، وممارسات إستهلاكية يجب ان تتزايد لتطوير الاسواق. وهي تظهر من جهة ثانية كشرط أساسي لسير النظام

---

1 - راجع: Gaetant Tremblay,”La Science des communications et le phénomène technique”, in Sciences sociales et transformations technologiques, Gouvernement du Québec 2002.

النقدي الذي يوجب إيجاد نظام معلوماتي معقد يمكن من أخذ القرارات بسرعة وجرأة. ويرتاد الاتصال الاجتماعي "قيمة تجارية" valeur marchande، بعد ان اصبح ضرورياً لمجمل الفئات الاجتماعية، اذ تديره آليات تجارية موجودة حتى في مؤسسات تابعة للقطاع العام. والمؤسسات الاجتماعية التي ترتكز عليها هذه الوسائل هي مؤسسات تطلق منتوجات خاضعة لشروط السوق والمنافسة. وللصناعة الثقافية هذه يوجد رهانات اقتصادية هامة تبيّنها الحركات الثابتة والمستمرة لاعادة التنظيم التي نلاحظها في هذا القطاع (اعادة شراء المناصب، تحالف بين تجمعات..).

ووسائل الاتصال الجماهيرية يمكنها هكذا ان تجمع بصورة دائمة جماهير غير مستقرة، تشتريها مؤسسات تقوم بمساهمات اعلانية. وهنا يجب التمييز بين ثلاثة عناصر في الانتاج الاتصالي: المعلومات الاخبارية بمعنى الكلمة : الصفحات التحريرية في الصحف والبرامج الاخبارية، والاعلان (صحفات الاعلانات في الصحافة المكتوبة والدعايات في الراديو والتلفزيون). الى هذه يجب اضافة "مواد التسلية" بالنسبة للوسائل السمعية البصرية. هذه العناصر الثلاثة تنتمي في الواقع الى سوقين مختلفين: سوق المستهلكين او المستخدمين، وسوق المعلنين. لكن هاتين السوقين هما في الوقائع مرتبطتان كثيراً، فكلاهما يحركهما البحث عن أكبر جمهور ممكن. وتطور وسائل الاتصال بالتالي هو مرتبط الى حد بعيد بتطور الاعلان الذي بدأ منذ القرن التاسع عشر.

وتأتي مع هذين الوجهين الرئيسين للنشاط الاتصالي ايضاً مجموعة من الرّهانات الرمزيّة. فالإعلام والإعلان هما ساحات لانتاج خطابات. وهما يرتكزان على أنواع مختلفة من الادوات الخطابيّة (لغة كلامية، صورة، رموز، حركات ..). فالخطاب الاعلامي والخطاب الإعلاني يتبعان إخراج ظواهر آنية من الأحداث الآنية كما من الخيال المركب. والمضامين الاعلامية كالمضامين الاعلانية تبنى

على مجموعة من الخيارات القابلة للنقاش التي تستخدم شكلاً كلامياً أو مرئياً. هذه المواقف تساهم في ترويج صور ذهنية لدى الأفراد، مبنية على شكل تصورات جماعية. هذه التصورات وهي تؤثر في الأفراد مثل ''فلترات''، تشكل أدوات لفهم الواقع، وهو يفهم عبر هذه الوسائط بشكل عنيف أو عقلاني. ووسائل الاتصال تساهم، وهي تحرك انتقال هذه التصورات عبر العالم الإجتماعي، في تحديد أنظمة القيم والعقائد التي تسود كقواعد ثابتة لجماعات وطنية، محلية، مناطقية ... إن تطور بعض الوسائل الخارقة للقارات والحدود، وهو يعتبر مهدداً لهوية بعض التجمعات الثقافية، يمكن ان يتسبب في نشوء صراعات وتبني اجراءات تنظيمية (مثل التلفزيون الفضائي او الانترنت سنة 1992).

ب- تطور مفهوم الاتصال الثقافي في حركات الاحتجاج الاجتماعية

تعتبر حركات الاحتجاج من الظواهر الجديرة بالبحث والاهتمام كونها ترفد الاتصال الثقافي بمسارات التغيير المجتمعي وتعبر عن إرادة الجماهير في التغيير الجذري في ثقافة الدولة وتصحيح علاقة المجتمع بالدولة. إضافة إلى تزامنها وسرعة انتقالها من مجتمع إلى آخر، وصولاً إلى النتائج التي تتركها هذه الحركات في الحاضر وتلك المتوقعة في المستقبل. وتعاظمت أهمية الحركات الاجتماعية في العقود الأخيرة، واتسعت أدوارها نتيجة لعجز المؤسسات التقليدية أو قصورها عن التصدي لأشكال محددة من المخاطر التي تتهدد المجتمعات البشرية على اختلافها مثل: القضايا البيئية، وأخطار الانتشار النووي، والمخاطر التي تنطوي عليها عملية العولمة، والآثار السلبية لانتشار تقانات المعلومات الجديدة.

وهذه المشكلات والتحديات هي من النوع الذي لا تستطيع المؤسسات الحكومية والسياسية والحزبية السائدة في المجتمعات الحديثة ان تتصدى له. بل

إننا، في المقابل نشهد تزايد الهيمنة التي تُمارسها على حياتنا الاجتماعية والخاصة المؤسسات التجارية والاقتصادية العملاقة والأجهزة الحكومية البيروقراطية، ونفوذ وسائل الإعلام.

تغيّرت الرؤى التي طرحها علم النفس الاجتماعي لتفسير الحركات الجمعية، فبعد أن كانت النظريّات التقليدية تؤكد على العمليات الفردية في اتخاذ القرار، أصبحت النظريات الحالية تؤكد على عمليات ما بين الجماعات ضمن البيئة السياسية، وهو ما صار يصطلح عليه بالحركة الاجتماعية، التي هي تحالف واسع بين أفراد تربطهم مصالح مشتركة نحو إحداث أو إيقاف تغير اجتماعي معين. وقد تتألف الحركة من تيارات متعددة تعمل منفصلة عن بعضها، ومع ذلك يمكن عدّها حركة إجتماعية.

كانت "نظرية الحثالة" Riffraff Theory هي النظرية السائدة قبل ستينات القرن العشرين، والتي ترى أن المشاركة في أعمال الشغب مثلاً تقتصر على قلة من المجرمين والمدمنين والمشردين والخارجين على القانون، وإنها أعمال معزولة لا تنال تأييداً يذكر من المجتمع. لكن التحليلات التي أجريت فيما بعد بينت خطأ هذه النظرية، إذ وجد Orum 1972 مثلاً أن المشاركين في أعمال الشغب العرقية في الولايات المتحدة الأمريكية كانوا يمثلون جميع القطاعات المهتمة بالشأن العنصري تدفعهم مظالم اجتماعية حقيقية لا تشنجات لأناس مضطربين[1].

وقد دفعت موجة الاحتجاجات السياسية التي غمرت أوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية في ستينات القرن الماضي وبدايات سبعيناته، الباحثين إلى التأمل في مسألة أن هذا التنامي الحاد في الاحتجاجات قد تجاوز قدرة هذه الأنظمة "الديمقراطية" على الاستجابة للحاجات المباشرة والمتسعة لمواطنيها، الأمر

1 - راجع: Philippe Breton, L'Utopie de la communication, Le mythe du village planétaire, La Découverte, Paris 1995.

الذي أحدث تغييراً في النظرة إلى الاحتجاج السياسي. فبعد أن كان يوصف بكونه متنفساً للإحباط الذي تعاني منه الجماعات الهامشية أو تلك المحرومة من التعبير، أصبحت له دلالات أوسع بوصفه وسيلة شرعية ومقبولة وفاعلة، يمارسها الأفراد المالكون للمهارات المعرفية والموارد الاجتماعية والمنهمكين في الشؤون السياسية والمندمجون في البنية الاجتماعية، للتأثير في النخب السياسية الحاكمة. وبذلك لم يعد ينظر إلى الاحتجاج على إنه تهديد للنظام السياسي، بل توسيع للمشاركة الديمقراطية. فابتدأ العلماء الاجتماعيون في البلدان الغربية، منذ السبعينات، بتوظيف نتائج الدراسات المسحية لتقصي الدوافع الفردية الكامنة خلف اشتراك الناس في تلك الحركات الاجتماعية، ساعين لتفسير الأسباب الضمنية لتنامي الاحتجاجات في مجتمعاتهم. ومنذ ذلك الحين بدأت بالتراكم معطيات امبريقية منتظمة تربط بين الخصائص الشخصية للأفراد وانخراطهم في سلوك الاحتجاج.

ج- نحو الدراسات السوسيولوجية

شهدت دراسة الحركات تطوراً كبيراً صاحب التغيير الذي شهدته هذه الحركات خلال مراحلها المختلفة وانتقالها من شكل إلى آخر، و قد حفز ذلك العلماء و الباحثين، إلى تطوير وسائل جديدة للتعرف على طبيعة هذه الحركات ومحاولة معرفة مختلف تركيباتها وعلاقاتها، الداخلية و الخارجية، وكانت أول دراسة سوسيولوجية حقيقية للجماعة مع العالم ''غوستاف لوبون'' في كتابه) ''سيكولوجية الجماهير'' Psychologie des foules والذي ألفه عام 1895، والذي تحدث فيه عن دور العواطف في خلق السلوك الجماعي و تكون المجموعات البشرية، و يبعد بذلك عنصري (الذكاء والتفكير كمؤسسين للتجمهر)، و بخلاف دراسة لوبون، فإن الأبحاث اللاحقة قد ركزت اهتمامها على دور الوعي في خلق السلوك الجمعي على عكس ما ادعى لوبون، و قد انقسمت هذه الأبحاث

بين التركيز على بناء الجماعة وتنظيمها وبين البحث في العلاقات الداخلية بين أعضائها والخارجية، مع المحيط الاجتماعي ومختلف أبعاده، وقد جاءت مختلف هذه الأبحاث ضمن سياق زمني يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل زمنية كبرى، الأولى تغطي الفترة ما قبل العشرينيات من القرن الماضي، والثانية من نهاية الأولى إلى غاية الستينات من القرن الماضي، لتأتي المرحلة الثالثة والأخيرة التي تستمر إلى الآن وظهرت معها بداية بروز الحركات الاجتماعية الجديدة. وعند التحدث عن الحركات الاجتماعية، نجد في الغالب أننا نتحدث عن جماعات متنوعة الأهداف من خلال مصطلحات قابلة للتداول والتبادل مثل التحالفات، والحلفاء، والشبكات وهي جميعها أشكال متميزة من مستويات العمل الجماعي (فجميع هذه الأشكال يمكن أن تكون جزءاً من حركات اجتماعية والعكس صحيح)، وعمليات الحركة الاجتماعية تبني وتنتج شبكات معلوماتية مكثفة وسط الفاعلين الذين يتقاسمون ويشتركون في هوية جماعية ومنخرطون في صراع اجتماعي أو سياسي[1].

والحركات الاجتماعية تضاهي أو تقابل عمليات التحالف حيث لا تتطلب العلاقات التكتيكية لتحقيق أهداف محددة هوية جماعية، ولكن التحالف يتيح لأعضائه العمل تحت رعايته.

وتميزت حركات الاحتجاج الاجتماعية على مدى العقود الماضية بتنوع ثري على مستوى الاهتمامات والأهداف، أهمها على سبيل المثال: حركات التحرر الوطني والتخلص من الاستعمار، وإنهاء سياسة التفرقة العنصرية، ومكافحة الفقر، وحماية الأقليات، وتعزيز حقوق المرأة، وتجريم الألغام الأرضية، والحماية البيئية. كما تنوعت التصنيفات التي ميزت بين أنواع حركات الاحتجاج،

---

1 - أنظر: Frédéric Barbier et Catherine Bertho Lavenir, Histoire des médias de Diderot à Internet, Armand Colin, Paris 1996.

فالماركسيون يميزون بين خمسة أنواع ،هي: العمالية، والطلابية، والفلاحية، والنسائية، والثقافية، إستناداً إلى أن هذه الفئات الاجتماعية تشكل القوى الرئيسة المكونة لأغلبية الشعوب والمجتمعات المعاصرة، وهي في الوقت ذاته القوى الرئيسة للإنتاج، كما أنها أكثر القوى الاجتماعية تخلفاً فيما يتعلق بظروف عملها وأحوال معيشتها. وتميّز منظورات أخرى بين نوعين من حركات الاحتجاج، هما: الحركات التي تسعى إلى تغيير القواعد والأحكام المعمول بها، والحركات التي تستهدف تغيير القيم وتجديد الأخلاق.

وتضم الحركات الاجتماعية ثلاثة أنواع من المطالب: البرنامج والهوية والموقف. مطالب البرنامج تتضمن دعم أو معارضة معلنة لتحركات فعلية أو مقترحة من قبل الأطراف التي تسعى الحركة للتأثير فيها. أما مطالب الهوية فهي تتألف من التأكيد على أننا "نحن" (المطالبين) نشكل قوة موحدة يعتد بها. في حين تؤكد مطالب الموقف على الروابط والمتشابهات الخاصة بفاعلين سياسيين آخرين مثل الأقليات المستبعدة أو جماعات المواطنين ذات التأسيس السليم أو المؤيدين الموالين للنظام. وأحياناً ما تكون الحركات معنية بموقف الفعالين الآخرين مثل حملات الدفاع عن نشطاء أو فاعلين بعينهم أو مجموعات الحرمان من الحقوق.

ويمكننا تخيل هذه الصيغ أو الأشكال من العمل الجماعي في ضوء بعض الخصائص الموجودة إلى حد ما في جميع تلك الأشكال، وقد نجد فروقاً في الدرجة تتمثل في:

- التوجهات الصراعية (الجماعية) فيما يخص المعارضين المحددين بموضوع.
- التبادلات غير الرسمية وسط أعضاء المجموعات.
- الهوية الجماعية التي يتقاسمها الأعضاء.

وفي جميع هذه النواحي سيكون التقدير الأعلى في الحركة الاجتماعية للتوجه

الصراعي والتكثيف الأعلى للتبادل غير الرسمي بين الأعضاء والشعور الواضح بالهوية الجماعية أكثر من الأشكال الأخرى[1].

وأمام المدى الواسع من تنوع الحركات الاجتماعية على مدى التاريخ، لا يمكننا التعميم فيما يخص النمط أو الأهداف الخاصة. فالحركات الاجتماعية قد تأتي راديكالية أو إصلاحية أو محافظة أو ثورية أو رجعية. وبعض الحركات الاجتماعية الفردية ولأنها متعددة القطاعات قد تفلت حتى من التصنيف السياسي المعتاد أو تنشق عنه. وقد تتضمن بعض الأعمال والأهداف الثورية الملازمة بالتزامن مع حركات برلمانية أو إصلاحية. والمسألة تكمن في تطور العلاقات والأدوات والفنيات أو الوسائل والأساليب المستخدمة أكثر منها في الاستعداد الذي يميز طبيعة الحركات الاجتماعية على وجه العموم. وفي جوهر الأمر، نجد المآل المشترك للحركات الاجتماعية جميعاً هو العمل الجماعي، ويفترض للحركات الاجتماعية عموماً أن تظهر استجابة لتدعيم أحد القيم الأخلاقية أو رداً على وقوع ظلم بيّن، وتكون مجسدة لإرادة الشعب أو على الأقل قطاع كبير من الناس. والأحقية المزعومة لقضية حركة اجتماعية معينة ومن يمثلها من أعداد هائلة من المشاركين تجنح دائماً إلى الإفصاح عن إجراءات تتعلق بالشرعية، وذلك بالرغم من التحدي المفترض للسلطات والقوى المهيمنة الراسخة. ومن هنا، فإن "الحركات الاجتماعية" إنما ظهرت كتسمية إيجابية تضاهي، بالنسبة للبعض، دور الأبطال الشعبيين باستثناء الحركات الاجتماعية (الجماعية) التي لا تُعرف بالضرورة نسبة إلى إحدى الشخصيات الكاريزيمة.

---

1 - أنظر:. A. Gamson, Power and Discontent. Homewood,The Bruszt, Illinois L. 2002.

ومن أهم النماذج النظرية التي تفسر حركات الاحتجاج الاجتماعية:

- **نموذج Smelser 1962 في السلوك الجمعي:** وتعدّ هذه النظرية تجميعاً إبداعياً لأفكار Pareto وDurkheim وWeber وParson. وقد صنف Semelser السلوك الجمعي إلى خمسة أنواع: الهلع Panic، والصرعة Craze،والهيجان العاطفي العدائي Hostile Ourburst، والحركات الموجهة معيارياً Norm–Oriented Movement، والحركات الموجهة قيمياً Value– Oriented Movement ومزجت النظرية بين عاملي الحرمان النسبي والتأزم في البنية الاجتماعية، لتفسير الدافعية المحرضة على الاحتجاج، ويطلق عليها أيضاً تسمية "نظرية تنظيم الصراع" Theory of Conflict Regulation إذ تهتم بالظروف أو الشروط التي يتخذ بموجبها النشاط الجمعي شكلاً غير مؤسساتي Non institutionalized [1]. تحدد النظرية ضرورة وجود ست مراحل ترتبط ببعضها ضمن نسق تراكمي معين، لكي يحدث السلوك الجمعي. وكل مرحلة من هذه المراحل تعدّ شرطاً ضرورياً لتحقيق القيمة الفاعلة للمرحلة اللاحقة، وعلى النحو الآتي:

أ- التيسيرات البنائية Structural Condutiveness: أي أن تسمح مواقف السلوك الاجتماعي بظهور أنماط معينة من السلوك الجمعي دون غيرها.

ب- التأزم (الإجهاد) البنائي Structural Strain: أي أن تحدث تأزمات نفسية في البيئة الاجتماعية، كالتفسخ Disintegration، وعدم الإتساق Inconsistency والحرمان Deprivation، وعدم المعيارية (الأنوميا) Anomia. وإن كل واحد من هذه التأزمات يمكن أن يغدو العامل المسبب لكل نمط من أنماط السلوك الجمعي.

---

1 - أنظر: C Boix, Democracy and redistribution, Cambridge University Press, Cambridge 1-2003.

ت- نمو المعتقدات المعممة وانتشارها Growth and Spread of Generalized Beliefs: أي الأفكار التي تحدد مصادر التأزم، وتعزو خصائص معينة لذلك المصدر، وتحدد الاستجابات الممكنة والمناسبة حيال ذلك التأزم.

ث- عوامل التعجيل Precipitating Factors: اي الأحداث التي تقدح زناد السلوك الجمعي، كقيام أجهزة الأمن بإجراءات متعسفة ضد رموز معينة.

ج- حراك المشاركين نحو الفعل Mobilization of Participants for Action: أي الشرط الضروري لدفع الجماعة المتأزمة انفعالياً إلى الفعل، لا سيما سلوك زعماء الجماعة.

ح- عمليات التحكم الاجتماعي The Operation of Social Control: أي العمليات التي تعمل ضمن كل المراحل السابقة لكبح السلوك الجمعي، سواء قبل اندلاعه أو بعده .

- **نظرية Toch 1966 في الأسس النفسية الاجتماعية للحركات الاجتماعية:** يعرّف توش Toch الحركة الاجتماعية بأنها: "جهد تبذله جماعة كبيرة من الأفراد، لإيجاد حل جمعي لمشكلة يشعرون إنها مشتركة فيما بينهم"[1]. وتبتديء هذه النظرية تحليلها مع الأشخاص الذين يواجهون مظالم معينة، إلا أن هذه المظالم ليست كافية لظهور الاحتجاج، إذ لا بد للفرد أن يكون متأثراً Susceptible أيضاً بجاذبية حركة اجتماعية ما بشرط أن تكون تلك الحركة محتضنة لمشاعر الامتعاض التي يعاني منها، وأن تكون جاذبيتها متأتية من وجود أناس ضمنها على استعداد لدخول معترك النزاع. ويسمي Toch هذا الموقف بـ "الصفقة" Transaction، مستعيراً إياه من الفيلسوفين ديوي وبنتلي

---

1 - أنظر: E Silva, Challenging Neoliberalism in Latin America, Cambridge University 1-Press, Cambridge and New York 2008.

Dewey وBentley، ويقصد به: أن شيئين يمكن أن يتشكلا حينما يواجه أحدهما الآخر إلى الحد الذي قد يُعتَقَد أن أحدهما نتاج للآخر.

- **منظور البحث عن الهوية والمعنى Search of Identity and Meaning**

يرى هذه التوجه أن تنظيمات الحركات الاجتماعية ليست وسائل لتحقيق أهداف خارجية، بل هي أهداف بحد ذاتها، لأنها المنافذ المجتمعية التي يستطيع الفعل الاجتماعي المستقل من خلالها خلق هويات جديدة. وهي تتبنى ما سمّاه كوهين Cohen 1985 سنة بـ"أنموذج التوجه نحو الهوية" Identity- Oriented Paradigm، الذي يختبر العمليات التي يخلق المحتجون جمعياً من خلالها الهويةَ التي يدافعون عنها، بمعنى إن حركات الاحتجاج الاجتماعية ليست أدوات للتغيير الاجتماعي، بل شبكات من الجماعات والأفراد يمارسون صراعاً ثقافياً ويتقاسمون هوية جماعية ضمن هوية اجتماعية عامة، هذا يعني أن خلق هويات جديدة لأعضاء تلك الحركات والدفاع عن تلك الهويات هو هدف نهائي بحد ذاته. فالتشييد الاجتماعي للمعنى هو حجر الزاوية في هذا المنظور، إذ إن المظالم الاجتماعية والموارد والفرص ومحددات الهوية ليست معطيات جاهزة بل مفاهيم يجري تشييدها اجتماعياً، بواسطة الطريقة التي يجري بها تفسير الخبرات وإسباغ المعنى عليها. وهكذا تغدو حركات الاحتجاج هي الراعية للمعنى والحاضنة للهويات في المجتمع، يكاد هذا المنظور أن يختص بتفسير نشوء الحركات الاجتماعية ذات الطابع الإصلاحي في المجتمعات الغربية المتقدمة، كحركات البيئة والسلام والحقوق الجنسية، وهي حركات تحركها دوافع البحث عن معنى للحياة وعن نمط أرقى من العيش، أكثر مما تحركها دوافع الحرمان والتصدي للمظالم العميقة، ولذلك يصبح بحثها عن هوية إجتماعية جديدة بحد ذاته دافعاً كافياً للاحتجاج، بمعنى إن هذا المنظور لا يعنى بدراسة الجماعات المنجزة

الهوية أصلاً، وكيف أن أزمة الهوية يمكن أن تصبح محرضاً على الاحتجاج.

إن انبثاق حركات الاحتجاج هو استجابة لمظالم Grievances معينة في المجتمع، إذ تصبح هذه الحركات وظاهر مصاحبة للتغير المجتمعي ولانحلال الروابط القديمة المصاحب لهذا التغير. فسلوك الاحتجاج يغدو الاستجابة الجمعية نحو مجتمع مشوش، والحركات الاجتماعية تصبح المؤسسات الجديدة التي يتماهى بها المغتربون نفسياً، أي إن هذه الحركات هي علامات على وجود تأزمات في المجتمع بدلاً من كونها وسائل لتحقيق أهداف سياسية. ويحدد McAdam (1982) أن التأزمات التي تحدث في البنى الاجتماعية تؤدي إلى تمزقات نفسية، كالاغتراب أو التناشز المعرفي أو الحرمان النسبي. وحينما تصل هذه التمزقات الى العتبة التراكمية المطلوبة لإنتاج حركات الاحتجاج الاجتماعية، تكون الدائرة السببية قد اكتملت.

إن السياسة الناضجة لأي دولة، لا بد أن تكون منتبهة ومتفاعلة مع كل التطورات النفسية التي تعيشها الجماعات المتضررة والمحرومة في المجتمع، خصوصاً تلك التطورات السلوكية الإيجابية التي قد تحدث على نحو إستثنائي في أزمان الفقر والحروب والأزمات. فمجتمعات الرفاه ذات التنظيم العقلاني الصارم، نشأت بفعل الصفقات التاريخية، المباشرة وغير المباشرة، التي أبرمت بين السلطة الحاكمة ممثلة بأرباب العمل والمحرومين ممثلة بالنقابات باختلاف أنواعها، بعد كوارث الحربين العالميتين اللتين فرضتا أخيراً اللجوء إلى الحوار. وبصرف النظر عن المضمون الايديولوجي النفعي لتلك الصفقات، فإنها حققت قفزة نوعية في أساليب حل الصراعات الاجتماعية، فرَضَها النضج الإدراكي والانفعالي لفئات المجتمع المحتجة من جهة، ورغبة القوى المتنفذة الحاكمة بإيجاد حلول عملية (براغماتية) تحقق إشباعاً للحاجات البشرية الأساسية بما يحفظ مصالحها والسلام الاجتماعي من جهة أخرى.

وقد احتلت الشبكات الاجتماعية حيزاً كبيراً من الاهتمام في التواصل الاجتماعي الانساني الحديث. فمع شيوع استخدام الانترنت كقناة تواصل، وتوفرها عند شريحة اجتماعية واسعة ومثقفة وقادرة على التفاعل والتأقلم مع ما تقدمه من خدمات معلوماتية، انفتحت امام المتصفحين سبل تواصل وتفاعل تتخطى الحدود الواقعة لتشبك افراد المجتمع ضمن وسائط متعددة بصرية وسمعية ومكتوبة multi media في الفضاء الالكتروني cyber space.

وانتقلت ثقافة المؤسسة من أروقة وقاعات وتفاعلات داخل هيكل المؤسسة الى الشبكات الاجتماعية. فاصبحت الطقوس والقيم والاقاصيص والنكات وحتى الثرثرات والنميمة إرث الشبكات الاجتماعية الالكتروني عن الواقع الاجتماعي.

ومما لاشك فيه أن "الفيسبوك" أحتل درجة متقدمة من التواصل والاجتماعيات بالرغم من اللغط والنظريات الذي أثيرت حوله.

فبعد ظهور الشبكات الإجتماعية في أواخر التسعينات لا تزال مسألة الخصوصية تثير الاقاويل و تدفع المصمميين لاخراج البرامج لتمكينها وتفعيلها أوحماية المستخدم الاجتماعي للعالم الافتراضي. ومع التقنية فتحت افق وسبل جديدة للتواصل الاجتماعي وامتدت تشعبات الاحوال الاجتماعية من الزمن الواقع الى الفضاء الالكتروني. واذا كان تعبير ماكلوهين عن ان الوسائل الاعلامية هي تشعبات عن العقل البشري صحيح بحيث نقلنا الايجابيات والسلبيات ونقلنا عالمنا بفوضى منظمة الى العالم الافتراضي، وكما الواقع يحتوي اختراقاً للحريات فان الافتراضي يحتوي على اختراق للخصوصية، وكما الواقع يحتوي السارق فان الافتراضي يحتوي على السرقة واصنافها وصولا الى سرقة الشخصيات.

ومن النتائج السلبية لاستخدام فيسبوك كان الابتعاد عن التحاور والمناقشات الخلاقة، مع أن الاعتراض على تلك الاطروحات قد يأتي في إطار أن سياق الاتصال الاجتماعي قد اختلف، وان التحاور الانساني ما زال متوفراً لكنّه اكتسب

امتدادا وتشعبات لوسائط تقنية سمعية وبصرية ومقروءة، وإن التغيير طال زمن الاتصال حيث قد تتجزأ الرسالة، وطال أيضاً جغرافية المتفاعلين مع الرسالة وبذلك نشأت القرية الكونية.

ولكن جميع الأبحاث والمناقشات تعترف بأهمية الفيس بوك كظاهرة متفشية عالمياً ومحلياً. وتجدر دراستها محليا في ظل التقلبات العصرية وعالميا على حد سواء. ولما كان الانسان يسّخّر جميع الكائنات الحية والجامدة لخدمته يستعرض هذا البحث فرضية استخدام الفيسبوك في خدمة التواصل الاجتماعي الثقافي التنظيمي، طارحا إشكالية الانتقال من الاستخدام التجريبي العشوائي الى التنظيمي المؤسساتي خصوصا من جانب المؤسسات الفردية الناشئة وبناء عليه ينتقل المستخدم من الفوضى إلى البناء[1].

فعاليات عواصف الربيع العربي لن تنتهي، ومن دون ابتكار نماذج خلاقة، تقطع مع كل قوى الثورة المضادة، التي سرقت ثورات شعوبنا، وأعادت إدخالها ضمن أنظمة استبداد معيارية دينية وغير دينية، وكأنه يحرم علينا أن نخرج إلى فضاء الحرية والعدالة والديمقراطية، نبذاً للفوضى، من دون المرور بـ "مطهر" الحرب الأهلية والفتن الداخلية المذهبية والطائفية، ومحاولات استعادة السلطة أو السلطات المُضاعة بفعل التصرفات الخرقاء والهوجاء لمن اعتبروا ويعتبرون، وأعدوا ويعدون أنفسهم من أصحاب "السلطة الإلهية" والايديولوجيات القاهرة، التي تعتمد الإكراه والغلبة، واللعب والاتجار بالمقدس.

هكذا انطلقت وتنطلق الموجة الثانية اليوم من الربيع العربي، على شكل حركات تمرد باتت تستفتي الناس بأخذ تواقيعهم وإبداء رأيهم بالسلطة الحاكمة، والنزول إلى الميادين للتعبير عن أوسع حالة ديمقراطية. وهذا أسلوب جديد

1 - أنظر: A. Bayat, Life as politics, American University Press, Cairo 2010.

في الكفاح الشعبي السلمي، يستحق أن يؤخذ في الاعتبار، كنموذج من نماذج الكفاحات الشعبية التي تبتدع طرائق أكثر جدة للتمرد على السلطات الحاكمة، خاصة تلك التي تعتقد أنها "مؤلهة" وتستمد سلطانها من "الموروث المقدس"، الذي تلاعب به العديد من الفقهاء ومشايخ الزمن الراهن بفتاواهم التي ما أنزل الله بها من سلطان أو نص أو تقليد، بغض النظر عن إدراك تلك السلطات، أو عدم إدراكها أن بقاءها من عدمه، مرهون بإرادة الناس، سواء كان ذلك عبر الانتخاب في الدول التي تتبع التقليد الانتخابي، أو في دول أخرى تعادي هذا التقليد، وتنهج نهجاً آخر في الإخضاع والغلبة، ما يجعل من اللجوء إلى ما يمكن تسميته "الاستفتاء التمردي"، كأسلوب أكثر جدة للتمرد وإسماع السلطات صوت الإرادة الشعبية، قبل أن تتجه الأمور إلى الثورة. وهنا محط آمال الربيع العربي بمآلاته النهائية الثورية كعملية متواصلة، لا تنتهي بانتهاء مرحلة أولى، قد لا تتجاوز التغيير الشكلي، ما يتطلب الانتقال إلى وجه آخر من وجوه الربيع. وهذا ما كان في مصر، وما قد يكون في تونس وفي البحرين وفي غزة، وفي ليبيا، وربما في أي مكان من المنطقة العربية[1].

هكذا أسس الحراك الشعبي الواسع في المنطقة العربية لمزيد من أساليب محاكاته، وأنعش آمالاً عريضة بإنهاء عهود الاستبداد الثاني "الديني"، وانتهاء حكم قوى "الإسلام السياسي"، التي فشلت في إدارة دولة وطنية كمصر، وحوّلتها خلال عام واحد إلى "دولة الغنيمة الفئوية"، ما استدعى "أخونتها" والتصرف بها وفق أهواء "المرشد"، و"الجماعة" التي انفصلت وتنفصل يوميا عن شعبها، لتعيش فصامها المعهود، بين واقع الناس ووقائع معاناتهم المرة، وواقع الغيبوبة والاغتراب، الذي تهدف إلى فرضه وقائع يومية لسلطة القهر والغلبة، القادمة عبر

1 ـ محمد العوني، "آفاق التحول نحو الديمقراطية في بلدان الربيع العربي"، ندوة مجلة الآداب، الرباط .2012

صناديق اقتراع. هذه الصناديق لا تقول كل شيء ولا تحسم أي شيء، في غياب ثقافة ديمقراطية، بل في غياب ديمقراطيين حقيقيين. لقد جاءت القوى الفاشية ونازيو هتلر عبر ذات الصندوق الذي فازت عبره أيضا قوى دينية فاعليتها الوحيدة أنها تجد جمهوراً واسعاً، فطرياً أو زبائنيا يؤيدها، من دون أن تستطيع خدمته بالشكل الأمثل، لنجد أنه يُقاد إلى نوع من ''غيبوبة الوعي'' بدلاً من قيادته للصحوة والنهضة والتنوير والحداثة والإصلاح على درب الثورة والتغيير الحقيقي.. فشتان ما بين نموذج أو نماذج معرفية، هي نتاج العقل والخيارات الحرة، وما بين اجترار وتكرار نماذج في السلطة لا تعد بغير انقلابات مضادة، لا تحفظ ولا تراعي مصالح وتطلعات الناس وأجيالها ومستقبلها.

عندما سأل أحد الأِشخاص ''ماو تسي تونج'' MaoutseTung يومًا عن رأيه في الثورة الفرنسية، كان رده ''إن من المبكر الحكم عليها''. ويذكرنا هذا بأن الحكم على حَدَثٍ في التاريخ بأنه كان ثورة من عدمه ليس جدلا أكاديميًّا أو نظريًّا بقدر ما هو جزء من الظاهرة التاريخية ذاتها محل التشكل في زمن كتابة هذه السطور. ورصد وتسجيل وكتابة التاريخ جزء من الثورة كعملية تحول (أو احتواء للتحول فيما يعرف بالثورة المضادة)، ويكفي تذكر كلمات الفيلسوف ''ولتر بنيامين'' Walter Benjaminعندما قدم تشبيها للتاريخ بأنه مَلَك فاتح جناحيه يمضي بظهره إلى الأمام مدفوعًا برياح الزمن فلا يرى برأسه إلا ما مضى، لأن التاريخ هو عقلنة لما وقع، ولكن الملك في الوقت نفسه يُدفع دفعًا. وهكذا يصبح التاريخ هو المستقبل الذي حدث، وتزول الفوارق الفلسفية بين المستقبل والحاضر والماضي[1].

في النهاية، ان تاريخ الثورات إنما يقع في مستقبلها، وفي التغيرات التي تنتجها أو تعجز عن إنتاجها في الأيام والسنوات التي تلي وقوعها. ومن ثم يُحكم

---

1 ـ المصدر نفسه.

على الثورة بما إذا كانت ثورة حقًّا أم حركة للإصلاح، وما إذا كانت قد أحدثت تغييرات فحسب في المجال السياسي فجعلته أكثر ديمقراطية أو سلطوية، وما إذا امتد التغيير إلى الاقتصاد فجعله أكثر تنموية وعدالة في الوقت نفسه، أم أن الوضع ظل على ما هو عليه قبل الثورة، وتغيرت نخب لتحل محلها أخرى بذات المنطق القائم على الإقصاء والاستبعاد من المشاركة في ثمرات النمو الاقتصادي.

إن هذا التحليل يطرح التساؤل حول الثورات وارتباطها من عدمه بنظريات الاقتصاد والتنمية، فهو يهدف إلى استكشاف الأطر والعلاقات النظرية لأدبيات التنمية في الأجيال المختلفة للثورات بدءا من الثورة الفرنسية ومرورا بالثورات الاشتراكية وموجات التحول الديمقراطي في التسعينات، وإنتهاءً بثورات الربيع العربي، كما يسعى إلى مناقشة محددات تبني نموذج تنموي في مراحل التحول بعد الثورات.

5-الاطار المعرفي الاتصالي لـ"نظرية ثقافة المشاركة"

أ-مدخل الاستخدام والاشباع

تعتبر الثقافة الاجتماعية في تطورها عاملاً رئيسيًّا محدِّدًا للإدراك والمعرفة معًا، أو لنقل التوجه الإدراكي والمعرفي للإنسان. ويتجلّى هذا في مدى وطبيعة التباين بين الثقافات الاجتماعية، ومن ثم تباين الأطر الإدراكية واختلاف صورة العالم والتعبير عنه، وكذلك اختلاف الواقع النفسي المرتهن بصورة التعبير عن الإدراك[1].

تعدّدت وتكثفت أبحاث العلماء التي تناولت بحث علاقة الاتصال بمنظومة القيم الثقافية للمجتمع. وبرزت أسماء باحثين من الغرب قدموا نظريات متميزة، مثل فولتون Wolton وماك لوهان Mc Luhan وبياجيه Piaget وشومسكي، Chomsky وخلق الجميع ما يمكن أن نسمّيه إطارًا عامّا أو اتجاهًا رئيسيّا للتفكير في هذا الموضوع. فقدّم مثلا توماسيللو Tomasello[2] نظرية ترسم الاطار الادراكي للعالم الجديد، عمد فيها إلى تقديم تفسير تطوري دينامي للمعرفة البشرية في ضوء أبعادها التطورية التاريخية للنوع والتطورية الفردية، والجمع بين النظرة التطورية وعلم النفس الثقافي، وبيان أن جذور القدرة البشرية على توافر ثقافة

1 - أنظر: "الأصول الثقافية للمعرفة العلمية"، مجلة العربي، الكويت 1 شباط 2006.

2 - توماسيللو هوالمدير المشارك لمعهد ماكس بلانك للأنثروبولوجيا المتطورة في ليبزيج، وله أبحاث ومؤلفات عديدة، وصدر له عن جامعة هارفارد كتاب "الأصول الثقافية للمعرفة البشرية" الذي يتضمن نظريته هذه حول التطوّر البشري(2008).

الرمز، والنمو النفسي الذي يجري في إطارها المتطور، كامن ضمن عنقود أو مركب من قدرات معرفية ينفرد بها البشر وتظهر بوادرها منذ الطفولة.

عمل توماسيللو على تطوير وتعديل نظريات بياجيه، إذ نراه يقول إن الشكل الذي ينفرد به البشر للمعرفة البشرية التي تتحول إلى ثقافة من خلال التفاعل المتبادل عبر الاتصال الرمزي والتعاون والتعلم الاجتماعي, لا يتعلق بفهم الآخرين كمصادر حية للحركة والقوة حسبما افترض جان بياجيه، وإنما الأصوب أن نقول إن هذا الشكل الجديد للمعرفة الاجتماعية يختص بفهم أن الآخرين لهم اختياراتهم التي يحددونها من إدراكهم وأفعالهم، وأن هذه الخيارات توجهها عملية التمثيل أو التصور الذهني لنتيجة محددة.

"إن المقولات الفلسفية العتيقة البالية التي تُحدِّثنا عن الطبيعة مقابل التنشئة، وعن الفطري مقابل المكتسب، بل وعن الجينات مقابل البيئة، ليست على مستوى يؤهلها لأداء المهمة المنوطة بها، لأنها فلسفات سكونية، استاتيكية، وأخلاقية. إنها دون المستوى مادام هدفنا الوصول إلى تفسير تطوري دينامي للمعرفة البشرية في ضوء أبعادها التطورية التاريخية والتطورية الفردية[1]".

ويؤكد توماسيللو في هذا الصدد أننا بشر كبار ناضجون، إذ حين نبحث ونتأمل الوجود البشري لا نستطيع أن ننزع عن عيوننا نظاراتنا الثقافية ونرى العالم متجردا من الثقافة، أي عالما غير مصبوغ بثقافتنا.

خلال أربعينيات القرن العشرين أدى إدراك عواقب الفروق الفردية والتباين الاجتماعي، وإدراك السلوك المرتبط بوسائل الإعلام إلى بداية منظور جديد للعلاقة بين الجمهور، ووسائل الإعلام، وكان ذلك تحولاً من رأي الجمهور على أنه عنصر سلبي إلى أنه عنصر فاعل في انتقاء الرسائل والمضامين المفضلة من وسائل الإعلام.

---

1 - راجع: Michael Tomasello, Origins of Human Communication, MIT Press, NewYork 2008.

وكان ذلك ردة فعل لمفهوم قوة وسائل الإعلام كما في نظرية الرصاصة، ونظرية انتقال المعلومات على مرحلتين. ونظرية الاستخدامات والإشباعات القائمة على افتراض الجمهور النشط والتي تركز على كيفية استجابة وسائل الإعلام لدوافع احتياجات الجمهور[1].

وقد بدأ البحث في أنواع الاحتياجات التي يحققها إستخدام وسائل الإعلام في الثلاثينيات من القرن الماضي، عندما أجريت دراسات عديدة من هذا المنظور للتعرف على أسباب استخدام الجمهور لوسيلة معينة، وبدأت أبحاث النظرية منذ عام 1944 في دراسة استهدفت الكشف عن إشباع جمهور "المسلسلات اليومية"، وتوصلت إلى أنها تهتم بإشباع الحاجات العاطفية. وفي عام 1945 جاءت دراسة بيرلسون Berlson التي أجراها عندما توقفت ثماني صحف عن الصدور لمدة أسبوعين بسبب إضراب عمال شركة التوزيع في نيويورك، فكان سؤاله عما افتقده الجمهور خلال هذه المدة، وتوصل إلى أن الصحف تقوم بعدة أدوار تعد السبب في ارتباط الجمهور بها مثل دور نقل المعلومات، والإخبار، والهروب من العالم اليومي. وكان أول ظهور لهذه النظرية بصورة كاملة في كتاب "استخدام وسائل الاتصال الجماهيري" من تأليف كاتز Katz وبلملرBlumler عام 1974 ودار هذا الكتاب حول تصور الوظائف التي تقوم بها وسائل الإعلام من جانب، ودوافع استخدام الفرد من جانب آخر .

وتعد هذه النظرية بمثابة نقلة فكرية في مجال دراسات تأثير وسائل الاتصال، حيث يزعم المنظرون لهذه النظرية أن للجمهور إرادة من خلالها يحدد أي الوسائل والمضامين يختار.

واستمر الاهتمام بهذه النظرية عند الباحثين أمثال لازر سفيلد Lazarsfeld وريفيز Reeves وويلبور شرام Wilbur Schramm في القرن

1 ـ المرجع نفسه.

العشرين، ولكنها لم تكن مصممة لدراسة إشباع وسائل الإعلام للفرد بقدر ما هي استهداف للعلاقة بين متغيرات اجتماعية معينة، واستخدام وسائل الاتصال.

ومع تزايد الاهتمام بالإشباعات التي تزود بها وسائل الإعلام جمهورها، أصبح واضحا أن هذه الدراسات لم تستطع الوصول إلى تحديد للإشباعات التي توضح عناصر هذه النظرية، ذلك أن أصحابها لم يحاولوا الكشف عن مدى الارتباط بين ما انتهوا إليه من إشباعات، وبين الأصول الاجتماعية والثقافية والنفسية للحاجات التي يتم إشباعها، إضافة إلى عجزهم في البحث عن العلاقة بين وظائف الاتصال الجماهيري المتنوعة التي تعود إلى تحديد البناء الكامل لإشباعات وسائل الاتصال.

ورأى دينيس ما كويل Denis Macquail أنه لا بد من دراسة العلاقة بين الدوافع النفسية التي تحرك الفرد لتلبية حاجاته في وقت معين، والتعرض لوسائل الإعلام، وهو بهذا قدّم المدخل الرئيس لدراسة العلاقة بين المتلقين، ووسائل الإعلام. ذلك لأن هذا المدخل يقوم أساساً على تصور الوظائف التي تقوم بها الوسائل ومحتواها من جهة ودوافع الفرد المستخدم من جهة أخرى .

وفي السبعينيات الميلادية بدأ الباحثون يستهدفون عبر البحوث المنظمة بناء الأسس النظرية لمدخل الاستخدام والإشباع، وذلك عبر طرح، وصياغة الكثير من التساؤلات العديدة التي ظهرت في الدراسات التقليدية المقدمة في الأربعينيات من القرن نفسه، وأدى ذلك بدوره إلى قيام عدد من البحوث التطبيقية في مجال الاستخدام والإشباع، وكانت كل دراسة تسعى إلى الإسهام في بلورة ما انتهت إليه الدراسات السابقة في هذا المجال، فجعلوا كثيراً من الخطوات المنطقية التي كانت غير ظاهرة في تلك الدراسات السابقة خطوات عملية .

لذا كان كاتز Katz و بلملر Blumler يميزان هذه المرحلة بأنها تحاول استخدام المادة العلمية المتاحة حول الإشباع لشرح وتوضيح الجوانب الأخرى

من عملية الاتصال، التي يمكن أن ترتبط بها دوافع الجمهور وتوقعاته[1].

ب-أسس نظرية الاستخدام والاشباع

بعد أن بدأت المداخل الرئيسة للنظرية تتضح عند الباحثين، قاموا بمحاولة وضع الأسس العلمية والفرضيات التي تنطلق النظرية منها، وشكلت هذه الأسس والمداخل العلمية للنظرية. ولأن نظرية الاستخدامات والإشباعات قامت على افتراض الجمهور النشط، على العكس من نظريات التأثير السابقة التي قالت بقوة تأثير وسائل الإعلام في الجمهور مثل نظرية الرصاصة، أضفت النظرية بذلك صفة الإيجابية على الجمهور، فلم يعد الجمهور من خلال هذا المنظور متلقياً سلبياً بل ينظر إليه على أنه ينتقي بوعي ما يرغب في التعرض له من الوسائل والمضامين التي تلبي حاجاته النفسية والاجتماعية. لذا يرى (إليهو كاتز) Elihu Katz وزملاؤه أن هذا المنظور قائم على خمسة فروض هي كالآتي:

1-الجمهور هو جمهور مشارك فاعل في عملية الاتصال الجماهيري، ويستخدم الوسيلة التي تحقق حاجاته.

2-استخدام الوسائل يعبر عن الحاجات التي يرغب الجمهور تحقيقها، وتتحكم في ذلك أمور، منها: الفروق الفردية، والتفاعل الاجتماعي.

3-الجمهور هو الذي يختار الوسيلة، والمضمون اللذين يشبعان حاجاته.

4- يستطيع الجمهور تحديد حاجاته ودوافعها، ومن ثم يلجأ إلى الوسائل والمضامين التي تشبع حاجاته.

5- يمكن الاستدلال على المعايير الثقافية السائدة في المجتمع من خلال استخدام الجمهور لوسائل الاتصال، وليس من خلال الرسائل الإعلامية فقط .

---

1 ـ عبد الرزاق الدليمي، ”نظرية الاستخدامات والاشباعات“، مجلة الاتصال والتنمية، العدد 14.

وقد أكد ليتل جون Little John في هذا المعنى أن هناك ثلاثة فرضيات أساسية تنطلق منها هذه النظرية وهي[1]:

1-إن جمهور وسائل الإعلام يسعى إلى إشباع حاجة معينة من خلال تعرضه للرسائل التي تقدمها الوسيلة الإعلامية.

2- إن جمهور الوسيلة الإعلامية هو جمهور مسؤول عن اختيار ما يناسبه من وسائل الإعلام التي تحقق حاجاته ورغباته، فهو يعرف هذه الحاجات والرغبات، ويحاول إشباعها من خلال استخدام الوسائل الإعلامية المتعددة.

3- إن وسائل الإعلام تتنافس مع مصادر أخرى لإشباع حاجات الجماهير .

إضافة لذلك ركز قدامى الباحثين في مجال الاستخدامات والاشباعات على الاختيار والتلقي وطريقة التجاوب من جمهور الإعلام، كان الافتراض من الأساس هو أن الفرد في جمهور المشاهدين يقوم باختيار واع من بين القنوات ومحتوياتها، إلا أن الباحثين المعاصرين قد بدأوا يتشككون حول الافتراضات المتعلقة بمفهوم المشاهد النشط، فرغم أن الباحثين ما زالوا يعتبرون المشاهد نشطاً، فبعضهم يرى الآن أن المشاهدين ليسوا كلهم نشطين بالتساوي في كل الأوقات.

هذا الجزم يدل على بيئة نظرية متحركة ومتغيرة وخاصة ونحن نغادر العصر الصناعي إلى عصر ما بعد الصناعة.

إن الإشكالية المهمة التي تواجهها عمليات تطبيق نظرية الاستخدامات والإشباعات تتمحور حول إيجاد العلاقة الارتباطية بين استخدام وسائل الإعلام الحديثة ودرجة تحقيق القبول والإشباع وحجم الآثار المتحققة من تطبيق هذه النظرية، وهذا ما يحاول الباحثون الخوض فيه باستخدام المنهج الوصفي وصولاً إلى هدف تحقق العلاقة التي تربط بين الاستخدام والإشباع والتأثير[2].

---

1 ـ المصدر نفسه.

2 ـ نفسه.

وآخر دراساتنا في هذا المجال في لبنان، دراسة خاصة أجريت على مجموعة من الطلاب بين 19 و 25 سنة من العمر(48 % ذكور، 52 % اناث) من كلية الاعلام والتواصل في الجامعة اللبنانية الدولية من مختلف الاختصاصات (صحافة 52 %، اذاعة وتلفزيون 20 %، 20 % علاقات عامة، 8 % تصميم اعلانات) ومن عدة فروع في مختلف المدن اللبنانية (35 % بيروت، 19 % صور، 19 % صيدا، 19 % جبل لبنان، 8 % نبطية)، كان الهدف منها الكشف عن اتجاهات الطلاب الجامعيين في لبنان في استخدامهم لوسائل الاتصال الحديثة، وبالتالي تأثير هذه الوسائل على قيمهم وثقافتهم.

أتت النتائج وفقاً للآتي[1]:

في عادات الاتصال:

احتل استخدام التطبيقات المختلفة عبر الهواتف المحمولة المرتبة الأولى (96%) يليها استخدام الانترنت 76% ومن ثم ال IPad 4%.

في استخدام الانترنت احتل استخدام البريد الالكتروني المرتبة الأولى 72%، 60% محركات بحث Engine، 36% سماع الموسيقى، 24% منتديات، 20% صفحات خاصة و 4% للالعاب، 56% لمواقع التواصل الاجتماعي ومن أبرزها Facebook 64%، Twitter 40%، Instagram 20%، You Tube 8%، Google 8%، ومواقع اخرى مثل Amazon مواقع صحف ومجلات أخرى...)

هذه النتائج تشير الى نسبة مرتفعة نسبياً لاستخدام مواقع التواصل الاجتماعي وسيطرتها على المواقع ووسائل الاتصال التقليدية.

أما في استخدامات الهواتف المحمولة احتلت المواقع الاجتماعية المرتبة الأولى

---

1 ـ "استخدامات طلاب الجامعات في لبنان لوسائل الاتصال الحديثة"، ومي العبدالله واليسار كزاك، مؤتمر جامعة اليرموك ت2 2014.

68 %)موزعة على الشكل التالي 100 % Facebook، 47 % WhatsApp، 47 %Twitter، 13 % Instagram، 7 % مواقع أخرى، 7 % viber، 7 % 7 % Kik 2 % Photo editing, 2 %, Newspaper pages Skype, يليها استخدام البريد الالكتروني 64 %، 52 % محركات بحث، 48% لسماع الموسيقى، 285 للعب، 16 % لزيارة الصفحات الخاصة و12 % للمنتديات.

أما بالنسبة للوسائل الأخرى فاحتل البريد الالكتروني المرتبة الاولى 40 %، محركات البحث 36 %، 285 سماع الموسيقى، 16 % صفحات خاصة و16 % مواقع اجتماعية (الفايسبوك ثم تويتر، انستغرام، يوتيوب)

بالنسبة للمدة الزمنية للاستخدام:

	اقل من 4 ساعات يومياً	بين 4 و 8 ساعات يومياً	أكثر من 8 ساعات يومياً
انترنت	32 %	20 %	58 %
هاتف محمول	12 %	36 %	52 %
وسائل اخرى	40 %	24 %	12 %

تجدر الاشارة الى ان المدة الزمنية الأعلى لاستخدام الانترنت بالنسبة لأغلب المستخدمين تفوق ال 8 ساعات يومياً اي ثلث مدة اليوم وهي نسبة مرتفعة.

بالنسبة لكيفية للاستخدام:

	محادثة	رسائل نصية	محركات بحث	غير ذلك
انترنت	60 %	20 %	84 %	16 %
هاتف محمول	80 %	48 %	52 %	8 %
وسائل اخرى	24 %	0 %	56 %	8 %

بالنسبة لاستخدام الانترنت من خلال الهاتف : 44 % من المستجوبين يستخدمون الفايسبوك، يليها نسبة 36 % واتساب، 28 % غوغل، 24 % تويتر،16 % انستاغرام، 12 % gmail، 8 % viber، 4 % BBM، 4 % اعلام الكتروني وتطبيقات اخرى كالالعاب والمنتديات ومواقع الصحف والمجلات والمواقع الاخرى...

وبالنسبة للمدة الزمنية لاستخدام الانترنت على الهاتف المحمول فأتت كالتالي: % من 4 الى 8 ساعات، 31 % اكثر من 8 ساعات يومياُ و%26 اقل من 8 ساعات.

في أهداف الاتصال:

	انترنت	هاتف محمول	وسائل أخرى
لأنجاز بحث علمي	% 72	% 28	% 32
للبحث عن معلومات عامة	% 76	% 40	% 32
للتواصل مع اصدقاء	% 80	% 84	% 20
للتواصل مع الأهل	% 52	% 80	% 16
للتواصل مع الحبيب	% 36	% 56	% 8
للبحث عن الأخبار (اعلام الكتروني)	% 80	% 56	% 16
للتسلية والترفيه	% 48	% 52	% 28
للتسوق	% 20	% 12	% 0
لأسباب مهنية	% 64	% 12	% 20

في مدى الاشباعات:

	دائماً	أحياناً	كلا
انترنت	% 56	% 36	% 8
هاتف محمول	% 16	% 80	% 4
وسائل أخرى	% 4	% 60	% 12

	مفيد			هدر وقت			مواجهة المشاكل	
	طبعاً	أحياناً	كلا	نعم	احياناً	كلا	نعم	كلا
انترنت	68 %	28 %	4 %	12 %	56 %	32 %	40 %	60 %
هاتف محمول	60 %	40 %	0 %	40 %	40 %	20 %	16 %	84 %
وسائل أخرى	16 %	32 %	8 %	20 %	48 %	12 %	8 %	68 %

من ابرز المشاكل التي تواجه المستخدمين لدى استخدامهم الانترنت الارسال الضعيف والبطء (24 %) وعدم ايجاد المعلومات المطلوبة (12 %)، والاعلانات Pop Ups، واختراق الخصوصية خاصة ان المعلومات الشخصية غير محمية من الاختراق في لبنان قانونياً وبعضها غير قابل للتلف اضافة الى هدر الوقت كما أن بعض التطبيقات لا تعمل على نظام تشغيل واحد (Apple- Android).

في التأثير:

80 % من المستجوبين لم يسبق لهم زيادة اي اضافات في الوسائل الأخرى في حين ان 20 % استفادوا من مواقع التواصل الاجتماعي في تفعيل نشاطات مؤسسات يعملون لصالحها تجاه زبائنهم أو مدوناتهم

اثبتت الدراسة ان 60 % من المستجوبين يغنيهم الهاتف المحمول عن استخدام الوسائل الأخرى إذا خفف من استخدام الحاسوب لمعرفة كل جديد والاطلاع على الأخبار والمستجدات المحلية والعالمية متخطيا عوائق المسافة في حين أن 40 % لم يغنهم عنها اذ ان نطاق الهاتف ضيق ولا يساعد إلاّ في الأبحاث السطحيّة السريعة وحد من الاتصال والتواصل الشخصي وحصر بعضها في تطبيقات المحادثة.

	في الخصوصية			في العلاقات الاجتماعية			في العلاقات الاسرية		
	ايجابي	محايد	سلبي	ايجابي	محايد	سلبي	ايجابي	محايد	سلبي
انترنت	12%	52%	36%	16%	20%	56%	26%	30%	46%
هاتف محمول	12%	56%	32%	39%	27%	34%	21%	29%	50%
وسائل اخرى	20%	56%	0%	12%	60%	4%	0%	44%	32%

في العلاقات العاطفية			في زيادة الصداقات		
ايجابي	سلبي	محايد	نعم	محايد	كلا
36%	36%	28%	84%	8%	8%
39%	35%	26%	56%	20%	24%
8%	44%	8%	36%	28%	16%

بالتالي رأى 72 % من العينة المستجوبة انهم يجدون ما يتطلبون من المعلومات في وسائل الاتصال الحديثة مما يغنيهم عن وسائل الاتصال التقليدية. في حين ان 28 % منهم لا يكتفون بوسائل الاتصال الحديثة مما يدفعهم للعودة الى الوسائل التقليدية كالتلفاز والراديو والصحف والمجلات والكتب والمراجع والمصادر والمحادثات الوجاهية لميزة التفاعل الحي فيها.

64 % من المستجوبين يرون ان المعلومات والمصادر كافية لاشباع حاجاتهم في حين ان 36 % يلجؤون الى الكتب والاخصائيين والمراجع والاحصاءات والكتب والقوانين المتخصصة والمصادر الموثوقة واصحاب التجارب والصحف والمحطات المحلية.

48 % لا يواجهون صعوبات في استخدام وسائل الاتصال الحديثة في حين ان 52 % يعانون من مشاكل ابرزها تقنية لوجستية مثل ضعف الشبكة وبطئها بنسبة 48 % أو مادية بنسبة 24 % (خاصة ان العديد من المواقع تتطلب اشتراكات أو استخداماً مدفوعاً)

هذه النتائج تؤكد ان وسائل الاتصال الحديثة ما زالت غير متطورة ومتوفرة للدرجة الكافية ولم تغن عن وسائل الاعلام التقليدية المتعارف عليها.

في الاتصال

96 % من العينة يرون ان وسائل الاعلام بشكل عام لها دور في تطوير الاتصالات أي شبه إجماع.

	ايجابي	محايد	سلبي
انترنت	76 %	20 %	4 %
هاتف محمول	64 %	20 %	16 %
وسائل اخرى	8 %	52 %	0 %

80 % من العينة لا يرغبون في استخدام وسائل لم يسبق لها تجربتها بعد في حين ان 20 % يرغبون في تجربة بعض الوسائط والتطبيقات مثل I pad اذ انه اسهل للتصفح واصغر من الحاسوب الا ان العوائق المادية وارتفاع ثمنه يشكلان عائقاً ومثل candle اذ انه يساعد على الاحتفاظ بأثر من كتاب ضمن جهاز واحد اضافة الى قراءة سريعة..."

خلاصة:

أخيراً بالنسبة للمقترحات وآراء المستجوبين فتختصر بضرورة فرض رقابة على استخدام الانترنت والهواتف المحمولة خاصة بالنسبة للمراهقين من قبل الأهل. يضاف الى ذلك انه بالرغم من تسهيل البحث والاستخدامات الا انها لا تخلو من الوجه السلبي خاصة انها افقدت المجتمع الحس الاجتماعي والتفاعل الوجاهي البعيد عن المشاعر، "فاصبحت من خلال الشاشات والكلمات و emoticons لا تحمل واقع المشاعر".

هذه النتائج لها بعض الدلائل على غياب ثقافة المشاركة في استخدامات الشباب اللبناني لوسائل الاتصال الحديثة...

ج- بحوث التأثير الإعلامي

ان نظرية الاستخدامات والاشباعات التي يشير إليها العلماء اليوم، كأداة فاعلة للبحوث التي تأخذ بعين الاعتبار تأثيرات الإعلام. وفي وقت مبكر من تاريخ بحوث الاتصالات، قد تم صياغة منهجها الموجه لدراسة الإشباعات التي تجذب الجماهير لأنواع الإعلام والمحتوى الإعلامي الذي يرضي حاجات الناس الاجتماعية والنفسية. كما تم اعتماد المنهج التجريبي وشبه التجريبي في دراسات التأثير الإعلامي، والتي جرى التلاعب فيها بالظروف التي وقع فيها الاتصال

وذلك لتحسين ظروف التواصل، ومعرفة العواقب الغير مقصودة من الرسائل.

لقد سعت بحوث التأثير الإعلامي الأخرى إلى دوافع وأنماط الاختيار عند الجماهير لأنماط الإعلام الجديدة. ومن هذه الأمثلة: Cantril and Allport (1935) للإعلام المسموع "الإذاعة" Waples, Berelson, and Bradshaw (1940) للإعلام المقروء "القراءة"، و Herzog (1940, 1944) لبرامج المسابقات والمسلسلات الإذاعية النهارية، و Suchman (1942) لدراسة دوافع الإستماع للموسيقى، Wolfe and Fiske (1949) لدراسة شغف الأطفال لمسلسلات الكرتون, Berelson (1949) لدراسة وظائف تأثير قراءة الأخبار المكتوبة، Lazarsfeld and Stanton (1942, 1944, 1949) لدراسة أنواع ووسائل الإعلام المختلفة. وإعادة النظر التي قام بها Rubin's (1981) لصلاحية نطاق دوافع مشاهدة التلفزيون وعلاقتها بالبحوث التي أجريب في نظرية الإستخدامات والإشباعات. وأخيرا، Palmgreen and Rayburn's (1985) والمقارنة التجريبية للبدائل في نماذج الإشباعات.

عملت كل هذه الدراسات على وضع قائمة من الوظائف التي بنيت إما على المحتوى الإعلامي أو وسيلة الإعلام بحد ذاتها[1].

وتقر نظرية التبعية الإعلامية أن تأثير الإعلام مرتبط إرتباطاً مباشراً بعلاقة الإعلام بالجمهور، والمجتمع. ورغبة الفرد في الحصول على المعلومة هي العامل الذي يفسر لماذا للرسائل التي توجهها وسائل الإعلام تأثير عقلي، وعاطفي وتأثيرات أخرى. وتكون التبعية الإعلامية في أوجها عندما يكون الوصول إلى

---

1 - نفسه، أنظر: H. Herzog, Professor quiz: A gratification study, In P.F. Lazarsfeld (Ed.), Radio and the printed page, Duell, Sloan, & Pearce, New York 1940, pp. 64-93.

2- P.F. Lazarsfeld, Radio and the printed page, Duell, Sloan, & Pierce, New York 1940.

أهداف الأفراد وإشباع هذه الأهداف معتمداً بشكل مباشر على الحصول على المعلومات من وسائل الإعلام.

هذا وقد زاد Rubin and Windahl (1986) أن التبعية الإعلامية تتضمن أيضا الإشباعات التي يرغب بها الجمهور، كعنصر فعّال في نظرية التبعية الإعلامية. ويرى الكاتبان أن إجتماع الرغبة في الإشباعات والتبعية التي يفرضها المجتمع يشكّلان تأثيراً إعلامياً فعالاً. وقد جادل الكاتبان أن الإعتماد على الإعلام والرسائل الموجهة من الإعلام ينتج من محاولة البحث الجادة عن المعلومة أو الإستخدام الشعائري لبعض قنوات الإتصال وتوصيل المعلومة. وقد لاحظ ماكوريث McIlwraith (1998) أن الأشخاص "المدمنين" على استخدام التلفزيون يستخدمون التلفزيون لإلهاء أنفسهم من الأفكار المزعجة، ولضبط المزاج، وشغل الوقت. ويعتبر هذا الربط بين التبعية و البدائل الوظيفية هو بمثابة إثبات أن نظرية الإستخدامات والإشباعات هي النظرية القادرة على ربط الإتصالات الشخصية مع الإتصالات التي تتوسطها وسائل أخرى[1].

ويعتبر تاريخ نظرية الحرمان أطول باعاً من نظرية التبعية في نظرية الإستخدامات والإشباعات.

وقام برلسون Berelson (1949) بدراسة الإضراب الذي قامت به 8 صحف يومية رئيسية في مدينة نيويورك في عام 1945 والتأثير الذي حدث على تصرفات الجمهور. وبعد ذلك نشأت العديد من الدراسات التي قلّدت دراسة الكاتب والتي قامت جميعها بدراسة الإضراب وتأثيره على الجمهور وتصرفاته.

وقد وجد الباحثون Windahl, Hojerback, and Hedinsson (1986) أن تأثير الإضرابات الإعلامية متصلة أيضا بالحرمان الكلي للمراهقين من مشاهدة التلفزيون أو الحرمان الجزئي من مشاهدة بعض البرامج كبرامج التسلية

1 ـ أنظر: عبد الرزاق الدليمي، "نظرية الاستخدامات والاشباعات"، م. س.

وبرامج الخيال العلمي وغيرها. وترتبط أنواع الحرمان هذه بالمتغيرات الإعلامية وغير الإعلامية على حد سواء. حيث وجد الباحثون أن الجمهور الذي يحرم من الإعلام في المناطق ذات الإتجاهات الإجتماعية يشعر بالحرمان بصفة أكبر من الأشخاص القاطنين في المناطق ذات الاتجاهات المفاهيمية[1].

اتسمت المراحل الاولى ببروز ظاهرة ملفتة للانتباه تركّزت في أن الباحثين في نظرية الاستخدامات والإشباعات كانوا هم أنفسهم أشد المنتقدين لها. عبر العقود الماضية انتقد الباحثون في نظرية الإستخدامات والإشباعات نماذجهم وانتقدوها وطالبوا بتأسيس إطار نظري جديد.

يمكن لنوعية الإستخدامات وتصنيفها أن تعمل كأداة لتوحيد أسس البحوث التي تجرى في نظرية الإستخدامات والإشباعات، ومن الممكن أن تعمل على إعادة إختبار إستخدامات وسائل الإعلام لدى الجمهور.

كذلك أصبح هناك توجه من أجل توسيع وتطوير النظريات المتعلقة بالدوافع العاطفية لاستخدام وسائل الإعلام (Finn (1997[2] .

ان التركيز الكامل على العوامل الاجتماعية والثقافية لا يمكن ان يجد صداه ما لم يتم إدراك ماهية وكيفية استخدام الجماهير لقنوات الاتصال المستخدمة، وذلك لأن الجمهور المتلقي في عصر المعلومات سيبحث عن المعلومة، بينما يميل مستخدمو الشبكة العالمية الويب، إلى مصادر المعلومات التي تخاطبهم بصفه شخصية ولكن في محتوى أكثر متعة وإثارة وفقاً لما يراه Eighmey و McCord

وقد تلعب بحوث الاستخدامات والإشباعات بالفعل دوراً هاماً في الإجابة على الأسئلة المبدئية المرتبطة باستخدام الشبكة الالكترونية من باب اللهفة أو حب

---

1 - E. Katz, J. G Blumler, & M.Gurevitch, Uses and gratifications research. The Public Opinion Quarterly, 37(4), NY 1974a, pp. 509-523.

2 - نفسه.

الاستطلاع أو المكاسب أو الاجتماعيات، ويتوقع أيضا أن تساعد الاستخدامات والإشباعات في فهم متحولات أو متغيرات الانترنت وفرصه الواسعة في التواصل وذلك بوضع تصنيف لما يجري في الفضاء.

ثم إن التركيز الكامل على العوامل الاجتماعية والثقافية لا يمكن ان يجد صداه ما لم يتم إدراك ماهية وكيفية استخدام الجماهير لقنوات الاتصال المستخدمة. ويتوقع كثير من المهتمين بدراسات نظرية الاستخدامات والإشباعات أن ثمة ثورة تندلع في كل المجالات التي تتناول السلوك البشري بما في ذلك عمليات الاتصال.

وقد قاد ذلك ويفر Weaver (1993) إلى التحيّز من استبعاد المناهج الكمية، حيث جادل بان العديد من الباحثين في مجال الاتصالات قد قضوا عقوداً من الزمن وهم يطبقون المناهج الكمية والتحاليل الإحصائية، وقد علمنا من هذه المناهج الكثيرة عن الأطر العامة والاتجاهات والعلاقات والتي تستطيع أن "تمكننا من التقييم بدقة أكثر مما تمكننا خبراتنا الشخصية وانطباعاتنا" [1].

ويمكن ان يلخّص الأمر بان نظرية الاستخدامات والإشباعات عليها أن تبرهن فاعليتها في تأكيد أهمية السياق الاجتماعي كعامل في تجربة الاتصالات، ومن الواضح أن الطريقة التي يختارها الناس لاستخدام وسائل الإعلام والاتصال تختلف باختلاف وصفهم الاجتماعي. وهكذا فمن المهم أن نتذكر أن نظرية الاستخدامات والإشباعات تواصل في توفير أكثر من مفهوم منهجي، حيث أن مخططي الإعلام لا سيما أولئك الذين يقومون بالحملات الإعلامية، عليهم البدء بدراسة بمستقبل مستخدمي المعلومات والأسئلة التي يريدون لها إجابات. فالوسيلة الإعلامية في مراحل تطويرها الأولى كانت تحاط بتنبؤات غالباً ما تكون خاطئة، ولذلك فان الاستخدامات والإشباعات قد تصلح كمقدمة لتحليل كمي وكيفي جيد

1 ـ عبد الرزاق الدليمي، "نظرية الاستخدامات والاشباعات"، م.ن.

ومثير لتقنيات الإعلام الجديدة[1].

ما أردنا تأكيده هو ان كل نظريات الاعلام والاتصال الحديثة، بما فيها نظرية "ثقافة المشاركة"، يدخل فيها اعتبارات سيكولوجية واجتماعية كثيرة من الصعب أحيانا التحكم بها، فالظاهرة الاتصالية فيها كثير من التعقيد وزادها تعقيدا التقنيات الرقمية الحديثة وشبكة الانترنت وكل ما تحمله من رهانات[2].

---

1 ـ عبد الرزاق الدليمي، "نظرية الاستخدامات والاشباعات"، م.ن.

2 ـ راجع: مي العبدالله، نظريات الاتصال، دار النهضة العربية، بيروت 2001.

6- نحو "ثقافة المشاركة" Participatory Culture Theory

أ- الثقافة مصنوع فني اجتماعي

يعيش البشر، حسب توماسيللو، في عالم من اللغة (صاغته اللغة - الثقافة) والرياضيات والنقود ونظم الحكم والتعليم والعلم والدين، وهذه جميعا مؤسسات ثقافية مؤلفة من مواضعات وتقاليد ثقافية. إن الرمز يعبر عما يرمز إليه وفقا لاعتقادنا بشأنه بحيث نفكر فيه هكذا، أو نظنه هكذا. وإن هذه الأنواع من المؤسسات والمواضعات والتقاليد نشأت ويجري الحفاظ عليها بفضل سبل معينة من التفاعل والتفكير بين جماعات البشر[1].

والمعرفة البشرية شكل محدد متمايز من التكيف المعرفي، ولها خصائصها. ولن يتأتى لنا فهم المعرفة البشرية على حقيقتها دون فهم هذه الخصائص والأطر التي تطورت تاريخيا من خلالها[2]:

1- نشوء نوعي تاريخي، أي لها نشأتها التاريخية المميّزة للنوع. وقوام هذا التكيف قدرة على التوحد مع أفراد النوع وفهمهم، باعتبارهم كائنات لها قصد وهدف وقدرة ذهنية، أي عقل يفكر في ضوء الهدف المنشود والأفكار، شأنهم في هذا شأن الذات.

2- خاصية تاريخية، وتعني إمكان ظهور أشكال جديدة من آليات التعلم الثقافي والتكوين الاجتماعي أي التجدد والتطور بفضل التفاعل الاجتماعي مع الزمن،

---

1 - راجع : "الأصول الثقافية للمعرفة العلمية"، م.س.

2 - نفسه.

ويتجسد هذا في صورة ثقافة، أي رموز لسانية ومصنوعات فنية ثقافية وتقاليد سلوكية تراكم تعديلات على مدار الزمن. ويعني هذا ضمنا أن مجتمعا يفتقر إلى سياق التكوين الاجتماعي النشط, أي يفتقر إلى التفاعل الهادف والمشترك بين عناصره، يتعذر عليه تطوير المعارف بل يكرّس تخلّفه.

3- الخاصية الثالثة أن أفراد البشر يكتسبون المعارف والمهارات والتمثيلات المعرفية ويستخدمونها حسب الأطر والرموز، أي حسب السياق الثقافي الذي يولدون وينشأون فيه، ثم تهيأ لهم بفضل هذا الاستيعاب وتغير السياق الاجتماعي قدرة على التعديل والتطوير والانتقاد، ليتمثلها أو يتبناها المجتمع بعد ذلك لما فيها من جدوى ونفع. وهكذا تتراكم الإضافات والتعديلات التي نراها مجسدة ثقافيا، أي مجسدة في مظاهر الثقافة من رموز لسانية ومصنوعات فنية ومادية.

معنى هذا أن الأطفال يولدون ويلتقون ويتفاعلون مع عوالمهم الطبيعية والاجتماعية بشكل كامل إلى حد كبير، من خلال عدسات وسيطة هي الثقافة الموجودة قبلهم، بما تحتويه هذه الثقافة من مقاصد مبتكريها من السلف. ومن ثم فإن المعرفة التي يكتسبها الأطفال رهن المعارف المتراكمة في ثقافاتهم الاجتماعية وانتقالها إليهم عبر الرموز اللسانية.

وجدير بالملاحظة هنا أن المجتمعات البشرية تتمايز فيما بينها على أساس كم ونوع المعارف المتراكمة، والسياق الذي تجري فيه عملية التغذية أو التلقين المعرفي والتنشئة بعامة. وطبيعي أن المجتمعات الراكدة حصادها أو رصيدها المعرفي أقل من حيث الكم، وجامد ومتخلف من حيث النوع. ذلك لأن تزايد وتنوع وتطور الحصاد المعرفي رهن الفعالية الاجتماعية النشطة، ومن ثم تطور اللغة. وتتصف ثقافة المجتمعات الراكدة بالجمود والتعصب للقديم وعدم التسامح مع تعديل أو تطوير جديد على عكس المجتمعات النشطة، فإن سياقها الثقافي يتصف بالدينامية والمرونة والقدرة على التكيف السريع مع المتغيرات، وهو ما

يهيئ لها فرصاً أفضل للبقاء والتقدم والمنافسة.

وتختلف آليتا التعلم والتنشئة في هذه المجتمعات عن تلك. ويوضح توماسيللو أن التعلم والتنشئة الثقافية آليتان ناتجتان عن التطور وتمثلان استراتيجيتين مجتمعيتين للبقاء حسب الرؤية الثقافية السائدة. والملاحظ أن هدف آليتي التعلم والتنشئة في مجتمعات الثقافات الجامدة هو كفالة تكرار الذات على صورة السلف، بينما في مجتمعات الثقافة الدينامية والفعالية النشطة، فهو اكتساب أكبر قدر من المرونة والقدرة على الفعل المستقل للتكيف مع المتغيرات. إن التعلم والتنشئة الثقافية، كما يرى توماسيللو، حالتان خاصتان بالتطور التاريخي الفردي الممتد extended ontogeny. ويتفق في هذا مع ريتشارد دوكنز Dawkins في نظرته إلى النمط الظاهري أو النمط الفيني الممتد extended phenotype إذ يرى هذا النمط امتدادا للنمط الجيني في مسيرة التطور، حفاظا على بقاء النوع. ولهذا لا مجال في رأي توماسيللو لافتراض تعارض مزعوم بين الطبيعة والتنشئة، أي الطبيعة مقابل التنشئة، ذلك لأن التنشئة الثقافية شكل من أشكال كثيرة ابتكرتها الطبيعة وتتخذها لنفسها، وهي امتداد متطور لها.

وأهم ما في هذا الفكر بالنسبة لنا أنه يمضي بعيدا إلى عالم التربية أو التنشئة الثقافية للصغار والكبار بعامة، إذ تكشف لنا هذه النظرة أن التنشئة تختلف باختلاف ثقافات وفعاليات المجتمعات. وإذا كان الأطفال يتغذون على ثقافات مجتمعاتهم بداية، عبر الرموز اللّسانية، فإن هذا يعني أن أطفال البشر يلتقون ويتفاعلون مع عوالمهم الطبيعية والاجتماعية من خلال عدسات وسيطة هي الثقافة: المصنوعات والرموز الموجودة قبلاً، أي الموروثة بما تحتويه من مقاصد مبتكريها من السلف. ثم بعد هذا التطور الفردي، تتهيأ للمرء بعد استيعاب ثقافة مجتمعه، قدرة على التعديل والتطوير، ومواجهة المشاكل[1].

1 - أنظر: Michael Tomasello, Origins of Human Communication, op.cit.

خلاصة القول إن الثقافة مصنوع فني اجتماعي، أو أداة تكيف متطورة تعدل في تفاعلها مع وظيفتها الاجتماعية المتطورة والتي نشأت اجتماعيا لأدائها. واكتساب المجتمع للمصنوع الفني الجديد، أي المتطور أبدا كأداة وكدلالة، يمثل حائلا دون التراجع عنه أو نسيانه بفضل الفعالية الاجتماعية. ولهذا تشير الثقافة إلى مواقف التواصل الإجتماعي التي صممت لتمثيلها، كما تشير إلى المشكلات الاجتماعية التي صممت لحلها، وطبيعي أن تتطور بتطور المجتمع. ولكن دون ذلك يظل عقل المجتمع أسير ثقافة مضى زمانها، ويجمد المجتمع خارج التاريخ، كما يحدث الآن من دون ريب في المجتمعات العالمية، وبالذات في مجتمعات الشرق الأوسط والمنطقة العربية كما بينته صفحات الكتاب السابقة.

ب-دلائل دور الاتصال في بناء "ثقافة المشاركة"

يمكن اختصار الدلائل التي تشير إلى التشتت الثقافي التي تعيشه المنطقة، ودور المحتوى الاتصالي والاستخدامات الاتصالية الراهنة في تعزيزه، في النقاط التالية:

1- تعيش المنطقة تغيرات كبرى تحدث فوضى في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة تتسبب بتشتت الثقافات، لارتباط الثقافة ارتباطا وثيقا بهذه المجالات، وبظروف البيئة التي تتفاعل معها وما تحمله من متغيرات نفسية واجتماعية وتنظيمية...

2- التعرض لوسائل الاعلام والاتصال في المنطقة لا يحقق الاشباعات المنشودة، هذا يعني أن المحتوى لا يرضي حاجات المتلقين.

3- يزداد تأثير وسائل الاعلام بزيادة الاستخدامات وتعدد الخيارات واختصار المسافات الزمانية والمكانية.

4- تساهم وسائل الاعلام بالتشتيت الثقافي لاعتمادها أجندات سياسية تخدم

مصالحها ولا تكترث بالخصوصيات الثقافية.

5- يتجه المحتوى الاعلامي الى التسطيح والتشتيت الثقافي لاهتمامه بالدرجة الأولى بعنصر الإثارة والتشويق في البرامج الإعلامية.

6- أصبحت وسائل الاعلام والاتصال وسائل استهلاكية تجارية بامتياز.

7- تسيطر أهداف الترفيه والمتعة والتسلية والحصول السريع على المعلومات على نمط الاستهلاك الثقافي.

8- يميل مستخدمو وسائل الاتصال الحديثة وشبكة الانترنت العالمية إلى مصادر المعلومات التي تخاطبهم بصفه شخصية ولكن بمحتوى أكثر متعة وإثارة.

9- قام الباحثون بدراسات ميدانية احصائية عديدة عن الأطر العامة والاتجاهات والعلاقات ولكن لا يمكن الجزم في مسألة المنظومات الثقافية إلاّ عبر السياق الاجتماعي كعامل في تجارب الاتصال، ومن الواضح أن الطريقة التي يختارها الناس لاستخدام وسائل الإعلام والاتصال تختلف باختلاف وصفهم الاجتماعي، ودراستها تحتاج الى مستويات مختلفة من التحاليل، بينما كل التحاليل تؤكد الى الآن تأثير تشتت المضامين الاعلامية والاستخدامات الاتصالية على الثقافات.

ج-أهمية النظرية

تعمل وسائل الاتصال بطريقة غير مقصودة على تقليص الزمن الاجتماعي. ويرى بعض الباحثين أن وسائل الاتصال تمارس التفكيك الاجتماعي على اعتبار أن الزمن الذي يقضيه الفرد مع هذه الوسائل يكون بالنتيجة على حساب التفاعل الاجتماعي المباشر. ويحدث مع الزمن أن يألف الفرد هذا النمط من الاتصال، فيصبح انعزالياً ويعفي نفسه من المسؤولية الاجتماعية تجاه الآخرين. فقد أوجدت الصحف زمن القراءة، ثم أتت الإذاعة فأضافت زمن الاستماع فقللت بعض الشيء من زمن القراءة. ثم أتى التلفزيون فأضاف زمن

المشاهدة فقلل بعض الشيء من الزمنين السابقين. ثم أتى الحاسوب والشبكات المعلوماتية فأضافت زمن التصفح. ونكون هكذا قد اقتربنا مما سماه فرانكو فيراروتي Ferrarrotti بـ "نهاية المحادثة" والاتصال الشخصي المباشر.

وقد ارتبطت الصحافة المكتوبة عامة، والعربية خاصة، تاريخياً بقادة الرأي ورجال الأدب والثقافة والإصلاح، فقد ارتبطت الصحف في بداية نشأتها بالشخصيات الثقافية التي أسستها. وحديثاً، تقلص دور هؤلاء وأصبح الناشر مؤسسات إعلامية كبرى، وساهم في ذلك ارتباط المهنة الصحفية المعاصرة بالتخصص إلى جانب ظهور أنواع أخرى من قادة الرأي في مجالات خارجة عن الرأي والفكر. وعامة، فإن وسائل الاتصال تتحرك كمؤسسات ويكون دور المرسل فيها عاملاً مكملاً، وأصبحت وسائل الاتصال مؤسسات تضم أعداداً من المحررين والمخرجين والفنيين الذين يشاركون كمجموعة في إنتاج المادة الإعلامية وتسويقها[1].

في مقابل هذه الوقائع، تضع نظرية "ثقافة المشاركة" المثقف العربي أمام مسؤولياته وأمام واجب البحث عن عناصر القوة في تراثنا الثقافي، مع أهمية أن تكون القراءة عبر قراءة نقدية شاملة. مع خطوة موازية لها هي: محاولة خلق واقع جديد للثقافة، يتفاعل مع معطيات عالم جديد يوصف بالقرية الكونية الصغيرة. وهي لا تتحقق إلا بالسيطرة على التقنية الرقمية الفاعلة وشبكة الانترنت.

هذه هي القضية التي يجب أن ننتبه إليها، بلا إحساس بالدونية فنخشى الانفتاح على العالم، ولا هو الانبهار بالعالم الجديد.

لكن، لا شك أننا نعيش لحظة تاريخية نشهد من خلالها تشكل ثقافة جديدة، تعتمد في مرجعيتها وآلياتها التواصلية على التكنولوجيا الحديثة، التي تعبر عن

---

1 ـ أنظر: عبد الرحمن عزي، "تأثير وسائل الاتصال في الثقافة(المنهج المعياري)"، موقع الموسوعة الاسلامية، 19/ 06/ 2012.

أرقى مكتسبات تطور مسار الفكر البشري، وهي ثقافة تحدث في إطار استحقاقات حقوقية وعلمية واجتماعية وتنموية، في مناخ يدفع إلى المزيد من إعطاء الفرصة أمام التعبير الذاتي الحر. ولا شك أيضاً، أن عملية بناء تصور حول تجربة الممارسة الأدبية الرقمية في المشهد العربي، تتميز بالأهمية والخطورة في ذات الوقت، لأنها بمثابة شمعة وسط ظلام كثيف. وهذا ما يفرض على الأقل التعامل مع زمن بناء التصور حول هذه التجربة الإبداعية الجديدة، باستحضار مجموعة من الأسئلة، سواء المتداولة فيما يخص علاقة الفكر العربي، بكل ما هو جديد وغير مألوف في التفكير والممارسة، أو الجديدة تلك التي تنبثق مع عملية الانخراط في التجربة الجديدة تنظيرا وجرأة.

كما أن الخطورة تأتي من كون التجربة الأولى يتم التعامل معه عادة، بشيء من الدهشة والانبهار وهي مسألة مشروعة في إطار طموح الفكر البشري إلى الكشف والاكتشاف. غير أنها دهشة في حاجة إلى تحصين فكري وثقافي وفلسفي يدعم عملية البناء من أجل ضمان انخراط إنتاجي في التجربة الجديدة. وعليه، يمكن تعزيز التفكير في وضع تصور حول التجربة باستحضار الفرضيات التالية[1]:

1 - إن الانتقال إلى الدعامة الرقمية، يعطي فرصة جديدة بل مختلفة أمام التجلي الإبداعي، انطلاقا من كونه تجليا مختلفا عن المألوف في التشكل والتكون عن الشفهي والمطبوع، حيث البنية التركيبية و سياق الإنتاج وكذلك الوسائل التعبيرية والبنائية مختلفة عن المتعارف عليه في الممارسة الإبداعية، وهذا من شأنه أن ينتج معرفة جديدة بوضعية الوعي في الزمن الراهن.

2 - إن ظهور أي شكل تعبيري جديد ، يعود إلى ظهور قوانينه. وهي قوانين تعبر عن أنماط التفكير والتواصل في المرحلة، وتبقي القراءة مستوى تواصلياً تقنياً ومعرفياً وحضارياً، من أجل إنتاج معرفة طبيعة اشتغال هذه القوانين، ورصد

1 - راجع: نفسه.

الوعي المنتج لها ، في سبيل فهم المرحلة بمنطقها وقوانينها. إذ لا يتعلق الأمر فقط بمجرد تفكيك تجربة تعبيرية إلى عناصرها البنيوية والقول بجدتها أو لامألوفيتها، وإنما القراءة سؤال فلسفي وأسلوب في التفكير في المرحلة التي نعيشها.

3 - ما يمنح لتجربة النص الرقمي شرعية التداول في المشهد الإبداعي العربي، هو الانخراط في ممارسة هذا التعبير من طرف المبدعين العرب.

4 - إن تحقيق متن مهم من النصوص الرقمية الإبداعية العربية، خطوة مهمة لتحقيق تصور مسؤول نقديا وتنظيرا حول طبيعة التجربة. ذلك، لأن بناء تحديدات مفهومية للخطاب الإبداعي الرقمي في التجربة العربية، ما يزال في طور التفكير أمام ضعف الممارسة الإنتاجية. لأن الاشتغال على النصوص الرقمية باعتبارها متنا ونسقا، هو الذي يبلور منطق هذا الأدب، ويسمح بالتالي ببناء تصور حول منطق الممارسة الإبداعية الرقمية.

5 - التحسيس بالثقافة الرقمية ودورها الحضاري في تطوير علاقة الفكر بالمعرفة بشكل فعال وسريع لا يجب أن يتحول إلى نظرية نقدية تؤطر عملية الكتابة الرقمية. ذلك لأن النصوص هي وحدها المؤهلة لتطوير ثقافة قراءة النص الرقمي الأدبي، والتنظير لمنطق هذا الأدب.

6 - كثيراً ما رافق عملية قراءة النص الإبداعي العربي الشفهي والمطبوع بالخصوص (الرواية ،القصة القصية والشعر) سؤال تطبيق النظريات الغربية النقدية، فهل يمكن أن يضيء هذا السؤال تجربة القراءة في النصوص الرقمية العربية، حتى تطور التجربة العربية شكل قراءتها، وتطور مفاهيم القراءة الرقمية انطلاقا من الممارسة العربية. دون أن يعني هذا التخلي عن مبدأ التفاعل مع التجارب الغربية السباقة إلى هذه التجربة، ولكن لما لا يتم التعامل مع التجربة الرقمية العربية بنوع من الإصغاء، كما وجدنا مع النقد الفرنسي الذي طور خطابه بتمثل التجارب النقدية الروسية والألمانية وغيرهما، ولكنه لم يقف عند

لحظة التمثل والتطبيق، إنما أنتج خطابا نقديا (أي طريقة في التفكير) من صميم الإبداعية الفرنسية مما أعطى للنقد الفرنسي شرعية تداوله عالمياً. وبالتالي ساهم في نشر مفاهيم الفكر الفرنسي...

7 - إن التفكير في التجربة الإبداعية الرقمية في المشهد الثقافي العربي هو تفكير في مستوى من مستويات الحداثة في الممارسة العربية ذلك لأن شكل التعامل مع هذه الممارسة يحقق تصورا عن شكل الانخراط في هذا المتغير الحداثي العالمي. وإذا كان هناك الكثير من معيقات الفكر الحداثي ما تزال تعرقل كل عمل انتقالي حقيقي نحو الحداثة باعتبارها ممارسة في الفكر والحياة واليومي في التجربة العربية، ولكون كثير من مفاهيم الحداثة كما ظهرت، وتظهر، في الغرب ما تزال مهيمنة على الخطاب النظري العربي، وتجد صعوبات أجرتها على الواقع والسلوك والحياة، فلا شك أن هذا الوضع الإكراهي يشتغل معيقا في عملية الانطلاق المرن للمبدع العربي بكل حرية وجرأة في مختلف وسائل التكنولوجية الحديثة، واستثمارها من أجل تعبير يستوعب مختلف التحولات التي يعرفها الوعي. وإذا كان الإبداع مع وضعية الرقمي أصبح مرتبطا بشرط علمي وتقني على المنتج والمتلقي الانخراط التكويني فيهما، فإننا في هذا الصدد نسجل ملاحظة على السياسات الرسمية العربية التي ما تزال تدفع بأدمغتها التكنولوجية للهجرة إلى الغرب الأوروبي و الأمريكي، مما يجعلها تتحول، أي الدول العربية، إلى مراكز للتكوين. ويعيد التاريخ نفسه في هذا الإطار عندما نستحضر عملية جلب الاستعمار الأوربي خاصة الفرنسي لليد العاملة من المغرب العربي إبان الاستعمار، ثم ما بعد استقلال الدول المغاربية من أجل بناء فرنسا.

تلك مجموعة من الفرضيات والرهانات، أو التساؤلات التي نرى بطرحها، أو حتى بمجرد التفكير فيها، قد نساهم في بناء موضوعي وفعال لعملية بناء ثقافة المشاركة من خلال التعامل مع تجربة النص الرقمي، بخلفية معرفية وفلسفية

واضحة تساهم في عملية التحسيس وأيضا في عملية الإنتاج .

مع ذلك، تبقى القراءة باعتبارها أسلوبا في التفكير، وطريقة إجرائية ومعرفية وفلسفية هي القادرة على إدراك أو على الأقل الاقتراب من معرفة المنطق الذي يشكل النص الرقمي. ويبقى رهان الممارسة التجريبية خير محك للتفكير في هذه التجربة.

أما السؤال عن دور مثقفينا فيبقى معلقاً، و الجواب سيكون عملياً هذه المرة في الفصل الأخير.

VII - خلاصة: دور "الرابطة العربية لعلوم الاتصال"

1 -غياب النظريات العربية في علوم الاتصال

2 -الاشكاليات البحثية في علوم الاتصال

3- حقول بحثية جديدة

4 - المكتبة الاعلامية العربية

5 - دور "الرابطة العربية لعلوم الاتصال"

6 - خاتمة: متطلبات التطوير المستقبلية

تمهيد:

لقد دخل المواطن العربي في حِقبة التسعينيات في ظل عدّة متغيِّرات في القِيم والسلوك، في مقدمتها

انتفاء قيمة العدالة، حيث عَلا شأن لاعبي الكرة والفنانين، في حين تراجَعت حظوظ المفكِّرين والعلماء وغابت العدالة الوظيفية بسبب المحسوبية، والعدالة السياسية جرّاء تزوير الانتخابات، والعدالة الاقتصادية بسبب الرشوة والفساد، والعدالة الاجتماعية بسبب تصعيد المُنافقين والمؤيِّدين وكتّاب السلطة. ومن ثم، باتت قِيم النِّفاق والوصولية والنفعية والتواكل والصعود على أكتاف الآخرين، هي الصِّفات الغالبة. وغدا التّفاني في العمل أو العِلم والابتكار وتعليم الأجيال، من الأمور غير المرحَّب بها.

وقد انتفت قيمة الخَير والحُب، إذ أصبح الخير والسّعي إليه والعمل على تحقيقه، سواء للذات أو للآخرين، من الأمور النادرة، وكأنه أصبح معقودا على الذات فقط. فكل شخص يتمنّى الخيْر لنفسه ولذَويه فقط. فإذا كان بمقدوره أن يُساعد الآخرين فيه ويوفِّره لهم، ظَنّ به وبخل على تقديمه، حتى لا ينعم الآخرون به. كما تراجعت قيمة القُدوة، إذ أصبح الناس يفتقِدون النموذج الذي يقتَدون به، خصوصا في ظِل انتشار أخبار فساد أصحاب المناصِب العليا والزّعماء السياسيين والروحيين، ولأن المواطن مرتبِط منذ عصور الفراعنة بفِكرة الشخصية «الكاريزمية» المُوحية والمؤثرة، فإن شُيوع تلك النماذج كان له تأثيره السّلبي المباشِر على قِيم الأجيال الجديدة. وتراجعت قيمة الإحساس

بالأمان والطمأنينة، اذ ان المواطن العربي أصبح مسكُونا بالانفِعالات المختفية تحت بعض الصّمت والسكينة، الأمر الذي يعبّر عنه بالمجاملة حينا وبالنفاق حينا آخر، وانتهى الأمر به أن هرب إلى الغيبيات، حيث الطُّمأنينة المزيّفة، وامتزجت عنده رُوح الفُكاهة بالاكتئاب، حتى أصبحت الفُكاهة تعبيرا عن المرارة والسخرية، وليس عن المرح.

ومن أهم المتغيرات تراجع قيمة الأسرة، التي أصبحت تواجِه خطر التفكّك في ظل غياب التّراحم وزيادة مؤشِّرات الفردية والأنانية والاستغراق في المظهرية والتطلّعات الشخصية، وتراجع قيمة الانتِماء للوطن، إذ أصبح المواطن جزيرة منعزِلة مستقلّة عن الوطن، يشعُر بوِحدة غريبة وانكفاء على الذات، وذلك نتيجة لإقصائه عن أي مشاركة، إضافة إلى أنه لم يعُد يشعر بأن الدولة تحتضِنه وترْعاه، ولذلك لم يعُد غريبا أن تتزايد معدّلات الهِجرة إلى الخارج وأن يغامر الشباب بالتسلّل عبر الحدود والتعرّض لمخاطر ركوب البحر واحتمالات الغرق، لكي يصِلوا إلى الشواطئ الأوروبية، التي يحلمون بأن يحقِّقوا بعض أحلامهم على ضِفافها.

ومع التطور الصناعي والتكنلوجي تراجعت قيم العِلم والعمل، وازداد احتقار اللغة، كما تراجع التفكير العلمي ومعهما تراجعت قيمة العمل الذي أصبح مقصورا، إما على أصحاب الواسِطة أو خرِّيجي الجامعات الأجنبية. وإزاء انتشار الفساد، تراجعت قيمة الأمانة وشاع التسيّب واللامبالاة. ففي غياب المشروع القومي وفساد العملية التعليمية وغياب الديمقراطية وعزل المواطن وغياب الرقابة وغياب الشفافية، وهو عامل يدخل فيه أمريْن في غاية الأهمية وهما: نظْرة القيادة للشعب والخوف من المُحاسبة، إضافة إلى العوامل الاقتصادية. " دون الدخول في تفاصيل مكرّرة، يمكن القول أن عوامِل التأثير في الإنسان تنقسم إلى نوعيْن من العوامل، داخلية وخارجية، وكلٌّ منهما ينقسِم بدوره لعدّة مؤثرات،

منها: العوامل الذاتية والتي يُمكن حصرها في منظومة القِيم المتوارثة والقدوة التي يقدِّمها القادة السياسيون أو الاجتماعيون والظروف الاقتصادية والسياسية السائدة، مثل غِياب الحريات الحقيقية وارتباط الفساد الاقتصادي بالفساد السياسي تُعطي انطِباعا قويا بأن منظومة القيم في المجتمع تتدهْور حينا بعد حين"[1].

1 - أنظر: مجلة المستقبل، عدد 103 - 29 /9 /1997.

1-غياب النظريات العربية في علوم الاتصال

أ- تقصير الدراسات

ما زالت الدراسات العربية مقصّرة في ما يخص التعمق بالتحليل بناء على السياق الاجتماعي وبالتالي في الخروج بنظريات علمية جديدة تراعي خصوصية المجتمعات العربية. الا أن نظرية التشتت الثقافية المبنية خصوصا على دراسات الاستخدامات والأرقام الاحصائية، تفيدنا في مواجهة الواقع وبناء مقترحات لتطوير البحث العلمي العربي ومفاهيمه ومناهجه ونظرياته.

لقد توقفنا في هذا الكتاب عند الفكر الاتصالي الذي واكب التطوّر في الدول العربية، لنلاحظ أنّه كان فكرا مقلّدا، منقولا عن الغرب، جامدا لا يعكس البيئة التي ينبعث منها ولا يتفاعل مع تطوراتها وتغيراتها وخصوصياتها واشكالياتها. ونتوقّف عند النماذج والنظريات التي فسّرت الممارسات والاستخدامات والرهانات الاتصاليّة في الشرق الأوسط والمنطقة العربية لنلاحظ أيضا أنها لم تفدنا في تفسير ما حدث ويحدث، وانها في حاجة كبيرة للمراجعة والتطوير بناء على تحليل التجارب الجديدة والفكر المستجد.

ب-الحاجة الى فكر جديد

ان الوضع الراهن في الشرق الأوسط والمنطقة العربية يستدعي مناهج تفكير جديدة وأدوات معرفية مجددة في البحث تنطلق من الإطار الكلي في فهم أبعاد

الظاهرة وامتدادها، بشكل يتجاوز العدة البحثية القديمة ومنطق الإسقاطات وأسر النماذج التاريخية. إذ يهدف هذا الجهد العلمي إلى تحديد أبعاد الظاهرة الثورية بعمق تحليلي ومعرفي، من خلال تأطير منهجي لفلسفة الثورات في الفكر الغربي، مع تحديد جوانب التميز في الثورات العربية، عبر تحليل خصائصها وسماتها الظاهرة والكامنة واقتراح إطار تفسيري جديد، لتصنيف الحالة الثورية العربية الراهنة على ضوء الخبرة العربية الحضارية .

ج- نحو نماذج جديدة

كما أن التحولات الثورية في العالم العربي تفرض على نظريات العلوم السياسية والاجتماع السياسي إعادة النظر في نماذجها المعرفية وأنساقها الإدراكية، فهذه الأوضاع الجديدة والتحولات الحادة تتطلب أساليب ومناهج تفكير غير تقليدية. كما أن العلوم الاجتماعية العربية ما زالت سجينة ما يصدر عن النموذج الغربي من نظريات ومقولات، وتفكر من داخل نموذجه المعرفي ورؤيته الكلية، مما أبعدها عن الانخراط في هموم المجتمع وقضاياه المصيرية، وأسهم في قصورها عن بناء الواقع الاجتماعي والسياسي أو التأثير في مسار التحولات، حتى صارت في"قفص الاتهام" تعيش حالة من الاغتراب والتأزم الحاد، يسهم في مزيد من اقتلاعها من جذورها الاجتماعية والثقافية والحضارية، بسبب عجزها عن تقديم فهم متحيز حضاريا ومتجدد معرفيا ومبدع نماذجيا لتحولات الدولة والمجتمع.

2-الاشكاليات البحثية في علوم الاتصال

أ- الاشكالية المنهجية

وتأخذ التغيرات السياسية والثقافية او التي تتدخل في عمل الإعلام أهمية كبرى، إضافة الى الراهانات الاستراتيجية مثل الطابع الصناعي المتزايد للاعلام والثقافة، والتوجه التمركزي لدى جماعات الاتصال، او التواجد المتسع لشبكات الاتصال في عملها النسجي المتواصل للعالم.

في هذا السياق وأكثر من أي وقت مضى، نلاحظ ان الاتصال لا يتعارض أو ينفصل عن الإعلام، بل على العكس من ذلك، يعتبر امتداداً له. كما ان المفهومين متشابكان عادة، وكل نقد لأحدهما يمكن ان يطبق على الآخر.

هنا نشير الى عدد من الاشكاليات التي تعترض المعنيين في مجال البحث العلمي الاعلامي الاتصالي وتعيقهم عن معالجة أسباب ونتائج ومخاطر التشتت الثقافي بالمستوى المطلوب:

الاشكالية المنهجية الرئيسية هي في تحديد المفاهيم. إن الباحثين في مجال علوم الاعلام والاتصال يشيرون دائماً الى صعوبة التفريق بين إعلام واتصال: إعلام صحفي واعلام مهني متخصص، اتصال شخصي وإتصال إعلامي (عبر وسيط)، قنوات للاتصال والاتصال كتبادل اجتماعي، الإعلام كمضمون ووسائل الاتصال المكلفة بنشره ...

ان هذه التناقضات لها ركائز او مصادر على مستوى إجتماعي منهجي ولكن

التفريق بينها امر غير ممكن. انها تكرس تقابل محتوى / شكل، مضمون/ وسيلة، الذي اشارت كل الدراسات الى كونه غير مجدٍ مع تطور التكنولوجيا وخارج إطار الاتصال الذي يسمى جماهيريا[1].

ب-الاعداد الأكاديمي

لقد جاءت النشأة الرسمية لعلوم الاعلام والاتصال سنة 1975 لتلبي حاجات جامعيين منفردين في مؤسساتهم الجامعية كانوا أوائل من كلفوا بالاعداد المهني. ثم صارت الاولوية المعطاة للتكوين والمكونين أقوى بموجب استقبال جماعات عديدة من الطلاب وللاهمية المعطاة للتخصص والاحتراف في الدراسة.

وبداعي الضرورة، او بالاختيار، أو بحكم الانعزال، أهمل أو ترك عدد كبير من جامعيي الجيل الانتقالي (الذين بدأوا نشاطهم المهني بين وسط الثمانين ووسط التسعين) مهماتهم في البحث. هذا الوضع أضرّ طبعاً بعلوم الاعلام والاتصال وبتعليمها فعلى ماذا يستند مدرّسون لا يملكون خبرة طويلة جامعية ان لم يكن على مكتسبات البحث، وكيف يتطور البحث العلمي و هو لا يستفيد إلاّ من مساهمات قسم من أعضائه؟

هذا النقص له فرص الانخفاض في المستقبل بفضل التشجيعات والنصائح الموجهة لـ"لداخلين" الجدد بأن يكرسوا انفسهم للتدريس والبحث معاً، وبفضل إنشاء مختبرات بحثية، وقاعدة عربية تجمعهم...

ج- انعزال المتخصصين و تعدد المجالات

تقليداً للأدباء وغيرهم، يفضل العديد من المتخصصين في مجال الاعلام

---

1 - راجع: Bernard Miège, “ Les rapports à la recherche des sciences de l’information et de la communication ” , Réseaux, N° 100, Paris, 2000.

والاتصال ترسيخ انعزالهم ولا يلحظون إيجابيات العمل الجماعي الذي يخشون بيروقراطيته ورغم بعض التقدم الملحوظ تبقى المختبرات والمجموعات البحثية ناقصة في الانتاج الاكاديمي[1].

والبحوث المنفردة في هذا المجال مهما كانت نتائجها، لا تستطيع وحدها أن تشكل محوراً كافياً وذلك لسببين على الاقل:

1- من جهة انها لأجل قريب او على الاقل متوسط، وبالتالي اشكالياتها المرتبطة بالآلية او بالتفكير الاستراتيجي، تلزم علوم الاتصال ب "علم الآنية" فالأسئلة المطروحة لا تسمح دائماً بأخذ بعد تاريخي كافٍ.

2- من جهة ثانية هذه الأبحاث تهمل عناصر المجتمع الاخرى وخصوصاً طلبات الافراد، لهذا يحكم على اعمال الباحثين بأنها آتية من الفكر الفلسفي او السياسي وليس من مقاربات علمية، خصوصاً فيما يتعلق بالبحوث الخاصة بتأثيرات وسائل الاعلام والاتصال.[2]

---

1 -Yves Jeanneret, " Les Sciences de l'information et de la communication : une discipline méconnue en charge d'enjeux cruciaux ", SFSIC, La Lettre d'Inforcom N° 60, hiver 2001- 2002, pp.3-40.

2- Jeanine Beaudichon, La communication,Processus, formes et applications, , Armand Colin, Paris 1999,p.84.

3- حقول بحثية جديدة

أ- محاور البحوث

بعد ان عرضنا الاشكاليات يجب الآن ان ننظر الى محاور البحث في هذا المجال : ما هي الاكثر شيوعاً ؟ ما هي المهملة فيها ؟ ما هي التي تحتاج الى جهود اضافية بسبب الرهانات التي تعبر عنها ؟

في الولايات المتحدة، في فرنسا، في كندا، وفي العالم العربي، خمسة محاور يركز عليها العديد من الاعمال الهامة في المرحلة الاخيرة[1]:

1- تحليل الوسائل السمعية البصرية : تاريخها، انواعها، دراسة الخطابات (ارتكازاً على السيميائية البرغماتية او السوسيوسيمائية) والتلقي، العلاقة مع السياسة ، الخ...

في البداية كان الباحثون مشغولين بالانتاج السينمائي وتأخروا للاهتمام بالتلفزيون. اما الاذاعة فتلقى اهتماماً ثانوياً، بينما الاعمال المتعلقة بالصحافة المكتوبة لا تشمل النواحي الاهم لتطور هذه الوسيلة.

2 - دراسة اتصال المؤسسات والاتصال في العمل: رغم مواجهات دائمة بين الباحثين، و تراكم اعمال كثيرة مشتركة ، لم ينتج عن ذلك معرفة كاملة ومدعومة بالحجج لظاهرة لها خصائصها المرتبطة بخصائص المجتمعات.

3 - معرفة الاستخدامات المختلفة لتكنولوجيا الاعلام والاتصال وبصورة عامة

---

1 - عبد الوهاب الرامي، نحو تكوين اعلامي هادف، مجلة الاذاعات العربية، اتحاد اذاعات الدول العربية، عدد4، تونس 2003، ص.57

لسياقات الابتكار التقني: هذا المحور قد وجه خلال اكثر من خمس عشرة سنة العديد من الاعمال المبتكرة، المرتبطة غالباً بطلبات الصناعات المعنية.

4 - مقاربة الاتصال السياسي، والاتصال العام، والاتصال الثقافي، والاتصال العلمي، والتفاعلات بين اتصال وإعداد أو بين اتصال وصحة: الأمر يتعلق هنا بتصور العلاقات التي تقام في هذه الحقول غير التجارية وتقنيات ادارة الشؤون الاجتماعية التي هي تقنيات الاعلام والاتصال الحديثة. بعبارةأخرى يهتم هذا المحور بانتشار وسائل الاتصال في حقول التواصل العامة.

5- دراسة خصائص الصناعات الثقافية: وخضوعها المتزايد لمتطلبات الجماعات الاتصالية والشروط الجديدة لتقديمها عن طريق الشبكات التقنية.

ب - محاور جديدة

انطلاقاً من هذا التذكير السريع لمحاور البحث في مجال الاعلام والاتصال، يقترح العلماء محاور جديدة تسد الفراغ الذي رأيناه في عرضنا للمشاكل الناتجة عن الرهانات الاجتماعية، مثل:

- تحليل الاستراتيجيات والمناهج وخطابات الاعلام المهني المتخصص : فهذا الاعلام وهو في تطور سريع يبقى مهملاً من قبل الباحثين، مع انه مجال مثالي للبحث الالكتروني.

- الاعمال التاريخية: بالطبع يجب ان يقال ان دراسات نوعية هي متوفرة ، لكن البعد التاريخي هو لفهم الاتصال الحديث الذي تطور كثيراً ابتداء من منتصف القرن العشرين. فمن الضروري ان لا تختصر الاعمال على مقاربة لقطاع واحد، او وسيلة واحدة لها علاقة فقط بالتاريخ السياسي.

- الاتصال التفاعلي المتعدد الوسائط: أن تشارك علوم الاعلام والاتصال بدراسة استخدامات الاجهزة المتعددة الوسائط، وبدراسة الأشكال الجديدة للخطاب.

- "مجتمع الاعلام": تسمية تمنح في اغلب الاحيان بدون ركائز نظرية صلبة أو مدروسة. فعلينا ان نعترف ان البحث في مجال الاتصال لا يمكنه ان يترك لباقي العلوم الانسانية والاجتماعية لتطور مقاربة آلية او استعارية للاتصال. بعبارة اخرى إن استخدامات الوسائل في النشاطات الاقتصادية والاتصالات الاجتماعية، يجب ان تعطي مجالاً لدراسات تحليلية معمقة.

- السياسات العامة للاتصال: وخصوصاً أنماط العمل الناظم الذي يجب ان تخضع له وسائل الاتصال وتكنولوجيا الاتصال الحديثة، في اطار مهمات خدمة عامة مناسبة للشروط القائمة. هذا التنوع في الطرح ملحٌّ لا سيما بعد أن تركه المقررون السياسيون بينما يكتفي القضائيون بمقاربة عملية. وهذه السياسات تشكل حقلا هاما للدرس بسبب تعقيد التطورات المتوقعة .

- اخيراً تحليل قطاع الاتصال: والمكانة التي يحتلها في التدفق الاقتصادي المعلوماتي العالميين، فعلوم الاعلام والاتصال تحلل نتائج العولمة في ظل اساليب الانتاج المسيطرة: كيف يخضع الانتاج الثقافي والمعلوماتي لأساليب ادارية تتسبب بانقلابات من مستوى رمزي، وكيف نفسر تعددية الدول في التبادلات الاجتماعية والمهنية التي تسهلها الشبكات، وهل يمكن أن نقبل بوجود هوة اجتماعية وثقافية، بين الممارسات الاتصالية المتقدمة في الدول المتطورة والممارسات المتواضعة في الدول الخاضعة الخ[1] ..

ج- مستويات التحليل

من الصعب دراسة كل الاشكاليات المنهجية والنظرية لعلوم الاعلام والاتصال بسبب تعقيد وتعددية البعد في هذا الحقل. فالتطورات متعددة والمشاكل كثيرة

1- Thierry Lancien (sous le direction de), " Recherche et Communication ", Numéro 14 de la revue MEI, L'Harmattan, Paris 2002.

وحقيقية ويجب ان تجعلنا منطلقين نظرياً ومنهجياً نحو الدراسات النقدية[1]. ولا بأس من التذكير هنا بأن مفهوم "الإعلام" يحمل في بنيته المعرفية مستويات عدة من التحليل:

- الإعلام كفلسفة، وهنا نجد أن كل الحضارات القديمة والحديثة قد تضمنت فلسفة إعلامية.

- الإعلام كحرفة وممارسة، وهنا نشير إلى تغطية نشاطات المجتمع باستخدام وسيلة الصحيفة أو الإذاعة أو التلفزيون أو الإعلام الآلي والوسائل التكنولوجية الحديثة الأخرى.

- الإعلام كعلم وتخصص، وهذا يفترض السعي إلى سن ضوابط و قواعد تحمل بعض الثبات النسبي في تفسير و تحليل الأداء الإعلامي في هذا المجتمع أو ذاك، إنطلاقاً من الإعلام كفلسفة، في اتجاه الإعلام كممارسة، في صيرورة دينامية متجددة.

1 ـ عبد الوهاب الرامي، نحو تكوين اعلامي هادف، م. س، ص.58.

4- المكتبة الاعلامية العربية

أ-علم حديث

تاريخيا، تطور الإعلام من سيادة الرسالة كما حال الحضارات السابقة إلى طغيان الوسيلة في المجتمع التكنولوجي، وهو ما أثر بدوره على طبيعة التخصص. والحاصل أن الإعلام كعلم، حديث النشأة إذ دخل المحيط الجامعي في حدود 1873 عندما بدأت جامعة كانساس بأمريكا تعطي دروسا في الطباعة. وبدأ الإعلام كتخصص أكاديمي بارز بعد الحرب العالمية الأولى بأمريكا. وقد ظهر في فترة ما بين الحربين نخبة من الرواد الإعلاميين الذين أرسوا بأبحاثهم المتميزة أسس التخصص، ونذكر من هؤلاء لاسويل، لازرسفيلد، لوين، وهوفلند. وبدأ التكوين الإعلامي في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية متأثرا بنموذج لاسويل Laswell، ثم ظهر هذا التخصص في بعض البلدان النامية ابتداء من الستينيات و السبعينيات من هذا القرن متأثرا بهذا النموذج أو ذاك. و نجد أن معظم المصادر الإعلامية باللغة العربية مصرية، وتتميز بأنها عامة ذات طبيعة مدرسية وصفية[1]. ويعني ذلك أن هذه المراجع توفر المادة المعرفية الأكاديمية الأولية الخاصة بالتكوين الإعلامي على النحو الذي نجده في النظام النصي (textbook) الأنجلوساكسوني، وعلى هذا الأساس، فهي أساسية

---

1 ـ لمزيد من التفصيل عن تاريخ التخصص، انظر عبد الرحمن عزي، " التكوين الإعلامي: التلاقي والتلاغي بين الرسالة والوسيلة،" المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 4 ، الجزائر 1990.

للطالب المتخصص وخاصة ذلك الذي لا يمتلك لغة أجنبية ثانية. وتحتوي بعض المكتبات العامة والخاصة على العديد من هذه المصادر، كما يوجد البعض الآخر منها عند الأساتذة الذين تخرجوا من كليات الإعلام.

ب- ندرة الأبحاث

و تشكو المكتبة الإعلامية العربية من ندرة الأبحاث التي تسعى إلى تأسيس تصورات فكرية ومفاهيمية (متميزة ومستقلة نوعا ما) عن طبيعة الظاهرة الإعلامية الاتصالية في المجتمع العربي المعاصر. كما تشكو المكتبة الاعلامية العربية من قلة الدراسات الميدانية المنشورة رغم العدد الكبير للرسائل الجامعية. وتندر في المكتبة الإعلامية العربية تلك المؤلفات التي تعالج إشكاليات إعلامية متجددة، والممولة من شركات أو مراكز بحث كما هو معمول به في البلدان الغربية، وهذا ما يجعل الكتاب الإعلامي العربي يرتبط أساسا بالجهد الفردي الذي يبذله الأستاذ، الذي يبقى محدودا في وقته وإمكانياته المادية بالإضافة إلى ثقل ظروفه الاجتماعية.

وتتميز المصادر الحديثة في الأبحاث الإعلامية بكثافتها وتنوعها، بحيث أنه يصعب علينا إيجاد مجال إعلامي جزئي لم يكن محل دراسة معمقة ومدققة. و الحاصل أن العديد من الكتابات الإعلامية باللغات الأخرى هي ارتدادا لما تحمله الدراسات الإعلامية الأمريكية والفرنسية خاصة، فأسماء الباحثين الإعلاميين الأمريكيين والفرنسيين متداولة بكثرة في مختلف مدارس التكوين الإعلامي في العالم. و تتميز المصادر الإعلامية باللغة الإنجليزية بأنها ذات طبيعة امبريقية وإن كان العديد من المدارس الفكرية الاتصالية (كالمدرسة النقدية) الأوروية قد نمت وتطروت بدورها في أمريكا. وقد كان المشرق العربي أسبق الى الاحتكاك بالمدرسة الأنجلوساكسونية، وهو ما أثر إيجابا على طبيعة الكتابات العربية في المجال.

ج-اشكالية الترجمة

وما يؤسف له أن الترجمة من المصادر باللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية محدودة جدا. و تندر المراجع الإعلامية باللغة الإنجليزية في المكتبات الجامعية. ويوجد عدد لا بأس به من هذه المصادر لدى الأساتذة الذين تخرجوا من المدارس الأنجلوساكسونية وحبذا لو بذل هناك جهد لاستنساخها ولو بتحفز صاحب الوثيقة ماديا.

والمصادر باللغة الفرنسة هي مصادر متعددة ومتنوعة بدورها. وتتميز في كونها تميل إلى الجوانب النظرية النقدية. ومؤخرا، تسعى إلى تقليد النموذج الأنجلوساكسوني.

وقد اشتهرت ماضيا عند بعض طلبتنا بعض الأسماء من الكتاب الإعلاميين ذوي النزعة اليسارية، و تمتلك المكتبات الجامعية عددا لا بأس به من هذه المصادر كما يبدو أن الطالب يجد سبيله إلى هذه المراجع رغم ندرتها[1].

1 - راجع: مي العبدالله، علوم الاعلام و الاتصال واشكاليات التكوين المهني في العالم العربي، دار النهضة العربي، بيروت 2009.

5- دور"الرابطة العربية لعلوم الاتصال"

أ- نحو بلورة منظور جديد للإتصال

لم يعد من الممكن تجاهل الإشكاليات والتحديات التي تفرزها تكنولوجيا الاتصال والإعلام في الوطن العربي على صعيد النظرية والممارسة، وما يترتب على ذلك من ضرورة أن تتجه الدراسات والبحوث العلمية نحو بلورة منظور جديد للإتصال، وأن تأخذ بعين الاعتبار حقيقة أنّ اندماج عمليات الاتصال وتدفق المعلومات في فضاء كوني واحد، يعود إليهما الدور الحاسم في نشوء مجموعةٍ معقدة من التحولات النوعية، وفي مقدمتها التحول من الإعلام إلى الاتصال، ومن العُزلة إلى الاندماج، ومن سيطرة المرسل إلى خيارات المتلقي.

ولم يعد الباحثون في مجال الاعلام والاتصال هم الوحيدون المهتمون بالظواهر الاعلامية الاتصالية خصوصاً مع تعدد الرهانات المختلفة وظهور الخطاب السياسي عن "مجتمع الاتصال"، فكيف تشكل علوم الاتصال اختلافاً ان لم يضع الباحثون اساليب للتحليل خاصة بها يمكنها ان تسهل المقاربة النظرية على مستوى الاسئلة المطروحة؟

ب-غياب دور المثقف

عمليّاً، بغياب دور المثقف في مجتمعاتنا العربية، وبتراجع دور الاعلام في ظل الفلتان المهني الذي يطال كل المؤسسات، مع اصطفاف كل وسيلة إعلاميّة

عربيّة وراء خطها وميلها السياسي بعيدا عن رؤية وطنية جامعة، ومع التطور التكنلوجي السريع وما يحدثه من تغيرات عميقة تطال كافة المجالات العلمية والبحثية، وما ينتج عنها من اختلافات عميقة بين الأساتذة الباحثين حول المفاهيم والطرق المنهجية والنظرية نلمسها في كل مناقشة او موقف علمي، تأسست الرابطة العربية لعلوم الاتصال وهي مؤسسة عربية جامعة تعيد للمثقف والباحث العربي دوره في المشاركة بأبحاثه ومنهجيته العلميّة في معالجة قضايا المجتمعات العربية المتفاقمة، وتردم الهوة بين المثقفين والنخب والباحثين في العالم العربي من جهة، وبينهم وأهل القرار في السياسة والاعلام والاتصال من جهة أخرى[1].

تنطلق الرابطة من الإطار الكلي في فهم أبعاد الظاهرة وامتدادها، بشكل يتجاوز العدة البحثية القديمة ومنطق الإسقاطات وأسر النماذج التاريخية. وسيهدف هذا الجهد العلمي إلى تحديد أبعاد الظاهرة الثورية بعمق تحليلي ومعرفي من خلال تأطير منهجي لفلسفة الثورات في الفكر الغربي مع تحديد جوانب التميز في الثورات العربية، عبر تحليل خصائصها وسماتها الظاهرة والكامنة، واقتراح إطار تفسيري جديد لتصنيف الحالة الثورية العربية الراهنة على ضوء الخبرة العربية الحضارية.

كما أن التحولات الثورية في العالم العربي تفرض على نظريات العلوم السياسية والاجتماع السياسي إعادة النظر في نماذجها المعرفية وأنساقها الإدراكية، فهذه الأوضاع الجديدة والتحولات الحادة تتطلب أساليب ومناهج تفكير غير تقليدية.

---

1 - تأسست في بيروت/لبنان في 7 نيسان 2014 "الرابطة العربية للبحث العلمي وعلوم الاتصال" AACS، وهي بناء على تعريفها في نظامها الأساسي، جمعية ثقافية تهدف الى تطوير علوم الاعلام والاتصال وعلاقتها بسائر العلوم، وتشكل فضاء محوريّا لتلاقي الباحثين العرب في علوم الاعلام والاتصال لطرح تساؤلاتهم ومناقشة أفكارهم والتعرف الى تجارب بعضهم البعض، واجراء دراسات مشتركة.

ج- أهميّة البحوث العلمية

كما أن العلوم الاجتماعية العربية ما زالت سجينة ما يصدر عن النموذج الغربي من نظريات ومقولات، وتفكر من داخل نموذجه المعرفي ورؤيته الكلية، مما أبعدها عن الانخراط في هموم المجتمع وقضاياه المصيرية، وأسهم هذا النموذج في قصورها عن بناء الواقع الاجتماعي والسياسي أو التأثير في مسار التحولات، حتى صارت في ''قفص الاتهام'' تعيش حالة من الاغتراب والتأزم الحاد، يسهم في مزيد من اقتلاعها من جذورها الاجتماعية والثقافية والحضارية، حيث يحلل الباحثون أزمتها من خلال عجزها عن تقديم فهم ''متحيز حضاريا'' و''متجدد معرفيا''و''مبدع نماذجيا'' لتحولات الدولة والمجتمع.

يحتاج الإعلام العربي الى بناء صدقيته حتى يستطيع أن يغير في الوعي المجتمعي. والخطوة الاولى هي نظرة ذاتية الى الاختلالات التي ما زالت تشوه المشهد الاعلامي العربي، في الجوانب المؤسسية والمهنية، وقبل كل ذلك في إعادة تعريف دوره.

لقد تبين من خلال ما سبق أنّ تطور وسائل الإعلام والاتصال هو تلقائي ومحتوم ومتواصل ولا مفر منه، وأنّ تأثيره على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة العربية لا يمكن إيقافه، وهذا الوضع يحتم علينا تفادي المواقف والتحاليل المتسرّعة الكارثية، والقيام بتحاليل معمّقة تتسم بالوضوح والموضوعية لتحديد مناهج العمل والتدخل. فمع تطور البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية في إطار وسائل الاتصال المتاحة في المجتمع من الممكن إيجاد فرص وحقوق إجتماعية جديدة للفرد والمجتمع. وتتطلب الانفجارات والتطورات السريعة في وسائل الاتصال فلسفة واضحة وأسلوب لمعالجة قضايا الاتصال بجوانبها المتعددة.

6- خاتمة: متطلبات التطوير المستقبلية

أ- نحو استراتيجبة تنموية

بينّت نتائج الدراسات أن الفجوة الهائلة بين تردي الوضع الراهن للتكوين المهني الإعلامي والإحتياجات الحاضر المتزايدة ومتطلبات التطوير المستقبلية، في الوطن العربي وفي لبنان، أصبحت تشكل تحديا كبيرا يواجه عملية تطوير العمل الإعلامي والارتفاع به إلى مستوى الأحداث والمتغيرات الحادثة. وفي هذا السياق يكون من الصعب إعطاء وصفات جاهزة لتجاوز تلك الفجوة أو التقليل منها. وكل ما يمكن اقتراحه هو طرح بعض التوصيات والمقترحات للتفكير والحوار تتمحور حول فكرة جوهرية هي ضرورة وضع استراتيجية عربية مشتركة للتطوير ترتكز على نظرية ثقافة المشاركة، ما يعني على مقاربة كلية ومعالجة شاملة للموضوع من جميع جوانبه، تأخذ بعين الاعتبار الارتباط بأهداف التنمية الشاملة وخططها بشكل رشيد و ديناميكي، ومواكبة التحولات الاجتماعية والثقافية والتطوير المتسارع في مجالات المعرفة المختلفة.

ب- المنهج المشاركي

للوصول الى تفعيل دور الاعلام في التنمية وتصويب أداء وسائل الاعلام والاتصال في المجتمع، نقترح تبني المنهج المشاركي في جميع مراحل إعداد الاستراتيجية الاتصالية، بحيث تنطلق من واقع العمل الإعلامي وبمشاركة جميع

الأطراف المعنية، أي من القاعدة إلى القمة وليس العكس كما يحدث غالباً. فاعتماد هذا النهج يسهم بفاعلية في عملية دمج مؤسسات التكوين المهني الإعلامي في النظام الإجتماعي وتعزيز العلاقة بين جميع الأطراف المعنية بعملية التكوين والتأهيل.

ج- تطوير مناهج التدريب والتكوين

لتطوير أداء الاعلام والاتصال في الوطن العربي لا بد أن تستهدف سياسات التدريب الاعلامي تطوير المناهج وتنويع الأساليب بما يتطلبه ذلك من تنمية ملكات التعلم الذاتي والتفكير العلمي، وملكة التكيف والإبداع وفهم المشكلات ومواجهتها، والانتقال من التلقين إلى تطوير الشخصية ومن التدريب المحدود إلى التدريب الشامل، ومن التدريب الاستهلاكي إلى التدريب الانتاجي، مما يدعم قدرة مؤسسات التدريب على الاستمرارية والتطوير من خلال الاكتفاء الذاتي في تمويل الأنشطة .

لذا لا بد من التركيز في مناهج التكوين على المساهمة في بناء نموذج اتصالي يقوم على المشاركة المجتمعية وتحقيق ديموقراطية الاتصال، حتى يتخلص النظام الاتصالي من سمة الاتجاه الواحد ويحقق فكرة الاتصال كحق أساسي و ينظر للجمهور كمشارك لا كمتلق أو مستهلك فحسب، وهذا يعني المساهمة في تطوير برامج تدريب و تأهيل تعمل على تمكين الإعلامي من المهارات التي تخرجه من دائرة مخاطبة الداخل المغلقة، وتفسح له المجال لمخاطبة الآخر الصديق والعدو بمهنية أفضل وتأثير أكبر.

ونؤكد في النهاية على ضرورة أن تتجاوز برامج التدريب والتأهيل الإعلامي مجالات التقنيات ومهارات التواصل الجماهيري المعروفة، إلى مجالات ومواضيع اجتماعية وثقافية أكثر عمقا وشمولية. فالوسائط الإعلامية، خاصة

المرئية منها والمسموعة، تشكل بحد ذاتها مؤسسات اجتماعية وثقافية، قبل أن تكون منتجا و موزعا للإعلام، فهي تقيم الاتصال بأفراد المجتمع وتعيد "إنتاج الثقافة" أو تقوم بتوزيع سلع ثقافية عبر إقامة علاقات اجتماعية مع المتلقي، من خلال تعزيز الذاتية الثقافية وتدعيم الثقافات الوطنية، دون إغلاق الأبواب أمام الثقافات الأخرى والسعي لغرس روح المبادرة، والاعتماد على النفس وروح الابتكار والإبداع والإسهام الإيجابي في تدعيم القيم الإنسانية والروحية مثل روح التسامح والسلام والجماعة والتعاون والمشاركة، خاصة مع انعكاس آثار الثورة التقنية على الإنسان وفشل تجارب الانغماس في الحضارة المادية.

خلاصة: لن تجدي أي مواجهات أمنية للقضاء على الارهاب ولن نستطيع مواجهة الافكار المتعصبة والإقصائية التي تفشت وانتشرت في العقود الاخيرة في المجتمع بشكل جذري وحاسم، طالما ظلت المناهج الدراسية، والثقافة المجتمعية، والبرامج الإعلامية السائدة، بعيدة عن المفاهيم الحديثة كثقافة المواطنة وقبول الآخر، وقبول التنوع الانساني في النسيج العربي.

إن المشاركة المجتمعية هي الوسيلة الناجحة والوحيدة التي تضمن تنمية المجتمع على أسس سليمة يتمتع فيها الجميع بحقوق وواجبات متساوية، وهي تتجلى في أشكال مختلفه أهمها المشاركة السياسية بداية من اختيار افراد الشعب للحاكم ولمن يمثلهم ويتولى إدارة حياتهم.

والمشاركة لا تنزل من السماء ولا تمارسها المجتمعات بتلقائية أو طبيعية، بل هي ثقافة ورؤية وفكر متكامل يترجم إلى آليات عمل، كاستخدام كل الوسائل المتاحة لبناء هذه الثقافة وتدعيم هذه الرؤية، كما هي نتيجة جهود الجمعيات والكيانات الأهلية والمؤسسات الحكومية.

ويظل المجتمع نفسه وآليات العمل فيه وعلاقات الافراد بعضهم البعض هي أهم وأقوى مؤثر على الأجيال الناشئة لدفعها الى الايمان بثقافة المشاركة، ولقد

اصبحت الشعوب العربية مستعدة ومؤمنة بأنه يجب ان تلعب دوراً في مستقبل بلادها، لذلك لن تنجح اي حكومة او مؤسسات حكومية دون المشاركة والتعاون مع المجتمعات المدنية والاهلية والنخب العلمية والثقافية.

المصادر والمراجع

باللغة العربية:

الكتب:

1- الطاهر خرف الله و آخرون، الوسيط في الدراسات الجامعية، دار هومة، الجزائر1996.

2-المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الشركات المتعددة الجنسيّة والأزمة الاقتصادية العالمية، بيروت 1986.

3- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، قضية التخطيط الإعلامي في الوطن العربي المنظمة، القاهرة 1989.

4- توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفةعدد 168، الكويت 1992.

5- حسن محمد طوالبة. نحو تخطيط إستراتيجي للإعلام العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1981 .

6- حسام الخطيب، الأدب المقارن. الجزء الأول: في النظرية والمنهج، جامعة دمشق 1982.

7- حسن محمد طوالبة. نحو تخطيط إستراتيجي للإعلام العربي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت1981.

8- زكي رمزي، السياسات التصحيحية والتنمية في الوطن العربي، دار الرازي، بيروت 1989.

9- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الآفاق الجديدة، ط8، بيروت 1986.

10- سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن، دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، بيروت 1987.

11- شون ماكبرايد (وآخرون) أصوات متعددة وعالم واحد: الاتصال والمجتمع اليوم وغداً: نحو نظام عالمي جديد عدلاً وكفاءة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

12- عز الدين المناصرة، مقدمة في نظرية المقارنة، دار الكرمل، عمان1988 .

13- عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 2002.

14- علي شتا، المنهج العلمي والعلوم الاجتماعية، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، القاهرة 1997.

15- عبد الحميد محمد، دراسات الجمهور في بحوث الإعلام، دار عالم الكتاب، القاهرة 1993.

16- فؤاد المرعي، في نظرية الأدب المقارن، (المعرفة)، ع 295، س25، أيلول 1986.

17- محمد مصالحة، السياسة الإعلامية الاتصالية في الوطن العربي، دار شروق، لندن 1986 .

18- محمد علي حوات، العرب والعولمة.. شجون الحاضر وغموض المستقبل، مكتبة مدبولي، القاهرة 2002.

19- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت 1987.

20- مي العبدالله، نظريات الاتصال، دار النهضة العربية، بيروت 2001.

21- مي العبدالله، التلفزيون في عالم متغير، دار التهضة العربية، بيروت 2004.

22- مي العبدالله، الاتصال والديمقراطية، دار النهضة العربية، بيروت 2006.
23- **مي العبدالله، التلفزيون في لبنان و العالم العربي، دار النهضة العربية، بيروت 2002.**
24- مي العبدالله، علوم الاعلام و الاتصال واشكاليات التكوين المهني في العالم العربي، دار النهضة العربي، بيروت 2009.
25- نظرة على الاعلام العربي2011-2007، تقرير الاعلام العربي، نادي دبي للصحافة 2007.

الدوريات والمؤتمرات:

1- إبراهيم سعد الدين عبد الله، «النظام الدولي الجديد وآليات التبعية: آليات التبعية في إطار الرأسمالية المتعدية للجنسيات»، ضمن ندوة التنمية المستقلة في الوطن العربي بتاريخ 29-26/إبريل 1986 عمان، الأردن ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
2- ابراهيم بدران، «العلم والتكنولوجيا والتنمية في الوطن العربي»، مؤتمر الأمم المتحدة لتسخير العلم والتكنولوجيا لأغراض التنمية، فيينا 29-19 آب 1979، اتحاد مجالس البحث العلمي العربية، بغداد 1982.
3-السيد يسين، «النظام الثقافى العربى بين الازمة والانهيار»، التقرير الاستراتيجي العربي، موقع الأهرام الرقمي 1 يناير 1995. http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=635808&eid=448
4- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، "الشركات المتعددة الجنسيّة والأزمة الاقتصادية العالمية". بيروت 1986.
5- المستقبل العربي، عدد 48، شباط 1983.
6- النهار، 30 كانون الأول 1995.

7- السفير، تقرير مكتب العمل العربي حول ازدياد معدلات الفقر والبطالة، 16 شباط 1998.
8- الحياة، ملف تيارات السبت، 31 تموز 1993.
9-برهان غليون، "نهاية النظام الاقليمي العربي"، موقع الجزيرة. نت، الأحد 3/10/2004 (آخر تحديث) الساعة 20:10. http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004/10/3
10- جامعة الدول العربية، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية لأفراد الأسرة العربية بين الواقع والتحديات"، المشروع العربي لصحة الأسرة، قطاع الشؤون الاجتماعية، تونس 2008.
11- **جان يوركوين.» وسائل الاتصال لاجماهيري وحرية الرأي». الحلقة النقاشية حول وسائل الاتصال والتفاهم الدولي. جامعة ليوبلبانا. كلية الصحافة والعلوم السياسية. يوغسلافيا. الهيئة العامة للإستعلامات. القاهرة** *1969*.
12- خالد وليد محمود، «هل ثمة تداخل ثقافي عربي فارسي؟»، موقع الأخبار، تاريخ النشـــر: الأربعاء 24 سبتمبر 2014.
http://www.alkhabarnow.net/news/145843/2014/09/24/
13- دراسة الأدب العربي الحديث في جامعاتنا، أزمة عقليات أم أزمة هيكلية، الموقف الأدبي، ع265، أيار 1993.
14- رازق سرياني، «الشباب وتحديات العصر»، محاضرة في مجلس القديسة تريزا بحلب، البرنامج الثقافي، الثلاثاء 6 تشرين الثاني/نوفمبر 2007.
15- رحيم العراقي ، موقع الحوار المتمدن، العدد: 1527، 2006 / 4 / 21
http://www.ahewar.org/m.asp?i=1138
16-سليمان يوحنا، موقع «الحوار المتمدن» ،"العولمة وتطورات العالم المعاصر، الانهيار الوشيك للنظام الاقتصادي / المالي العالمي...؟! ما هي الخيارات..؟»

5346=i?asp.m/org.ahewar.www//:http
17- شقير محمد لبيب، "الوحدة الاقتصادية العربية تجاربها وتوقعاتها"، مركز دراسات الوحدة العربية، الجزء الأول، بيروت أيار 1986.
18- صبيحة شبر ، موقع الحوار المتمدن - العدد: 2548 - 2009 / 2 / 5 -
http://www.ahewar.org/m.asp?i=945
19-عبد الرحمن عزي، "تأثير وسائل الاتصال في الثقافة(المنهج المعياري)"، موقع الموسوعة الاسلامية، 19/06/2012.
20- عبده عبود، الأدب الألماني، دراسة استقبالية في الوطن العربي. (الآداب الأجنبية) ، العدد 48، السنة 13، صيف 1986.
21-علي وطفة، "موقف الشباب من وسائل الإعلام"، مجلة شؤون اجتماعية، العدد49 .
22- عبد الرحمن عزي، " التكوين الإعلامي: التلاقي والتلاغي بين الرسالة والوسيلة،" المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 4 ، الجزائر 1990.
23-غسان الامام، "ثقافة النخبة والثقافة الشعبية"، جريدة الشرق الأوسط، موقع منتدى حوارات الفاخرية، الثلاثـاء 20 ابريل 2010 العدد 11466. http://
www.hewaraat.net/forum/showthread.php?t=10954
24- فاطمه قاسم ، موقع الحوار المتمدن - العدد: 2553 - 2009 / 2 / 10 .
25- فاطمة البريكي ، جريدة البيان الإماراتية-2006-4-7 .
26- فيكتور جيرمونسكي، التيارات الأدبية بوصفها ظاهرة دولية. تر. غسان مرتضى (الآداب الأجنبية) ، ع. 83، صيف 1995.
27- محمود أبو بكر، «الفضائيات تتجاهل أعمال معارضي الثورة المصرية»، موقع وطن..الدبور، http://www.watan.com/art/18-09-07-2011--
ixzz1UNi1amqw#html.28

28- مفيدة العباسي، ''أثر التقنيات الحديثة على العلاقات الاجتماعية والاتصالية للأسرة العربية''، ورقة عمل مقدمة إلى مؤتمر الأسرة والإعلام العربي: نحو أدوار جديدة للإعلام الأسري الدوحة- قطر، 3-2 مايو 2010.

29- مجلة المستقبل، عدد 103 - 29/9/1997.

30- مجلة المستقبل العربي، عدد 48، شباط 1983.

31- ملف صحيفة الحياة، تيارات، السبت 31 تموز 1993

32- **منذر عنتباوي، «دور النخبة المثقفة في تعزيز حقوق الانسان العربي»، في الديمقراطية وحقوق الانسان في الوطن العربي، علي الدين هلال** ***(وآخرون)***، **، سلسلة كتب المستقبل العربي، عدد*4*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت** *1983.*

33- مي العبدالله، «الاعلام العربي في العدوان على غزة»، جريدة البيان، طرابلس 2 شباط 2009.

34- مي العبدالله، «العرب في مواجهة تطور تكنلوجيا الاعلام و الاتصال»، في العرب والاعلام الفضائي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2004.

35- هدسون جون وهرندر مارك، «العلاقات الاقتصادية الدولية»، ترجمة منصور طه ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ السعودية للنشر، 1987.

36- هدسون جون وهرندر مارك، «العلاقات الاقتصادية الدولية»، ترجمة منصور طه ومحمد علي عبد الصبور، دار المريخ السعودية للنشر 1987.

37- يحيى أبو بكر (وآخرون)، ''تطوير الاعلام في الدول العربية:الاحتياجات والأولويات''، تقارير ودراسات في مجال الاتصال الجماهيري، رقم 95 ، اليونيسكو، باريس 1983.

باللغة الفرنسيّة:

-A. Bayat, Life as politics, American University Press, Cairo 2010 .

-A. J. Lonsdale, & A. C.North, Why do we listen to music? A uses and gratifications analysis, British Journal of Psychology, London 2011.

- Antony Smith,» Technology and Control: The Interactive Dimensions of Journalism», in: James Curran (et al) eds. Mass communication and society, Edward Arnold Publishers, London 1977.

-André Vitalis, Médias, temporalité et démocratie, Editions Apogée, Paris 2004

- Armand Mattelart, Histoire de la société de l'information, Questions Contemporaines, Editions La Découverte, Paris 2001.

- Armant Mattelard, la mondialisation de la communication, La Découverte, Paris 1996.

- Bernard Miège, « Les apports à la recherche des sciences de l'information et de la communication » , Réseaux, N° 100, Paris 2000.

-C . Boix, Democracy and redistribution, Cambridge University Press, Cambridge 2003.

- C. R. Bantz, Exploring uses and gratifications, Communication Research, 9(3), London 1982

- Claude Sales, La Formation des journalistes : rapport à Mme Catherine Trautmann, ministre de la culture et de la communication, porte-parole du gouvernement, Paris 1998.

-Daniel-Louis Seiler, Les parties politiques, 2 eme Ed. Armand Colin, Paris 2000.

-E.,Katz, J. G.,Blumler, & M.Gurevitch, Uses and gratifications research. The Public Opinion Quarterly, 37(4), London 1974.

- E.,Katz, J. G., Blumler, & M.Gurevitch, (). Utilization of mass communication by the individual. In J. G. Blumler & E. Katz (Eds.), The uses of mass communications: Current perspectives on gratifications research, CA: Sage. Beverly Hills 1974.

- E . Silva, Challenging Neoliberalism in Latin America, Cambridge University Press, Cambridge and New York 2008.
- Francis Balle, Médias et sociétés : Internet, presse, éditions, cinéma, radio, télévision, Montchrestein, Paris 2007.
- Frédéric Barbier et Catherine Bertho Lavenir, Histoire des médias de Diderot à Internet, Armand Colin, Paris 1996.
Gaetant Tremblay,»La Science des communications et le phénomène technique», in Sciences sociales et transformations technologiques, Gouvernement du Québec 2002.
Henri Lefèvre, Le Matérialisme historique, PUF (nouvelle philosophique) 1971, 34, cité par Madeleine Grawitz, Méthodes des sciences sociales, Dalloz, 5° edition, Paris 1984.
- H.Herzog, Professor quiz: A gratification study. In P.F. Lazarsfeld (Ed.), Radio and the printed page, Duell, Sloan, & Pearce, New York, 1940.
- H.Herzog, Motivations and gratifications of daily serial listeners, In W. Schramm, & D. Roberts (Eds.), The process and effects of mass communication (Revised 1971), University of Illinois Press, Champaign 1941.
- Jeanine Beaudichon, La communication, Processus, formes et applications, , Armand Colin, Paris 1999.
- J. J. Galloway, & F. L. Meek, Audience uses and gratifications: An expectancy model. Communications Research, 8, London 1981.
John Stuart Mill, Système de logique déductive et inductive, Exposé des principes de la preuve et des méthodes de recherche scientifique, Livre 1, Des noms et des propositions, Chicago 1865.
«Logique», Collection Microsoft Encarta , Microsoft Corporation, Paris 1993-2004.
- M. DeFleur, & S.Ball-Rokeach, Theories of mass communication. Longman. New York, 1982

Mathieu Guidère, Le choc des révolutions arabes, Ed. Autrement, Coll. Frontières, Paris 2011.
Maurice Angers, Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaines, Ed Casbah, Alger 1997 .
- Marcello Foa, Islam And The Western World: The Role of The Media, Universita Della Svizzera Italiana, European Journalism Observatory (EJO), Die Schweizer Journalistenschule, Lugano, Milano 2008.
Michael Tomasello, Origins of Human Communication, MIT Press, NewYork 2008.
-P.F. Lazarsfeld, Radio and the printed page, Duell, Sloan, & Pierce, New York 1940.
Pierre Lévy, L'intelligence collective, La Découverte, Paris 1994.-
Pierre Puchot, Tunis-une révolution arabe, Ed. Galaade, Paris 2011.
- Pierre Lévy, L'intelligence collective, La Découverte, Paris 1994.
- P. Elliott, Uses and gratifications research: A critique and a sociological alternative. In F. G. Kline & P. Clarke (Series Eds.) & J. G. Blumler & E. Katz (Vol. Eds.) The uses of mass communications (Vol 3). Sage Annual Reviews of Communication Research, CA: Sage, Beverly Hills 1974.
- P. Palmgreen, & J.D. Rayburn, Uses and gratifications and exposure to public television: A discrepancy approach. Communication Research, 6, London 1979.
-Philippe Breton, L›Utopie de la communication, Le mythe du village planétaire, La Découverte, Paris 1995.
2- René Nabat, Les révolutions arabes - et la malédiction de Camp David, Ed. Bachari, Paris 2011.
-Riadh Sidaoui, « The InnerWeakness of Arab Media », (eds) Natascha Fioretti, Marcello Foa, Islam And The Western World: The Role of The Media, Universita Della Svizzera Italiana, European Journalism Observatory (EJO), Die Schweizer Journalistenschule, Lugano, Milano 2008.

--S.A. Lowery, & M.L. Defleur, Milestones in mass communication research (3rd ed.). Longman, New York, 1995.

- S.W. Littlejohn, Theories of human communication (6th ed.), CA: Wadsworth, Belmont 1999.

- S. J.Ball-Rokeach, , & M. L.DeFleur,. A dependency model of mass media effects, Communication Research, 3, London 1976.

-Some Policy Issues and Options, Reports and Papers on Mass Communication, no.74, Unesco, Paris 1978.

-T.E. Ruggiero, Uses and gratifications theory in the 21st century" In Mass Communication & Society, 3(1), London 2000.

Thierry Lancien (sous le direction de), « Recherche et Communication », Numéro 14 de la revue MEI, L'Harmattan, Paris 2002.

-Tourya Guaaybess, Télévisions arabes sur orbite, Ed CNRS, France 2005.

-W. A. Gamson, Power and Discontent, Homewood, The Bruszt, Illinois 2002.

-W. Severin & J.Tankard, Communication theories: Origins, methods, and uses in the mass media, (5th ed.), Pearson-Longman, New York 2001.

-Yves Jeanneret, Les Sciences de l'information et de la communication: une discipline méconnue en charge d'enjeux cruciaux, SFSIC, La Lettre d'Inforcom N° 60, Paris hiver 2001- 2002.

هذا الكتاب

لقد أدت بنا سنوات من البحث في المتغيرات الثقافية وانعكاساتها على المجتمعات الانسانية، وعلى الانسان نفسه في كل مكان، الى اعادة التفكير في معارفنا العلمية وأساليبنا البحثية ومناهجنا، وترسّخ اقتناعنا بضرورة الخروج من هذه الدراسات بحقائق علميّة، أو نظريات ناتجة عن الاستخدامات والتجارب الاتصالية الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط التي تشهد اضطرابات ومتغيرات كثرة، و في بلدان الوطن العربي بالذات التي جمعت بينها في الأزمنة الأخيرة قواسم مشتركة كثيرة، بنتيجة انقلاب الأنظمة السياسية وبالتالي الاجتماعية المستهدفة من قبل كبار المتلاعبين بالنظام الدولي الجديد. والحقيقة التي انطلقنا منها كفرضية وتؤكدها كل الدراسات حول محتوى الاعلام العربي واستخدامات وسائل الاعلام والاتصال، هي ضرورة تفعيل "ثقافة المشاركة" في هذا الزمن الذي لا بد أن نقرّ فيه بانهيار الثقافات...

كثيرة هي الاشكاليات المطروحة أمام الباحثين في علوم الاتصال، وكثيرة هي الحقول التي تنتمي الى هذا العلم الذي ما زال في طور النضوج. وكثيرة هي الخلافات التي يثيرها بين الأساتذة والباحثين. كل هذا يجعلنا نقتنع بضرورة البحث في ماهيته ومفهومه وخصوصيته وحدود انفتاحه على سائر العلوم الانسانية والاجتماعية، والعمل بجدية على تطوير نظرياته ومناهجه وطرقه وأدواته البحثية من أجل تفعيلها في الواقع العربي، وربطها بخصوصياته الثقافية، وتصويب أداء وسائل الاعلام والاتصال، ودرء مخاطرها للمستقبل. لذلك تم تأسيس الرابطة العربية لعلوم الاتصال علها تحاول جمع ما قد تفرّق، وهذا ما تأخذنا اليه الصفحات هذا الكتاب...


ISBN 614-442-495-7
9 786144 424957